

الظاهر بيبرس

الجزء الأول

دار المعارف

الظاهر بيبرس

القصص الشعبى

الظاهر بيبرس

الجزء الأول

حسن محمد جوهر

محمد أحمد برانق أمين أحمد العطار



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

الظاهر بيبرس أشهر ملوك دولة المماليك البحرية التى خلفت الدولة الأيوبية .

وكان الظاهر بيبرس سياسياً مدبراً ، وقائداً موهوباً ، وفارساً مغواراً ، تولى الملك سنة ١٢٦٠ م ، وكان قبل أن يتسلم مقاليد الحكم بطل موقعة المنصورة المشهورة ، التى فيها هزم المصريون الصليبيين ، وأسروا قائدهم لويس التاسع ملك فرنسا ؛ وكان ثانى اثنين قاما بصد جيوش التتار ، وردهم على أعقابهم ، بعد أن أوشكوا أن يخضعوا العالم العربى كله ! ولما تسلم زمام الحكم ، عمل على إعادة عهد الناصر صلاح الدين ؛ فقام بعد أن استتب له الأمر فى مصر بتوجيه ضربات ساحقة إلى الصليبيين فى الشام ، فخضد شوكتهم ، ودك كثيراً من حصونهم وقلاعهم ، واستولى على كثير من إماراتهم . ولقد أبدى من ضروب البراعة فى فنون الحرب ، وتخذيل الأعداء ، وضرب بعضهم ببعض ، وإذاعة انتصاراته فى بلادهم لتحطيم روح أهلها المعنوية ، وثنيهم عن نجدة جيوشهم فى فلسطين ، ومهاجمته لقبرص قاعدة تجمعهم للوثوب منها على مصر والشام ! . . . كما قضى على فرقة الحشاشين لخيانتهم وتعاونهم مع الصليبيين .

ولقد جعل لحكمه صفة شرعية يستمد منها قوته ، فأقام الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن قضى عليها المغول فى بغداد !

وذلك أنه حين قـــدم أحـــد أبناء العباسيين إلى مصر ، جمع القضاة والعلماء ، ومشايخ الأزهر والأمراء فى مجلس عام ، وبايعوه بالخلافة ونادَوه باسم « الخليفة المستنصر بالله » وجعل بذلك القاهرة عاصمة الخلافة ، فأسكن بعمله هذا عواصف الفتنة من حوله ، وأمن على ملكه أن يسيل عليه لعاب طامع ، أو ثائر غاصب ، فذاع لذلك صيته بين الناس ، فتغنوا بأعماله المجيدة ، وفتوحاته المتعددة ، التى لقب بسببها « أبا الفتوح » ودونوها بعد أن بالغوا فيها ، وأضافوا إليها حوادث ووقائع ابتدعها خيالهم الخصيب ، الذى أنتج أكثر قصص ألف ليلة وغيرها ، حتى أصبحت ملحمة رائعة ، كان يقصها القصاص ، ولا يزالون يقصونها فى الأسمار والموالد والمقاهى والأسواق ! وها نحن أولاء نقصها عليك فى ثوب قشيب .

ومن آثاره جامعه بالقاهرة فى الحى المسمى باسمه الظاهر .

ولقد ختم الظاهر بيبرس حياته بانتصاره انتصاراً مؤزراً على التتار ، والأرمن ؛ ولقد قيل إنه كان سبباً غير مباشر فى موته ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه أقام وليمة فاخرة ابتهاجاً بهذا النصر ، دعا إليها مئات الأمراء ورجال الجيش ، والعلماء وأعيان البلاد ، قدم فيها ما لذ وطاب من صنوف الطعام والشراب ، فأسرف فى الأكل ، فأصيب على إثرها بداء البطنة ، فعجز الطب عن علاجه فمات ، وقد ناهز الخمسين سنة ٦٧٦ هـ – ١٢٧٧ م .

المملوك المريض

١

تولى الملك الصالح أيوب الحكم ، وكان قد شبّ على الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، كما كان على علم واسع بأحكام الدين ، فأحبه الناس واعتقدوا أنه من أولياء الله الصالحين .

وكان له وزيران يركن إليهما فى مهام الأمور ، ويعتمد عليهما فى تدبير شئون المملكة الواسعة ، التى كانت تضم بين جناحيها فلسطين وسوريا والحجاز .

أولهما شاهين ، وقد كان قبل أن يهبط مصر ، ويتصل بالملك الصالح ويتخذه وزيراً ، ملكاً لمملكة بروصة ، وكان فارساً مغوارًا ، هاجم الصليبيون بلاده ، فردهم على أعقابهم خاسرين ، بعد أن فتك بهم فتكاً ذريعًا ، ثم تبعهم بجيشه إلى بلادهم ففتحها ، وأقام عليها ولاة من أنفسهم ، وفرض عليهم خراجًا يؤدونه له كل عام .

ومرت الأيام ، ومرض شاهين مرضًا شديداً أعيا أمهر الأطباء وأحكم الحكماء ، وكاد يشرف منه على الموت .

وذات يوم زاره رجل مشهود له بالتقوى والصلاح ، معروف برؤياه الصادقة ، وقال له :

إنى رأيت فيما يرى النائم أن شفاءك مرهون بسفرك إلى مصر ومقابلة الملك الصالح أيوب ، ولىّ الله المجذوب .

جعل شاهين أخاه على بروصة ، وأوصاه بتقوى الله فى الرعية، ومعاملتهم بالعدل والإحسان ، وبأن يكون دائمًا مستعدًّا لتأديب الإفرنج ، إذا حدثتهم أنفسهم بشق عصا الطاعة ومنع الخراج ، وأن لا يؤخذ من غرة .

ثم تهيأ للرحيل ، وركب فيمن اختارهم من رجاله ، وسار إلى مصر . وصل القاهرة ، واستأذن فى المثول بين يدى الملك الصالح ، فأذن له ؛ وقابله بالبشاشة والترحاب . وما إن وضع يده فى يد الملك الصالح حتى شعر بالعافية تدب فى أوصاله !

وقال الملك الصالح لجلسائه :

الله ! الله ! لقد مرض الطير ، فطار إلى مصر مهيض الجناح ! فما إن استنشق هواءها النقى حتى صح جسمه ، وقوى جناحه ! فسبحان مسبب الأسباب !

فقال شاهين : صدقت أيها الملك الصالح !

وتمنى أن يكون فى معية الملك .

فقال الملك الصالح :

إن هواك يا شاهين فى أن تلازمنى .

فقال شاهين

نعم تلك أمنيتى ! .

فقال :

إنى رجل ليس لى علم بالسلطان وشئون الحكم . فهل ترضى أن أتخذك وزيراً لتنهض بشئون الحكومة ؟

فقال :

رضيت أيها الملك !

فقال :

تأخذ للمظلوم حقه ، وتأخذ بيد الضعيف حتى يقوى ، وتجعل العدل أساس حكمك ، وميزان قولك وفعلك ؛ والله عليك من الشاهدين ! فهل رضيت يا شاهين ؟

فقال :

رضيت أيها الملك .

فقال :

تأكل من زادى ، وهو الدقة والخبز الجاف ! فهل رضيت يا شاهين؟

فقال :

رضيت !

ففرح الملك ، ومد يده فى الهواء ، وقال : يا دائم . وكررها ثلاث مرات . ثم قبض فى الهواء على شىء فى يده ، وقال :

يا شاهين خذ هذا !

فأخذه وتبينه . فإذا هو كتاب دلائل الأحكام .

فقال شاهين :

وماذا أصنع بهذا الكتاب يا مولاى ؟ .

فقال :

إن صعبت عليك دعوة ، أو تعسرت عليك قضية ، وجدت حلها فى هذا الكتاب ! واحذر أن تضيعه ، أو تهمل فى المحافظة عليه ، فإنك موعود به ، وقد كان هذا الكتاب لأحمد بن باديس السبكى ، حفظه فى مكان كذا ، أحضرته لك من مكانه ، لتستعين به ، فيعلو شأنك ، وترتفع مكانتك .

فشكره الوزير ، وقبل يده ، وانصرف ليهيئ أمر إقامته فى القاهرة .

وفى صباح اليوم التالى حضر شاهين إلى ديوان الملك ، فأدناه الملك منه وأجلسه بجانبه ، وجعل له الفصل فى الأحكام وإقامة العدل بين الناس ، وكان سرور الملك عظيماً إذ وجده يحكم بالعدل والقسطاس واستمر الحال على هذا مدة غير قصيرة من الزمان ! .

° ° °

وكان للملك الصالح جارية أثيرة عنده ، لإخلاصها له ، ولذكائها وكياستها ، وحسن سياستها وسعة علمها ، فأعتقها وتزوجها حرة ، وعاشت معه سعيدة هانئة ، لا يعكر صفوها مكدر سنين طويلة ، تأثرت فى أثنائها بصلاحه وتقواه ، فصارت صالحة تقية .



موكب السيدة فاطمة شجرة الدر وهى عائدة من الحجاز

كانت تلك السيدة شجرة الدر إحدى البطلات الشهيرات التى خلد التاريخ اسمها . . . وتاقت نفس شجرة الدر إلى حج البيت ، فأبدت رغبتها إلى زوجها . فأذن لها بذلك، وأمر وزيره شاهين أن يصحبها إلى الأقطار الحجازية ! ونادى المنادى فى المدينة : من أراد أن يحج بيت الله الحرام ، فليصحب موكب السيدة فاطمة شجرة الدر ، محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم !

وخرجت شجرة الدر فى حفل رائع ، وبين يديها جيوش الملك وعساكره ، والطبول والمزامير الملكية ، والناس مجموعون على حافتى الطريق ، والسيدات مطلات من نوافذ البيوت ، احتفالا بالموكب ، ثم سافرت إلى الأقطار الحجازية ، وهناك أكثرت من الصدقات والهبات .

وبعد الحج والزيارة رجعت إلى مصر فى صحبة من معها ، ولما وصلوا العادلية ، حملت بشائر قدومها إلى الملك الصالح الذى كان ينتظرها بفارغ الصبر ، فأمر باستقبالها وتوزيع الصدقات وتلاوة القرآن فرحاً بقدومها ، وشكراً لله على سلامتها !

وكلما جاء موسم الحج ، سافرت إلى بيت الله الحرام ، وأدت مناسك الحج ، وزارت قبر النبى صلى الله عليه وسلم . ودامت على هذه الحال اثنتى عشرة سنة !

٢

أما ثانى الوزيرين فهو أيبك التركمانى الذى كان ملكاً على أرض الموصل ، وكان جباراً عنيداً ، حريصاً على أن يعرف أخبار الأمصار ، وما يجرى فيها ، فعرف أن مصر يحكمها ملك يدعى الصالح أيوب ، وأنه رجل زاهد لا يفهم شيئاً من ضروب السياسة والحكم ، زهد فى الدنيا وعكف على العبادة والتزود للآخرة ، ولا يأخذ شيئاً لنفسه من بيت المال ويعيش على الدقة والقراقيش ، ويتخذ جدل الخوص وصنع المكاتل والقفف حرفة له تدر عليه رزقه وزاده . وسلاحه من الخشب ، وترسه من الجميز ، وهو لا يدرى من شئون الحرب والقتال شيئاً .

فسال لعابه على مصر ، وطمع فى امتلاكها ، وقال : أنا أولى بمصر وحكمها من هذا الملك ، الذى لا ينبغى أن تكون مصر فى قبضته وملك يمينه ، وأقام نائباً عنه فى الموصل ، وقاد هو جيشاً جراراً وسار به إلى مصر . متنقلا من بلد إلى بلد ، فلما وصلت أخباره والى حلب ، أغلق أبوابها ، ونصب المدافع على أسوارها ، ليصد بنارها هذا الجيش المغير ، ولما بلغ الملك أيبك التركمانى ما فعله والى حلب نزل بجيشه بعيداً عن مرمى مدافع المدينة ، ليستعد للهجوم عليها ، وقتل من فيها من العساكر ، حتى يمتلكها وتدخل فى حوزته . وبينما هو معسكر بجيشه أمام مدينة حلب

أصابه الله بمرض شديد أقعده وشغله، وحاول الأطباء والحكماء أن يعالجوه فما أفاد علاجهم شيئاً ، وألهاه مرضه عن الاقتراب من المدينة .

أما والى حلب فإنه بعث رسوله بكتاب إلى مصر ، وقص فيه ما كان من أيبك التركمانى ، وما أصابه من المرض الذى شغله وجيشه عن الحرب والقتال ، وقال : إنه كان قادماً إلى مصر لأخذها عنوة وقهراً .

أصبح الملك الصالح فى يوم من أيامه وقد جلس فى ديوانه ومن حوله وزيره وجلساؤه ، فإذا به يبسط يديه ، ويقرأ الفاتحة ويهب ثوابها لمن سبقه من الملوك ، ثم قال : الملك لله ، وكل ما سوى الله باطل ، آمنا بالله ، وصدق إيماننا فوصلنا ، سبحانك خالق الخلق ومالك الملك رب العالمين ، جار علينا الرجل الجبار ، وأراد أن يقتل بسيفه الأخيار الأبرار ، ولكن مصر يا شاهين محروسة بعناية الله ، ومن أرادها بسوء أهلكه الله . فعجب شاهين وقال : من ذلك الرجل الجبار أيها الملك الصالح ؟ فقال : لا تعبأ بكلامى ، فإنى رجل فقير لا يحسب لقوله حساب . وبينما المجلس فى وجوم الحيرة والدهشة إذ بحاجب الملك الصالح يستأذن لرسول والى حلب ، فأذن له بالدخول ؛ فلما كان بين يديه سأله عما عنده من الأخبار ، فناوله كتاب الوالى ، فأمر الملك قاضى الديوان أن يقرأه :

من نائب حلب إلى أمير المؤمنين الملك الصالح :

أغار علينا ملك الموصل الجبار أيبك التركمانى ، وعسكر بجيشه على مقربة من المدينة ، وقد أغلقت أبوابها ، ونصبت المدافع على أسوارها ،

وقد نزل بجيشه بعيداً عن مرمى المدافع ، ليدبر أمره ، ويغزونا فى عقر دارنا ، ولكن الله ابتلاه بمرض أقعده وشغله عنا ، وأحضر الأطباء والحكماء لمعالجته ، ولكن المرض استعصى عليهم ، وزادت شدته وعظمت آلامه فألهاه عن غزونا ، وقد أخبرنى الجواسيس أنه كان جاداً فى القدوم إلى مصر لامتلاكها ، وهو ما حصل عندنا ، ونحن فى انتظار ماتشيرون به علينا .

ولما انتهى من قراءة الكتاب أمر الملك الصالح أن يكتبوا لوالى حلب :

افتحوا له أبواب المدينة ، وإذا سار بجيشه إلى مصر فلا تمنعوه ، والله يفعل ما يشاء .

زاد مرض أيبك التركمانى حتى برى جسمه ، وبهر نفسه ، وتوقع الموت حيناً بعد حين ، ومر به فى مرضه هذا أحد العلماء فجلس إليه وسأله : ألم يُداوك أطباء ؟

فقال : ما عرفت طبيباً أو حكيماً إلا أحضرته ، ولكن المرض لا يزال فى شدته حتى برانى .

فقال له : سأداويك أنا وأشفيك .

فقال : ولك الفضل والشكر الجزيل .

وأقام هذا العالم على مداواته ثلاثة أسابيع حتى برئ من علته ، ورجعت إليه قوته وعافيته ، ونهض إلى العالم الشيخ فقبل يديه وأكرمه ،

وأثنى عليه وشكره ، ثم سأله عن اسمه ، وموطنه .

فقال : أنا الشيخ صلاح الدين من العراق . وساقنى إليك اليوم الملك الخلاق . فاعتقد أيبك التركمانى أنه من أولياء الله ، فزاد فى إكرامه ، ولكنه لا يدرى من هذا الشيخ الذى داواه ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله .

اعتاد أهل أحد أديرة الصليبيين فى الشام أن يخرجوا إلى البحر كل عام ، ليأسروا من يلقونه من المسافرين ، فعثروا على مركب يحمل أناساً مسافرين إلى بيت الله وزيارة قبر النبى عليه السلام ، فأسروهم جميعهم ، وكان من بينهم شيخ كبير يسمى صلاح الدين العراقى ، وكان يحفظ القرآن ، حاذقاً لعلوم الشريعة والتفسير ورواية الحديث ، وعلوم الفلسفة والمنطق والهندسة والحكمة ، وعلوم اللغة والبلاغة ، وكان متديناً زاهداً رحيماً بالضعفاء ، فأودعوه سجناً ضيقاً ، فصبر ورضى بقضاء الله وقدره ، وجعل يقرأ القرآن ، ويتلو ما حفظ من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فمر بباب سجنه عبد الصليب ، واستمع له وهو يقرأ فأعجبه ما سمع ، وذهب إلى رفقائه ، وقال : إن بالسجن راهباً من رهبان المسلمين ، فقالوا : هيا بنا نقتله تعبداً وتقرباً ، فقال لهم : الأفضل أن نذهب إليه ونقبل يديه ونسلم أمامه فى الظاهر ، ثم نجعله يعلمنا القرآن وعلوم الإسلام لنكون على معرفة بالأديان الأخرى ، فقالوا :

ونحن معك ، فذهبوا إليه ، وفتح عبد الصليب باب السجن ودخل هو ورفقاؤه عليه ، وجعلوا يقبلون يديه ورجليه ، فقال الشيخ لعبد الصليب : من أنت ؟ فقال : أنا من هذا الدير ، وقد أعجبنى ما تقرؤه، وأحب أن تعلمنيه ، فقال : يا ولدى ، هذا كلام الله ، الذى يحفظه المسلمون ، فقال عبد الصليب : وماذا أفعل حتى أصبح من المسلمين ؟ فقال : أن تقول مصدقاً مخلصاً : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فنطق بها عبد الصليب بلسانه ولم يصدق بها قلبه، ثم نهض وفك عن الشيخ أغلاله وقيوده ، وأقام معه فى مخدع بأعلى الدير، وفرش له فرشاً غالية ، وأخذ يطعمه ويكرمه ،وجعل الشيخ يعلمه القرآن والحديث وغيرهما من العلوم ، وكان معه رفيقه سيف الروم ، واستمرا يتعلمان أربع سنوات ، كان عبد الصليب بعدها صورة فى العلم والمعرفة وحفظ القرآن لأستاذه الشيخ صلاح الدين العراقى .

وقال عبد الصليب لرفيقه سيف الروم : قد علمنى الشيخ صلاح الدين العراقى علومه ، وأفرغت ما عنده ، وأصبحت لا يمتاز هو عنى فى حفظ القرآن ومعرفة العلوم فى قليل ولا كثير ، وإنى أردت أن أجزيه على صنيعه هذا ، فقال سيف الروم : أقل جزائه عندى أن تطلق سراحه ، وتعطيه المال الذى يوصله إلى بلده ، فقال عبد الصليب : إنه ليس له جزاء عندى إلا أن أذبحه وأوارى جثته ، ونفذ عبد الصليب ما أراد ، فذبحه ودفنه بجانب الدير .

وأحس راهب الدير الأكبر هذه الخطيئة الكبرى فطرد الاثنين من الدير ، وأنذرهما الهلاك المحتوم إن بقيا فيه . فلبس عبد الصليب ملابس الشيخ صلاح الدين ، واتخذ سيف الروم طالبًا معه وسماه منصوراً ، ومشيا معًا يطلبان أرضًا أو قرية ليقيما فيها .

وبينما هما سائران فى طريقهما بلغهما نبأ مرض التركمانى فى عسكره النازلين على مقربة من حلب ، فقال عبد الصليب : سر بنا يا منصور إلى هذا الملك . فعسى أن نجد عنده مقامًا طيبًا وعيشة راضية ، ودخل عبد الصليب على أيبك وشفاه من مرضه ، وأفهمه أنه الشيخ صلاح الدين العراقى ، وأنه من عباد الله الصالحين ، وأن خيراً كثيراً سيناله على يديه ما دام معه ، فصدقه أيبك واعتقد أنه من أولياء الله الصالحين . وطلب إليه أن يصحبه إلى مصر ، فقال : لن أصحبك الآن ، وسألحق بك . ويكون لقاؤنا فى مصر بعد أن أزور سكان الشام من الأنبياء والرسل الأكرمين ، فقال : لا تنس أن تدعو لى فى تلك الأماكن الطاهرة ، فقال : إن شاء الله لن يكون إلا كل خير ، ثم ودعه وانصرف كل منهما إلى سبيله .

سار أيبك من حلب إلى غزة ومنها إلى قطية ، وظل سائراً هو وجيشه ، فتاهوا فى الطريق وضلوا ، وجعلوا يسيرون أربعين يومًا ، وهم لا يجدون بلداً ولا يرون أحداً ، ولما أحس الجيش الخطر وأضناه التعب قالوا لملكهم أيبك : عجل لنا أمرك بخلاصنا مما يحيق بنا من الخطر ، فإما

رجعت بنا إلى ديارنا ، وإما دللتنا على الطريق وأخرجتنا من هذه المتاهة ، وإما قتلناك وأرحنا أنفسنا منك ، أما اتعظت بمرضك الذى أشرفت فيه على الهلاك ؟ ! ألم تعتبر بضلالنا فى هذه المتاهات القاتلة ؟ ! لقد اعتديت على ملك مصر ، وهو رجل مؤيد بعناية الله وقدرته ، لأنه أخلص له دينه ، واولاذلك ما استطاع أن يحكم مصر على فقره وقلة جنده .

فقال أيبك : لقد صح عندى الآن أن الملك الصالح من أولياء الله الصالحين ، فمنذ عزمت أن أغزو أرضه وأغصب ملكه وأنا لا أخرج من ضيق إلا إلى ضيق ، فقد مرضت وضللت ، وهؤلاء جنودى وأعوانى عصونى وهددونى بالقتل ، وهذا الملك الصالح يأمر ولاته ألا يغلقوا أبواب المدن فى وجهى وألا يصدونى عن أرض مصر ، فلله علىّ نذر إن خرجت من هذا الضلال أن أذهب إليه فى مصر وأقبل يديه ، وإن أراد مالاحملته إليه ، وإن أراد أن أخدمه خدمته ، وإن رغب فى قتلى سلمت إليه نفسى . وحرام علىّ بعد الآن أن أخالف أولياء الله أو أغضبهم ، والله على ما أقول شهيد .

كان أيبك صادقًا فى توبته ، ولهذا لم تشرق عليهم شمس غدهم حتى كانت مدينة مصر على مرأى من أعينهم ، ففرحوا بنجاتهم ، فنزلوا على مقربة منها ليستريحوا ، وأقاموا ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع ، لبس أفخر ثيابه ، وأخذ معه رجاله وسادات أبطاله ، ودخلوا مصر ليحظوا بالمثول بين يدى الملك الصالح أيوب .

تكامل مجلس الديوان ، وجاء الملك الصالح فحيا وسلم وجلس مكانه وقال : سبحان مالك الملك ، مدبر الأمر . يا شاهين ، اجتمع الرجل بالرجل ، ولكن الرجل صافى القلب مخلص النية ، ولا يعلم بحال الرجل إلا علام الغيوب ، فعجب شاهين ، وقال : أى رجل يا ملك ؟ ! فقال : إنى رجل فقير يا شاهين ، وما عليك أن سمعت قولى هذا ، ثم أغفلته . يا علام الغيوب ، أظهر الحق على الباطل وانصرنا على القوم الظالمين .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى كان الملك أيبك أمام الملك الصالح فى ديوانه يحييه ويدعو له بالعز والتأييد، فقال الملك الصالح : أهلاً بالعزيز أيبك ملك الموصل ، ومن خرج من بلاده ليملك مصر اغتصاباً . فقال أيبك : إنما جئت الآن لأكون فى حماك ومستمتعاً برضاك ، فقال : أخبرنا عما جرى لك فى طريقك إلينا ، فقص عليه كل شىء ظاهره وخافيه ، واعترف له بالكرامات التى رآها ، وقال : وقد جئتك لأكون أنا ورجالى وجندى فى طاعتك ، وقد تركت جندى بالعدلية وقدمت إليك أنا وأكابر دولتى . فقال الملك الصالح : وهل تود الخدمة فى ديوانى وتكون من جلسائى وأعوانى ؟ فقال أيبك : أود أن أكون خادمك المطيع وأفتديك بروحى وجسمى وما ملكت يمينى . فقال الملك الصالح : البس هذا القباء فقد جعلتك وزيرى ، وأمرت لك بمنزل تقيم فيه أنت ورجالك ، وكتب أيبك إلى نائبه بالموصل شارحاً له جميع ما حصل له ، وانتهى أمره إلى هذه الحال .



الملك أيبك أمام الملك الصالح

٣

مرت الأيام والليالى وأيبك عند الملك الصالح . وبينما كان جالساً فى بيته دخل عليه الشيخ صلاح الدين العراقى « وهو عبد الصليب » ومعه تابعه سيف الروم ، فلقيه لقاء جميلا وجلسا يتحدثان ، وجعل الشيخ صلاح الدين يخدعه ويغويه ويزخرف له وجوه الغى والضلال ، وأيبك لا يعلم عن هذا الرجل إلا أنه من عباد الله الصالحين ، وسأله : وكيف حالك بعد أن فارقتك قادماً إلى مصر ؟ فقال : يا ولدى ، زرت بيت المقدس ، ودعوت الله هناك أن يعزك ويرفعك ، ويعلى شأنك ، ثم اشتقت إليك ، فجئتك لأفرح برؤيتك . فقال أيبك : مرحباً بك أيها الشيخ الصالح ، وقص عليه ما جرى له من أوله إلى آخره ، وأقام معه فى بيته ، يصلى ويصوم ، ويقرأ القرآن ويتلو الأحاديث ويستذكر ما شاء من مختلف العلوم

وتبوأ الملك الصالح مجلسه فى ديوانه . فقال : يا شاهين ، جاء الطير عند الطير ، واتفق مع الطير ودخل القفص ؛ ولكن كل أمر يا شاهين بقضاء وقدر ، فقال شاهين : وما الطير ؟ فقال : لا تأخذ بقولى . فإنما أنا رجل فقير ، لا أعرف من دنياى إلا جدل الخوص وصنع القفف . ثم قال : وأين قاضى الديوان ؟ فقيل : إنه مريض منذ ثلاثة أيام .

وبعد شهر من هذا المجلس جاءه نبأ وفاة قاضى الديوان السيد محمد نور الدين ، فأمر وزيره أن يشيعه إلى قبره ، فصدع بأمره ، وشيعه حتى دفن على مقربة من السيدة نفيسة رضى الله عنها .

ولما رجع الوزير إلى مجلس الملك أمره أن يبحث عن رجل ذى دين وتقوى، وفطانة ومعرفة ، ليوليه القضاء بدلاً من القاضى الراحل، فنادى الوزير قائلاً : يا علماء الإسلام ، هل عندكم من يصلح للقضاء ؟ فقالوا : خير الله كثير ، ونهض أيبك إلى الملك ، فقال : عندى شيخ صالح من العراق ، يحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث ، وهو تقى صالح جاءنى وأنا مريض فى حلب ، وقد شفانى الله على يديه ، وهو الآن مقيم بمنزلى ، فقال الملك الصالح : يا شاهين ، ما رأيك فيما سمعت من الوزير أيبك ؟ وهل ترضى أن يكون الشيخ صلاح الدين قاضى الديوان ، فقال شاهين : ليس لى اعتراض على أهل الصلاح والتقوى ، وما كنت إلا خادماً لهم ، فأمر الملك أيبك أن يحضر إليه الرجل الذى عنده ، ليوليه قضاء الديوان ، على شرط ألا يصلى الملك الصالح وراءه ، فقال شاهين : ولم ذلك يا مولاى ؟ فقال الملك : ذلك رجل واسع المعرفة ، وأنا رجل فقير أعبد الله بقدر معرفتى ، وأخشى أن يعيب صلاتى ، فلا يزعجك هذا يا شاهين ، ستر الله عيبك ، وشرح صدرك ، فقال الوزير : كما تشاء يا مولاى .

° ° °

غادر أيبك ديوان الملك إلى الشيخ صلاح الدين فى منزله ، وقال له : أبشر بخير ساقه الله إليك ، فقد أصدر الملك الصالح أمره بتوليتك قضاء الديوان ، فتعال معى الآن إليه ، فإن المجلس كله فى انتظار قدومك . فنهض الشيخ ولبس جبته وقباءه وعمامته ، وأمسك سبحته فى يده ووضع « محفظته » ومحبرته فى جيبه ومشى بجانب صاحبه يذكر الله ويتلو آيات من القرآن الكريم ، ودخل على الملك فحيا وسلم ودعا له بالخير والهناءة وأفاض فى مدحه والثناء عليه ، فقال الملك : السلام على أهل السلام ، أهلا بالعالم العراقى ، اجلس على كرسى القضاء ، وقال أيبك : اجلس وادع للملك بالنصر والتأييد ، فقال الملك : ليكن دعاؤك لصاحبك أيبك ، الذى كان السبب فى ولايتك القضاء ، ولقد كنت معروفاً بغير ما ذكرت من الأسماء ، فقال الشيخ : وأعرف أنك من الذين خصهم الله بالولاية والرعاية ، فقال الملك : ورحم الله من سميت باسمه ، ومات شهيداً وجازيته بتعليمه إياك الجزاء الذى تعرفه ويعرفه الطالب منصور معك ، فقال الشيخ : ما أخطأت الواقع وما نطقت إلا بالحق ، فقال الملك : اجلس على هذا الكرسى ، واتجه إلى أيبك وأحبائك ، ولا تلتفت نحوى ، فلقد كان لسلفك القاضى هيبة عظمى ، مع أنه أقل منك قراءة وعلماً ، وما أنا بقادر على النظر بعينى أو قلبى . فعجب الوزير من هذا القول الذى لا يدرك معناه ولا مرماه .

أخذ القاضى الجديد يحكم بين الناس ، وغلامه منصور الطالب

بين يديه ، حتى ثبتت أقدامه ، واستقر فى منصبه ، واشترى له بيتاً فى حارة الروم وأقام فيه ، وجعل يفكر ويقدر ويعمل ويدبر ، لتحقيق غاية فى نفسه ، لا يعلم بها أحد غيره .

وذات يوم قال الملك الصالح لجلسائه : رأيت فى المنام الليلة الماضية كأنى فى واد قفر فسيح ، قد امتلأ بالضباع ، وأحاطت بى من كل جانب وما كان لى منجاة منها إلا الاستعانة بربى العليم القدير ، وقد جال فى نفسى هذه العبارة :

« آن الأوان فانتبه لما تراه فى المنام ، أتاك الإذن من ربك ، فاطرح الكسل عن نفسك ، وأعد للكفر جيشاً ، وسل ربك نصراً » ؛ ولما اشتد خوفى ، لجأت بقلبى إلى ربى ، فرأيت خمسة وسبعين سبعاً قادمة تجرى من الهضاب إلى الضباع ، يقدمها سبع ضخم الجثة واسع الصدر ، وأعملت أنيابها وأظافرها فى الضباع حتى أهلكتها جميعها ، ولم تبق منها واحداً ، ثم استيقظت من هول ما رأيت . فقال العلماء : نحن بتأويل هذه الرؤيا عالمون ، فما الضباع إلا رمز لأهل الكفر والضلال ، تغريهم كثرتهم وجمعهم ، فيتحركون من حولك ، يبغون بك الضر والأذى ، وما السباع إلا رمز لأهل الإسلام ينشطون من ديارهم ، فيلتهمون الكفار بسيوفهم ، ويردون كيدهم فى نحورهم ، وينبغى أن تشترى من مال الدولة جيشاً من المماليك ، ليكونوا لنا عوناً فى حماية الإسلام ، والفتك بأهل الكفر والطغيان ، وذلك تأويل رؤياك ، وهو

ما أذنك به ربك ومولاك .

فتبسم الملك الصالح ضاحكًا ، وقال : يا شاهين ، ومن هؤلاء المماليك الذين يباعون ويشترون ؟ فقال : أناس مثلنا يا مولاى ، فقال : وهل يباع الناس ويشترون ؟ فقال : نعم يا ملك ، فقال الملك : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ فكن وكيلى فى إحضار المماليك وشرائهم ، فانظر حينئذ ماذا تفعل ؟

كتب الوزير شاهين إلى شيخ « الياسرجية » يأمره فيه بالحضور إليه فوراً ، هو ومن تحت يده من « الياسرجية » وتجار الرقيق . فلما حضروا فى دار الوزير شاهين أكرمهم ، وقال لكبيرهم : لقد أرسلت فى طلبكم لأمر يهمنى ويهم الملك الصالح ، وأود أن يقضى فى أسرع وقت ، وهو إحضار خمسة وسبعين مملوكًا ، جميعهم من أبناء الملوك . ومن أكرمهم خلقاً وأذكاهم عقلا ، ومن ثلاثة أجناس ، فخمسة وعشرون شركسيًّا ، وخمسة وعشرون أباظيًّا ، وخمسة وعشرون جرجيًّا ، فقال : أيها الوزير : ليس فينا من يستطيع إحضار هؤلاء المماليك ، ولكنى أدلك على من يقدر عليه ، وهو على بن الوراقة ، ورث هذه الحرفة عن أبيه وجده ، وهو مرهف الإحساس قوى الفطنة ، إذا سمع حديثًا من إنسان استطاع أن ينسبه إلى جنسه ، فقال الوزير : شكراً لكم ، ثم أنعم عليهم وأخلى سبيلهم .

ثم أحضر « سوا باشا » ــ وهذا لفظ يطلق على كل وال بالمدينة ــ

وقال له : اذهب إلى الحسينية ، واسأل عن بيت على بن الوراقة ، فإن وجدته فائتنى به ، فقال له : سمعاً وطاعة .

* * *

كان على بن الوراقة واسع الغنى ، ثم افتقر ، وأصبح لا يملك قوته ولا قوت عياله ، وقعد فى البيت كئيباً حزيناً ، وكانت زوجته من السيدات الفضليات ، فقالت له : قم يا سيدى إلى السوق ، وتوكل على الخالق الرزاق ، فعسى الله أن يفتح لك باب الغنى ، أو يعطيك من فضله ما نتزود به هذا اليوم ، وتدفع به عن أولادك ألم الجوع .

خرج علىّ من المنزل وهو فى أشد الألم والحزن ، لأن أولاده يتضورون جوعاً ، ويده فارغة لا يستطيع إطعامهم ، ولكنه كان يشكو بقلبه إلى الله ، ويدعوه أن يسهل له رزق أولاده ورزقه ، فمشى وهو لا يبغى جهة معينة ، واستمر ماشياً حتى كان فى باب الشعرية ، فرآه زيات وهو فى دكانه ، يمشى وقد بدت عليه مسكنة الفقر وذله ، فجرى إليه وأحضره معه وأجلسه فى دكانه ، وقال له : أنت يا سيدى على بن الوراقة ؟ ! فقال نعم : ومن أنت أيها الرجل ؟ فقال له : أنا البهلول سايس ركائب أبيك ، رُبِّيت فى نعمته ، ونشأت فى ظل وارف من غناه وثروته ، وماذا أصابك ، وغير حالك ، وأزال عنك وضاءة النعمة ، وألبسك لباس الفقر والمسكنة ؟ ! فقال ضاقت علينا الدنيا بعد سعتها ، وافتقرت بعد الغنى ، وأصبحت لا أملك لقمة أدفع بها مرارة الجوع عن

أولادى ، والحمد لله على كل حال ، فهو اللطيف بعباده ، وهو العليم الخبير .

فنهض الزيات متأثراً ، وأعد قصعة « بسيسة » فيها مقدار مائة رغيف ، وسمن وعسل ، وقال له : خذ هذه يا سيدى واذهب بها إلى أولادك ، فإذا فرغت فائتنى لتنال حاجتك ، ثم ناوله ستين فضة ، وقبل يده وودعه .

رجع على بن الوراقة بالقصعة والفضة ، وهو شاكر لله ما أنعم ، وأن فرج عنه بهذا الزاد كل هم وغم ، ولما أتى السليمانية رأى رجلا جالساً بجوار السبيل وهو يقول : طالب من الله ، ومن خير الله قصعة « بسيسة » فيها مقدار مائة رغيف وسمن وعسل . ومعها ستون فضة ، وأجر معطيها على الله ! فاقترب منه ، وقال له :

لقد استجاب الله لك ! وأعطاه القصعة والفضة ، ورجع إلى بيته مسروراً ، فوجد رسول الوزير فى انتظاره .

وجاء الرسول بعلى بن الوراقة ؛ إلى الوزير شاهين ، فقال له :

يا علىّ : كيف ذهب مالك ، وساءت حالك ، بعد خفض العيش وسعة الحياة ؟ ! فقال على : خسرت مالى جميعه ، فغرق بعضه فى البحر ونهب باقيه فى البر ، وأصبحت لا أجد كسرة أنسى بها أولادى حرقة الجوع ، وذلك قضاء الله الذى آمنت به ورضيت بقدره . قال الوزير تولاك الله وأحسن إليك ، لقد بعثت إليك فى أمر أراده الملك الصالح ،

وقضاؤه فى يدك ، فقال على : وما ذاك أيها الوزير ؟ قال الوزير : أراد الملك شراء خمسة وسبعين مملوكاً ، ذوى فطنة وخلق كريم ، وأن يكونوا من أجناس ثلاثة ؛ شركسى وأباظى وچرچىّ ، فقال على : ولكن ديونًا كثيرة فى ذمتى لكثير من الناس ، فإذا عرفوا أن معى مالا ، وسأشترى به مماليك جاءونى فأخذوا أموالهم ، ثم رجعت بعد ذلك صفر اليدين ، ليس فيهما مال ولا مماليك ، فقال الوزير : تلك عقدة نستطيع حلها ، ولكن سمعت عنك أنك تعرف جنس الرجل من حديثه ، فهل تعرفنى أنا من أى جنس ؟ فقال على : إن منحتنى الأمان أجبتك ، فقال : أجب فأنت آمن ، فقال : أبوك تركى ، وأمك مغربية ، فهل ذلك صحيح ؟ فقال الوزير : نعم ، وأعطاه الوزير خلعة سنية ، وخمسمائة دينار ، وأمر له بخمسمائة حمل من الأرز والقمح والسمن والعسل ، ومائة شاة وخمسين من الإبل ، وقال لرجاله : اذهبوا بهذه الأشياء إلى بيت على ابن الوراقة ، واحرصوا على أن تكون فى بيته قبل وصوله ، ثم التفت إلى على وقال : لترجع إلى بيتك وعيالك الآن ، وإذا كان الغد فائتنى فى مجلس الملك بديوانه ، فقال : سمعًا وطاعة .

طرق رجال الوزير بيت على بن الوراقة ، وفتح بابه ، ولما رأت زوجته هذه الأموال الكثيرة ظنت أنهم تاهوا وضلوا ، فقالت لهم : ما هذا بيت الأمير ولكنه بيت رجل فقير يدعى على بن الوراقة ، فقالوا : وما أرسل هذه الأشياء إليك إلا علىّ هذا زوجك ، فأدخلت الأموال

المنزل وهى لا تكاد تستقر من الفرح والسرور .

ورجع علىّ إلى بيته فوجده مليئاً بالخير الجزيل ، وشاع فيه الفرح وانتعش الأولاد وتحول سكونهم إلى حركة وغبطة ، ثم شرح علىّ لزوجته قصته . وابتهلوا إلى الله بالحمد والثناء .

جاء الغد ومثل على بن الوراقة بين يدى الملك الصالح فى مجلسه بديوانه فقال له : أهلا وسهلا بسيدى على بن الوراقة ، ما حاجتك ؟ فقال الوزير شاهين : هذا الذى سيشترى المماليك ويأتينا بهم ، فقال الملك : أأنت فاعل هذا يا على ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال : ولى مع هذا حاجة أخرى ، وهى أن تشترى لى مملوكًا حسن البيان ، قوى الجنان ، يحفظ القرآن ، لينًا فى مواضع اللين ، قويًّا فى موضع القوة مشرق الطلعة ، محمود السيرة ، كريم الخلق . وإذا غضب اربد وجهه وتقطب جبينه .

فإذا وجدته فابتعه لى ، وخذ هذه الصرة فادفعها ثمنًا له دون أن تفتحها ودون أن تعلم أنت والبائع ما فيها . فقال علىّ : سمعًا وطاعة ، ولكن نفسه حدثته قائلة : وأنّى لى هذه الصفات مجتمعة فى مملوك ؟! وكيف أشتريه بصرة مجهولة لا أعرف ولا يعرف البائع ما فيها ؟ فابتدره الملك الصالح مجيبًا عما حدثته به نفسه : يا على بن الوراقة ، إذا أراد الله أمراً يسر سبله ، وفتح أبوابه ، فأحسن بالله ظنك ، وسوف ترى ما يسرك ، ثم قال لوزيره شاهين : أعطه ثمن المماليك ، وخمسة وسبعين

بذلة ملكية ، وخلعة سنية ، وحجة يكون بها شيخ الياسرجية ، وهو رجل عليه ديون كثيرة . وربما قبض عليه أصحابها وجردوه من المال وأخذوا منه المماليك ، فاكتب له « فرمانًا » تحرم فيه على أصحاب الديون وغيرهم ألا يطلبوا منه شيئًا وألا يتعرضوا له ، ومن كان له دين عنده فليأخذه منا ، ثم حذرهم مخالفة هذا « الفرمان » . وابعث فى المدينة رسلا يبلغون الناس هذا .

ولما أذيع بين الناس نبأ هذا « الفرمان » ركبهم الخوف على أنفسهم ، إن هم طلبوا من السلطان ديونهم ، فزهدوا فيها وتركوها .

أخذ على بن الوراقة « الفرمان » والأموال ، ورحل إلى البلاد ليشترى المماليك منها ، ولم يزل سائراً من بلد إلى بلد حتى كان بغزة ، فنزل فى خان بها ، وفى اليوم الثانى من قدومه جاءه بالخان أربع « أغوات » وكانوا رسلا من حسان نائب غزة يدعونه إليه ، فنهض معهم إلى ديوانه وسلم عليه ، ولما جلس قال حسان له : الحمد لله الذى أغناك ويسر لك ، هات ما عندك لى من الدين ، وأعطنى ما جئت به من المال ، فناوله على « فرمان » الملك الصالح ، ولما قرأه قال : سمعًا وطاعة لأمر الملك ، ثم ناوله إياه وقال له : إذا عثرت على مملوك يليق لى فابتعه لى ، ثم ودعه فى حفاوة إلى خانه .

أخذ على يجوس خلال البلاد فى الشام ، وكلما لقيه نائب مدينة وطلب منه دَينه أطلعه على « الفرمان » ، وكان مصيره معه مثل مصيره مع

نائب غزة ، ولما كان فى مدينة برصة أضافه حاكمها مسعود بك بن عثمان ، وقص ابن الوراقة عليه قصته وسبب مجيئه ورحلته ، فأحضر له «الياسرجية» وشرح لهم ما يطلبه الملك ، فقالوا : لا نقدر على إحضار هؤلاء المماليك ، ولا نعرف أحداً يستطيع ذلك ، ثم انصرفوا إلى أعمالهم .

وفى صبيحة يوم استيقظ علىّ من نومه ، وأراد أن يخرج من المكان الذى يبيت فيه ، فسمع طنيناً كطنين النحل عن يمينه ، فمشى إلى منبع هذا الطنين فوجد قاعة ذات أربعة أواوين واسعة ، وهى مفروشة بالبسط الملونة ، وبها مماليك قد أشرقت وجوههم حسناً وجمالا ، وكانوا فرقاً وطوائف ، فأمّ طائفة منها ، وجلس إلى كبيرهم أيدمر ، وتحدث إليه ، فوجده عذب الحديث كريم الخصال ، ثم سأله كبيرهم هذا : من أنت ياسيدى وما تريد ؟ وما سبب قدومك إلينا ؟ فقال علىّ : أنا ضيف الأمير مسعود ابن عثمان ، استيقظت من نومى ، وخرجت من مكانى ، فضللت الطريق ، وسعيت حتى جئتكم ، ومن أنتم ؟ فقال : نحن مماليك الأمير مسعود ، ومنا الشركسى ، والأباظى ، والجرجى ، وما منا إلا ابن ملك كبير ، أو بطل أو أمير ، قضت علينا إرادة الله أن نكون فى هذا المكان ، وجميعنا نقرأ القرآن ، فقال على فى نفسه : هؤلاء طلبة الملك الصالح ، ثم رجع إلى الأمير مسعود فى ديوانه فأجلسه بجانبه وأطعمه وأكرمه ، ثم قال علىّ : أريتنى بالأمس أنك غير قادر على إحضار المماليك لمولانا الملك الصالح أيوب ، واليوم رأيتهم فى قاعتك ، فهل لذلك سبب عندك ؟ فهاج مسعود غاضباً

وقال : ما أقل حياءك ! وما أقبح أدبك ! وما أجرأك على مقابلة الإحسان بالإساءة ! جئتنى فأكرمتك ، فكيف تجازينى بسيء فعلك وقولك ؟ ! ! وكيف يجوز فى عقلك أن أعطيك ما تملكه يمينى واحتجزته لنفسى ؟ ! إن ذلك لن يكون ، ولئن طلعت شمس الغد وأنت فى برصة لأذيقنك العذاب الأليم ، فاخرج الآن مذموماً مدحوراً ، وإن وقع عليك بصرى بعد ذلك ، فلا تلومن إلا نفسك . ثم أمر جنده أن يقتلوا علياً إن وجدوه بعد اليوم فى برصة .

خرج على بن الوراقة يتعثر فى أذيال خيبته ومخافته . وذهب إلى غلمانه الذين ينتظرونه فى خانه ، وأمرهم بالرحيل فوراً من برصة ، فراراً من واليها الذى أهانه وطرده . وفى المساء حملوا أمتعتهم وزادهم على دوابهم وطلبوا أبواب المدينة ، ولما خرجوا باتوا بقية ليلتهم هذه فى الخلاء ، وعلى مقربة من برصة ، على أن يستأنفوا رحيلهم فى ضحوة النهار .

وفى اليوم الذى طرد مسعود فيه على بن الوراقة ، جلس الملك الصالح فى ديوانه وقال : سبحان مالك الممالك ، يا شاهين ، أبصر الطير الطيور وأخبر بذلك الطير ، وطرد الطير من القفص ، وأنذره أن ينقره بمنقاره إن دخل القفص ، وخاف الطير من الطير ، وترك القفص للطير ، وسار بعيداً عن الطير . يا شاهين ، سيأخذ الطير الطيور ، رضى الطير أم سخط وأبى . ولا ينفذ إلا كلام الطير . فقال شاهين : وأين الطير ؟ فقال الملك : لا تؤاخذنى بما سمعته منى ، فربما كنت ألغو وألهو .

وفى مساء ذلك اليوم نام مسعود ملء عينيه ، فرأى فى منامه أن رجلا وضع يده على صدره ، وثقلت عليه حتى كادت روحه تزهق ، وسمعه يقول : يا مسعود ، أنا الملك الصالح الفقير إلى الله ، إن لم تعط عليًّا ما عندك من المماليك جميعهم ، قصمت ظهرك ، وأعدمتك حسك ، ثم أخذ علىّ المماليك من بعدك . فانظر لنفسك ما تختاره من حياتك أو موتك . ثم انتبه مسعود من نومه فزعًا .

ونام علىّ بن الوراقة فرأى فى منامه رجلا حط يده على صدره كما تحط الأم الرءوم يدها على صدر ابنها . ثم قال : يا على : أنا الفقير إلى رحمة ربه الملك الصالح ، سيأتيك مسعود غداً ، فاشتر منه المماليك بالثمن الذى تراه . فلن يرد لك قولا وإن أعطيته فيها كيسًا من التراب ، ولن ترى منه إلا ما يرضيك ويسرك ، ثم استيقظ علىّ من نومه .

غادر مسعود فراش نومه فى الصباح وهو يرتعد فرقًا ورعبًا . فأرسل إلى على بن الوراقة رسولا يدعوه إليه ، فمضى الرسول يقتفى أثره ، حتى وجده فى مكانه الذى بات فيه خارج المدينة ، ودعاه إلى مسعود سيده ، فقال على له : ارجع إلى سيدك وقل له : إنك أنذرت عليًّا قتلا شنيعًا إن رأيته فى المدينة بعد الليلة الماضية ، وبلغه أنى عزمت على المسير ، وتوكلت على اللطيف الخبير . فعاد الرسول إلى مسعود من فوره ، وأخبره بما سمعه . فاشتد خوفه ، وبعث إليه رسولا آخر يسترضيه ، ويرجوه العودة إليه . فأبى علىّ أن يرجع ، وقال له : بلغ سيدك أنى راحل

مقلع . ولما بلغه الرسول إباء علىّ وإصراره على المسير ، جمع طائفة من صحبه ، وأعيان بلده . وذهب معهم إليه ، فلقيهم على بن الوراقة ، وذكر مسعوداً بوعيده وتهديده ، فقال مسعود : ما كنت إلا مازحاً ، وما ينبغى لى أن أمنع الملك الصالح شيئاً يريده ، وإن أرادنى مملوكاً من مماليكه فقد رضيت بذلك نفساً ، ولى بعد ذلك شرف خدمته ، ومزية القرب منه ، وهبنى أخطأت فيما قلت ، فلى من صفحك وعفوك ما يمحو خطيئتى ، ومن سماحة خلقك ما يقبل توبتى ، وإنى أستحلفك بربك ، أن ترجع معنا وتأخذ حاجتك . فعفا عنه ابن الوراقة ، وعرف أن هذا كله ببركة الملك الصالح سيده ، ورجع معهم ودخلوا قاعة المماليك ونادى فيهم مسعود : قد انتقلتم من ذمتى وملك يمينى ، إلى ذمة سيدكم على بن الوراقة وملك يمينه ، فقالوا : إنه سيبيعنا ويفرق جمعنا ويوزعنا على الناس . فقال على : ورب العزة لن أبيع منكم مملوكاً وحده ، ولكنكم مطلوبون للملك الصالح ، ليستعين بكم على نصرة الإسلام وأهله ، وستكونون فى مكان واحد مجتمعين لا ينقص منكم أحد . ثم خرج مع مسعود وأمر غلمانه أن يحضروا المال والبذلات الغوالى ، فلما أحضروها ناول مسعوداً كيساً ، وقال : هذا الكيس ثمن المماليك ، وفيه خمسة وسبعون ألف دينار ، لكل مملوك ألف ، فقال مسعود : وهذه الدنانير هبة منى لك ، وهذا صك منى لك بأنى قد أخذت ثمن المماليك منك .

ووجد علىّ عدد البذلات خمسة وسبعين لكل مملوك بذلة ، ومعها بذلة أخرى هى السادسة والسبعون . فأمر أن يذهب المماليك إلى حمام المدينة فأخلاه مسعود لهم . وجعله هذا اليوم على رسمهم ، وأخذ علىّ البذلة الزائدة ومشى معهم إلى الحمام ، فلما دخلوه ملأت أنوفهم رائحة كريهة تنبعث من داخله ، فسألوا أصحاب الحمام وخدمه ، فقالوا : إنها رائحة من غلام مريض ، مضى عليه ثلاثة أيام ، وهو يتوجع من الألم ولم يذق طعامًا . وهو ارجل يقال له محمود العجمى ، أتى به إلى هذا المكان ورماه فى دهليز الحمام . فنفر منه المماليك ، واشمأزوا من شكله ورائحته ، ولكن أيدمر أحد المماليك أقبل إليه وقبله ، وقال : عافاك الله : يا أخى وشفاك . وإن شاء ربى فسيزول ما بك من علة . فإن الله لطيف بعباده ، فقال المملوك : جبر الله خاطرك كما جبرتنى ؛ نحن مسلمون ، وقد أسلمنا أمرنا لله رب العالمين ، خذ بيدى وساعدنى حتى أقعد ، فعاونه أيدمر حتى أقعده وجعل رأسه على صدره ، فشكر له جميل صنعه ، وبعد أن استراح أضجعه على فراشه ، ثم دعا له بالشفاء وتركه إلى على بن الوراقة .

رأى علىّ أيدمر قادمًا عليه يبكى . فسأله عما أبكاه فقال : وجدت ما آلمنى وأوجع قلبى وأبكانى . وقد جئتك لأستشيرك فى هذا الأمر الأليم المحزن ، فقال علىّ : قل يا والدى ولك عندى ما شئت ، فقال : رأيت مملوكًا من أبناء الملوك ، فصيح اللسان حاضر البديهة لين الخلق



نادى مسعود فى المماليك : لقد بعتكم لابن الوراقة

ولكنه مريض ، وليس له معين ، ورجائى منك أن تأخذه معنا ، وسأكون خادماً له حتى يبرأ من علته ، واذكر قول الرسول عليه السلام إنما تنصرون بضعفائكم ، فابتسم ابن الوراقة وسأله : وأين هذا المملوك يا أيدمر ؟ فقال : ملقى على فراش فى دهليز الحمام ، وإن أحببت أن تراه ذهبت معك إلى مكانه ، فقال : أحب أن أراه ، فهيا بنا إليه . ولما كانا عنده قال ابن الوراقة : السلام عليك يا غلام ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال : ما اسمك يا أخى ؟ فقال : محمود ، فقال : أتحفظ شيئاً من كتاب الله ؟ فقال : إنى أحفظ القرآن وأفهم معناه وأعرف كثيراً من العلوم ، فقال ابن الوراقة فى نفسه : هذه بعض صفات المملوك الذى طلبه مولاى الملك الصالح ، فإن وجدت فيه بقية الصفات فإنى آخذه إليه . ثم قال له : يا غلام : ألست ترى معى أن موتك أولى من حياتك ، ما دامت علتك قد ثقلت وطأتها وطال أمدها ؟ فغضب محمود وقال : يا هذا ، لا تيأس من رحمة الله ، فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، كيف تشمت بأخيك ولا ترجو له السلامة والعافية ممن سلمك وعافاك ؟ اللهم إنى رضيت بقضائك . فارحم ضعفى واشفنى مما أنا فيه يا كريم . ونظر ابن الوراقة فى وجهه وهو غاضب فوجده مربداً مقطب الجبين . فقال فى نفسه : وتلك علامة أخرى من علامات المملوك الذى طلبه مولاى الملك الصالح . وتقدم إليه وصافحه ، واعتذر له ، وتمنى له السلامة والعافية ، ثم قال :

ومن سيدك يا محمود ؟ فقال : سيدى محمود المصارع ، فانقلب ابن الوراقة إلى صاحب الحمام وأمره أن يأتيه بمحمود المصارع ، فأحضره إليه فى الحال ، وكان رجلا بشع المنظر كريه الرائحة غليظ الشفتين ، فسأله ابن الوراقة : أهذا غلامك ؟ فقال : نعم ، فقال : أتبيعنى إياه ؟ فقال : أبيعه لك واو بصرة من تراب ، فقال : معى صرة لا أعرف ما فيها ، فهل تبيعه بها ؟ فقال : بعتكه يا سيدى بالصرة المجهولة التى معك ، ثم أبرم عقد البيع وأخذ الصرة وانصرف إلى سبيله .

أما ابن الوراقة فإنه أمر أيدمر أن يأخذ محموداً المملوك إلى الحمام ، ويلبسه البذلة الزائدة وهى السادسة والسبعون . فصحبه إلى حيث يستحم الوافدون ، وجلسا فى جو الحمام الحار ، فأخذتهما سنة من النوم ، ورأى كل منهما فى منامه الملك الصالح يقول : أوثق عهد الله بينك وبين أخيك وكونا أخوين ، وأنا وربى شاهدان عليكما ، ولما استيقظا قص كل منهما رؤياه على أخيه ، ثم ارتبطا بعهد الله : الطاعة تجمعهما ، والمعصية تفرق بينهما ، والخائن يقتله الله . ثم أزال أيدمر عنه أوساخه وألبسه بذلته ، وأصبح محمود هذا أخاه وصديقه .

سار على بن الوراقة ومعه المماليك الستة والسبعون تحملهم الجمال حتى وصل بهم إلى مدينة حلب فنزل بالركب ليستريحوا ، وبلغ نائب المدينة أن علياً قد رجع ومعه المماليك ، فقابله وسأله : هل أحضرت معك ما طلبته منك ؟ .

فقال : إن معى مملوكـًا ضعيفـًا ، ولكنه ذكى فطن ، فقال : أرنيه يا على ، فلما رآه قال : إن سلم هذا الغلام وزال ضعفه وعلته ليكونن أحسن من هؤلاء المماليك ، فهل لك أن تعطينى إياه ؟ فقال : إنه مملوك الملك الصالح ، ولا أعرف مقدار ثمنه ، وحكى له مسألة الصرة التى دفعها ثمنـًا له ، فعجب نائب حلب والتفت إلى المملوك سائلا : ما اسمك ؟ فقال : محمود ، فقال نائب حلب : أنت سعيد ، ومن عاداك مكمود ، أترضى أن أتخذك لى ابنـًا ، وأكون لك والداً ؟ فقال : رضيت ، فافعل ما تراه ، فتعاهدا على ذلك ، ثم أعطى عليـًّا مائة دينار وقال له : أنفق على محمود من هذه المائة واقض له ما يحتاج إليه ، وإذا نفدت فأنفق من عندك مائة أخرى أو أكثر على أن أعطيك ما أنفقته ، وإذا مات فأكرمه وأحسن جنازته ، وعليك أن تخبرنى بخبره على أية حال . فقال له : سمعـًا وطاعة .

أعطى علىّ أيدمر المائة دينار ووصاه أن ينفق منها على محمود ويطعمه ويكرمه ، ويحضر إليه كل شىء يشتهيه .

وبعد أن غادر حلب بمراحل بان لهم فرسان مقبلون عليهم من ناحية الجبل ، فلما التقوا بهم قالوا : أين أجرة الخفر والحراسة يا علىّ ، وكان هؤلاء من « الفداوية » ، فقال لهم : إن هؤلاء المماليك للملك الصالح أيوب ، وفى المرة المقبلة أعطيكم ما يرضيكم ، فقالوا : نحن قوم نسكن فى الجبال ، لحراسة القوافل والتجار ، ولا نعرف أميراً ولا وزيراً ، وقد خيّرناك



قالوا : أرنا المملوك الضعيف الذى معك

فى أمرين لا ثالث لهما : إما أعطيتنا أجرة الخفر وقيمتها عشرة آلاف دينار ، وإما تركت لنا ما معك من الأموال والمماليك ، ومضيت وحدك إلى حيث تريد ، فقال : أرى أن تتركونى هذه المرة ، لأن ما ترونه معى للسلطان ، فقالوا : لا بد لك من اختيار أحد الأمرين ، ثم أمروا رجالهم أن يغلقوا الدروب والطرق من كل ناحية ، ووجد على أنه قد حصر فأمر بالنزول فى هذا المكان ، وعول على المبيت فيه ، متوقعاً أن يهجم عليه هؤلاء الرجال ، فينهبوا ما معه من جليبة ، وقضى ليلته ساهراً لا تطرف له عين .

ولما طلع النهار أقبل عليه الرجال من كل جهة ، فظن أنهم قادمون لنهبه ، وسلبه جليبته ، وما كان أشد عجبه إذ سمعهم ينادون : الأمان الأمان ، لا تخف يا علىّ ولا تحزن . ولما التقوا به قالوا له : لنا عندك حاجة نريد قضاءها ، ولا نبغى منك شيئاً ، فقال : وما حاجتكم ؟ فقالوا : أرنا المملوك الضعيف الذى معك ، فقال : إنى اشتريته باسم الملك الصالح أيوب ، فقالوا : ولكنا نود أن نراه ، فقال : ولن أريكموه حتى تكشفوا لى عن أمركم ، فقالوا :

رأى كل منا فى منامه الليلة الماضية الملك الصالح وهو يقول : يا أولاد إسماعيل ، أكرموا علياً من أجلى ومن أجل المملوك الضعيف الذى معه ، واعلموا أن هذا المملوك سيكون ملكاً ، وستكونون أهل دولته وأعز رفقته ، فاطلبوا هذا المملوك وانظروه ولتعرفوه ، ثم عاهدوه على أن يكون لكم أخاً ورفيقاً .

ولما سمع منهم ذلك أخذهم إلى المملوك محمود ، فلما رأوه أحبوه وقالو : أهلا بأخينا وأعز أحبابنا . فقال : أهلا بالأحباب الأعزاء ، فقالوا :

إن لك فى نفوسنا منزلة رفيعة . ونحب أن تعاهدنا على أن يكون لك ما لنا ، وعليك ما علينا ، فقال : وما سبب ذلك؟ فقالوا : قرأنا فيك الدلائل والعلامات ، التى حدثتنا بها كتب السابقين ، وهى تشير إلى أنك الملك الذى سيفتح البلاد ، ويقضى على الفساد ، ويهدى إلى سبل الرشاد . فقال : دونكم وما تفعلون . فنهضوا وأبرموا بينهم وبينه العهد الذى أرادوه ، ثم قالوا : دعه عندنا حتى يبرأ من مرضه ، فقال : لن أستطيع تركه عند أحد ، فقالوا : خذ هذه الخمسمائة دينار ، وأنفق منها على محمود ، ولا تقصر فى خدمته وإكرامه ، وبعد سبعة أيام أقاموها فى ضيافة هؤلاء الرجال ، ارتحلوا ومعهم محمود ، واستمروا فى سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة دمشق ، فلقى عليًّا فيها واليها عيسى الناصر ، وسأله عن المملوك الذى طلبه ، فقال على : ما وجدت شيئًا تطمئن إليه ، وما أحضرت معى إلا جليبة السلطان ، فقال : أرنيها ، فقال : ها هى ذى أمامك ، فجعل عيسى ينظر إلى المماليك ، فيمدح هذا ويذم ذاك ، حتى وقع على محمود الضعيف ، فاشمأز ، وقال : أفسدت الجليبة يا على بهذا المملوك المريض ، الذى يؤذى بشكله كل من رآه . وليتك تركته فى الجبال ، حتى يأتيه الموت ويستريح منه الخلق ، فقال على : نحن نقوم بالواجب علينا له ، وقد يشفيه الله من مرضه ، ويكون ذا أثر مجيد فى الإسلام وأهله .

صعب على محمود ما سمعه من والى دمشق ، فركبه غم ثقيل ضاعف من علته وزاد فى مرضه وضعفه ، حتى اضطر على إلى أن يدخله « المارستان » بدمشق حتى يعود إليه ويأخذه بعد شفائه .

٤

ترك على محموداً فى « المارستان » ورحل هو وغلمانه ومماليكه طالباً أرض مصر ، وأعطى دحروجاً القائم على « المارستان » مائة دينار ، وقال له : أنفقها على محمود ، وأحضر له جميع ما يشتهيه ، وإن أنفقت عليه شيئاً من عندك فإنى راده إليك ، فأخذها منه ووعده أن يقوم على راحة محمود مدة غيبته ، وأعد له سريراً كامل الفراش وأضجعه عليه ومحمود لا يدرى من أمره شيئاً .

كان دحروج هذا فى صباه فاسقاً مطيعاً لهواه كثير الإيذاء لخلق الله ، وكان متزوجاً بامرأة من الأشراف حسيبة نسيبة ، تدعى السيدة حسنة الدمشقية ، ومسكنها فوق « المارستان » وكان لزوجها هذا طائفة من قرناء السوء ، فهو يلازمهم فى الليل ، ويبيت معهم فى القهوات ولا يبيت فى المارستان إلا قليلا .

أما زوجته السيدة حسنة فكانت متدينة صالحة كثيرة العطف على المرضى والضعفاء ، ولهذا كانت تتفقدهم بالليل فى « المارستان » وتسهر على راحتهم ، وتقوم بشئونهم ، وزوجها يلهو مع إخوان السوء وقرنائه .

وفى ليلة من الليالى التى تمر فيها على المرضى وجدت محموداً على سريره ، وهو يئن أنيناً حزيناً يفرى الكبد ويذيب الفؤاد ، فحزنت

لأنينه وحنت إليه ، وقالت فى نفسها : لا تحدثيه ولا تسأليه عن شىء فعسى أن يأخذه النعاس فيريحه من الألم الذى يقاسيه . ثم جلست السيدة فى مكان بعيد وهى ترقبه وتلحظه .

وكان بجوار محمود رجل رافضى يعبد النار من دون الله ، ولا يسكت عن الصياح جميع الليل ، من شدة ما يعانى من الأوجاع والآلام ، ويستغيث قائلا : يا للنار ! يا للنار ! نضاعف هذا من آلام محمود ، وسبب له القلق والهم آناء الليل. فقال له : تجلد أيها الرجل واصبر، واطلب النجاة والعافية من الله الرحيم المقتدر ، فقد أقلقتنى ، وحرمتنى النوم والراحة . فقال : اسكت يا كلب أتبغضنى فى عبادة النار ، وهى ذات أضواء وأنوار . وتناول عصاه وهمّ بمحمود ، فنهض محمود إليه ، وخطف عصاه ، وشج بها رأسه فمات لساعته ، ثم رجع إلى سريره واضطجع ، فأخذه النوم وهجع .

كل أولئك كان على مرأى من السيدة حسنة ، فسرها فعله ، وحمدت له جرأته وثبات قلبه ، ولما قام واطمأنت عليه تركته وانصرفت وقد ملأ حبه فؤادها ، وقوى الإعجاب به فى نفسها .

ودخل دحروج « المارستان » فى الصباح ، وجعل يطوف بالمرضى والضعفاء ، فوجد الرافضى قد مات ، ووجد العصا ملوثة بالدم بجانبه ، فعرف أن محموداً قتله . فنظر إليه نظرة الغاضب المحنق وقال : لولا أنك

مملوك السلطان لأذقتك الموت والهوان . ومحمود لا يلتفت إليه ، ولا يرد عليه ، ثم أحضر دحروج حمالين وأمرهم أن يأخذوا الرافضى ويدفنوه فى الجبل بعيداً عن مقابر المسلمين . ففعلوا ما أمرهم به . ثم خرج دحروج من المارستان إلى شأنه .

انتبه محمود من نومه ، فلم يجد الرافضى فى مكانه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . اللهم كما أرحتنى من عدوك وعدوى ، اشفنى من علتى ، وخذ بيدى .

وأحس من نفسه شهوة إلى طعام الكشك بالدجاج ، فجعل يدعو الله ، ويقول : اللهم أطعمنى كشكاً بالدجاج ، وسمعه دحروج فى أثناء طوافه بالمرضى ، فقال له : إن الطعام الذى تطلبه يمرض السليم ، ويقتل المريض ، فلا تحرك به لسانك ، ولا تجعله ببالك . ثم غادر « المارستان » إلى حيث يذهب ويلهو كل ليلة . وسمعته السيدة حسنة الدمشقية وهو يقول : اللهم أطعمنى كشكاً بالدجاج ، فرق قلبها ، وقالت : والله لأطبخن له هذا الطعام ، فقد يكون له فيه الشفاء ، وإذا لم يكن فى أجله بقية فلا ينبغى أن يموت قبل أن يأكله وله رغبة فيه ، ثم أسرعت فطبخت الطعام ، وأحسنت طبخه ، وملأت وعاء من الكشك ووضعت فوقه ديكاً ناضجاً ، وجاءت به إلى محمود من باب السر ليلا ، وحطته بجانب رأسه ، وجلست فى مكان بعيد ترقبه .

استيقظ محمود بعد ذلك فوجد وعاء الكشك بجانب رأسه ، فأكل

منه حتى شبع ، ثم وضعه فى مكانه وغسل يده ، واضطجع على فراشه ، واستغرق فى نومه .

ثم ذهبت السيدة إلى مكانها الذى تعيش فيه وفرشته ، ونزلت إلى محمود فأخذته إلى مسكنها ، وأجلسته على فراشها وقالت : اجلس على الفراش ، فأنت أعز عندى من جميع الناس ، ثم تعاهدا على أن تكون هى أمه ، وأن يكون هو ابنها ، وأشهدا الله على هذا العهد الكريم .

عاش محمود معها فى مسكنها ، ودأبت هى على إكرامه وإطعامه ، وكان قد نفض عنه غبار ضعفه وعلته ، واستكمل صحته وقوته .

ودخل زوجها دحروج « المارستان » وبحث عن محمود فلم يجده ، فصعد إلى مسكنه ، فوجده جالساً مع زوجته ، فغضب وقال : عشقت يا فاجرة ، أنت الآن خارجة من ذمتى ، ففرحت بما سمعت وقالت : اخرج الآن إلى حالك ، واذهب إلى أصحابك وقرنائك ، فما أنت الآن بزوجى ولا أنا زوجتك . فأقسم لها أنه لن يعود إليها أبداً ، وخرج من البيت شريداً طريداً .

عاش محمود مع أمه فى الله السيدة حسنة الدمشقية ، يتعبدان ويتبتلان ، وكان يختلف إلى المسجد الأموى . يقيم فيه الصلاة ، ويقرأ القرآن قراءة تخشع لها القلوب ، فأقبل عليه الناس وأحبوه ، وقدموا له العطايا التى كان يوزعها على الفقراء قبل أن يغادر المسجد .

وبينما هو راجع من المسجد إلى بيت أمه وجد خياطاً فى دكانه ، وبين يديه غلام يتلو القرآن ولكنه يخطئ فى تلاوته ، فجاءه وقال : يا أخى ، أحسن تلاوة كتاب الله ، وانظر فى المصحف بعينيك وقلبك ، ولا تنطق بالخطأ كلمات الله ، فنهض إليه الخياط وأجلسه وأكرمه وقال : عهد الله بينى وبينك أن أكون والدك فى الله وأنت ابنى وهذا الغلام أخوك ، تعلمه القرآن وتأخذه بشريعة الله ، فماذا تقول ؟ فقال : رضيت بذلك ، وتعاهدا عليه ، وصار يختلف إليه فى دكانه ، ويحفظ الغلام القرآن الكريم .

وجلس ذات يوم فى دكان السيد حسن الخياط والده فى الله ، والغلام أخوه بين يديه ، فرأى رجالا يجرون ، وأولاداً يفرون ، ونساء يهربن مسرعات ، وكلهم يصيحون خوفًا ورعبًا ، فسأل محمود عن ذلك فقيل له : إن هؤلاء يفرون من وجه ظالم فاسق جبار ، يسمى سعيد الركبدار ، فقم أنت وأخوك الغلام واهربا من طريقه ، لئلا يراكما ويأخذكما إلى بيته وهناك يجرى عليكما ظلمه ، فقال محمود : لن أقوم من مكانى ، وقد استعنت عليه بالله العزيز القادر .

وجاء الركبدار ، ولما رأى أن محموداً لم يعبأ به ، أخذته العزة بالإثم ، وهجم عليه ، وأخذ بتلابيبه ، محاولا أن يبطش به ، فدفعه محمود دفعة قوية ألقته على ظهره ، فاصطدم رأسه بحجر صلد فتهشم .

وهجم أتباع الركبدار على محمود ، وقبضوا عليه ، وساروا به مغلول

اليدين ، حتى أوقفوه أمام عيسى ، وقالوا له :

لقد قتل هذا الشقى سعيد الركبدار .

فسأله عيسى : أحقا ما يقولون ؟

فقال محمود : لم يقولوا إلا الحق !

فقال له : ولماذا قتلته ؟

فقال : لقد هجم على وأراد قتلى فقتلته دفاعاً عن النفس !

فقال عيسى : لقد شهدت على نفسك ، ولا بد من قتلك أمامى . وصاح بالسياف أن اضرب رأسه ، ولما أوثقوه وقيدوه ليضرب السياف رأسه ، دخل علىّ بن الوراقة على عيسى فى مجلسه ، وكان دخوله سبباً فى تأجيل قتله ، حتى يتبين عيسى من على سبب مجيئه .

كان على بن الوراقة قد ترك محموداً فى « المارستان » ومضى بالمماليك إلى أرض مصر ، فرأى الملك الصالح فى منامه يقول : إن لم ترجع إلى دمشق وتأتنى بمحمود المملوك فلن تدخل ديارى ، فانتبه على من نومه فزعاً ، وترك المماليك مع أتباعه وعاد إلى المارستان ، فلم يعثر فيه على محمود ، فسأل عنه : فأخبره الناس ما كان منه ، وأن رقبته الآن تحت السيف أمام عيسى شرف الدين .

ولما دخل علىّ على عيسى قال له : إن هذا الغلام مملوك لابن عمك الملك الصالح نجم الدين أيوب ولىّ الله المجذوب ، فلا تقتله أنت ، ولكن أرسله إلى الملك واشرح له قضيته ، وابن عمك لا يرضيه إلا الحق ،

وسينزل به الجزاء الذى يستحقه . فقال عيسى : إذا كان ابن عمى لا يرضيه إلا الحق ، فإنى سأقتله ، لأنه قتل الركبدار ، فقال على : إن هذا المملوك فى حوزتى وعهدتى ، ولن أمنعك عن قتله ، ولكن أعطنى إقراراً منك أننى أدركته فى ديوانك قبل أن تقتله ، وسآخذ هذا الإقرار وأعود به إلى الملك الصالح ، فقال عيسى ، لن أعطيك إقراراً ، ولا بد من قتله ، فقال على: ذلك ما لا يكون ، وبينما هما يتجادلان إذ أقبل عليهم نقيب الأشراف فى صحبته من أهل الفضل والإحسان ، وفيهم حسن الخياط وابنه الغلام . ودخلوا على عيسى فقالوا : كيف تحل ما حرم الله ، وتترك سعيداً الفاجر يعيث فى المدينة بالفساد ، ويسوق أولاد الأشراف إلى الخطايا والآثام ، إن هذا الغلام أكرم منك عملا ، وأشرف منزلة وقدراً ، واولاه لظلم الركبدار العباد ، وملأ الأرض بالفساد . وهو الذى حمى أعراضنا وقتل خصمنا ، فقال عيسى : لقد قتل، ومن قتل يقتل ، فقالوا : ولأى شىء تظلمه وهو لم يفعل إلا الخير ، وعزة الله إن لم ترجع عن ظلمه، لنطردنك من المدينة ، ولنولين غيرك من الحكام ، ثم نهض نقيب الأشراف ففك عن محمود قيوده ، ونزلوا بمحمود من ديوان عيسى ، ومضوا به إلى منزل أمه السيدة حسنة الدمشقية . ففرحت بنجاة ابنها ، وشكرت لهم جميل معروفهم وانصرفوا .

أما عيسى شرف الدين فإنه أمر بدفن سعيد الركبدار ، وكظم غيظه فى صدره ، ولم يقدر أن ينطق كلمة ، ورجع حسن الخياط إلى دكانه حامداً شاكراً .

٥

ودع محمود رفقاءه وأصحابه وأمه ووالده ورحل هو وعلى بن الوراقة إلى مصر ، وما كادا يمشيان غير طويل حتى لقيهما على بن القوسى ، وكان له عند ابن الوراقة مائة دينار ، ولم يكن مع ابن الوراقة وقتئذ شىء من المال قليله أوكثيره ، فقال : لا أملك شيئاً مغى ، فأمهمانى حتى ألقاك فى السفرة القادمة ، وأعطيك الدين جميعه ، ولك علىّ فضل الإمهال ، فقال : لن تبرح مكانك هذا حتى آخذ منك دينى ، فقال ابن الوراقة : وكيف يستطيع الإعطاء من لا يملك شيئاً ؟ ! هذا الغلام مملوك للسلطان ، ولا أملك التصرف فيه ، فقال : اتركه رهينة عندى ، حتى تأتينى بدينى ، فقال فى نفسه : أرجع إلى المدينة ، وأقترض مائة دينار ، أقضى بها دينى ثم أمشى إلى سبيلى .

وبينما هو مطرق يتحدث إلى نفسه ، أخذته إغفاءة خفيفة ، رأى فيها الملك الصالح يأمره أن يترك محموداً رهينة عند على القوسى ، ثم انتبه من إغفاءته ، وترك المملوك امتثالا لأمر مليكه ، وعاد إلى مصر وحده .

أخذ على القوسى محموداً وعاد به إلى منزله ، وكانت زوجته عائشة قاسية شريرة ، وطرق الباب برجله فقالت : من بالباب ؟ فقال : افتحى يا خاطئة . ولما فتحت دخل هو ومحمود وقال لها : جئتك بهذا المملوك

ليحمل ابنك ويخدمه ، وكان ابنها هذا بشع الخلقة قبيح المنظر ويسمى حبظلم بظاظه ، فقالت : جزاك الله خيراً ، ولبث محمود معها يخدم ابنها .

وذات يوم نادى مناد فى المدينة : يا أهل الشام ، ظهر فى أرضنا مصارع جديد ، لا يستطيع أن يلقاه قريب أو بعيد ، لقوته وجرأته ، ومهارته فى فنونه ، وهو الآن يريد أن يلبس القفطان ليكون كبير أهل الفنون ، فقالوا ، ونحن أتباع له ، مطيعون لأمره ونهيه .

عرف محمود مملوك الملك الصالح أن المصارع الجديد محمود العجمى ، فتصدى له وأعلن رغبته فى مبارزته ، فاجتمع الناس ليروا من الغالب منهما ، والتقى البطلان ، وقامت المبارزة بينهما ساعتين ، عرف بعدهما محمود العجمى أنه عاجز ، وأسر فى أذن المملوك محمود أن يرجئه إلى الغد ، على أن يفر من المدينة ، ولا يبيت فيها الليلة ، وإن رآه فيها بعد هذه الليلة فهو فى حل من أن يقتله ، وانتهت المبارزة على الإرجاء .

وخرج محمود العجمى من المدينة إلى غير لقاء ، أما المملوك محمود فإنه رجع إلى سيده حبظلم بظاظه ، فوجده قد وقع على الأرض وهو يلعب فشج رأسه ، فأخذ يبكى وينتحب ، فخاف محمود على نفسه من أمه ، وأسكته ولاطفه ورجاه ألا يخبرها بما جرى له . فلما كان حبظلم بظاظه فى الدار عند أمه صاح وقال : إن محموداً أهانني وشج رأسى وتركنى وجعل يلعب ويلهو مع الغلمان ، فغضبت أمه ، وأقبلت إلى محمود بعصا لتضربه بها ، ولكنه أسرع ورمى بابنها وخرج من الدار هارباً ،

وألقى بنفسه فى الخلاء سائراً ، فحملت عائشة ابنها وربتت على صدره وظهره ، وعزمت على أن تنتقم من محمود بعد عودته .

استمر محمود مملوك الملك الصالح ماشياً فى الخلاء حتى كان فى مقبرة المسلمين ، وكان قد جن عليه الليل ، ورأى فيها قبراً مفتوحاً ، فقال نفسه : أبيت فى هذا القبر حتى الصباح ويفعل الله بى ما يشاء .

ولما مضى من الليل ثلثاه وكان جالساً على باب القبر ، رأى كأن باباً فى السماء قد فتح ، ويتلألأ فيه نور وضاء ، تحيط به هالة خضراء ، وأحس سكوناً فى الكون شاملا . فقال فى نفسه : هذه أمارات ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر ، فرفع يديه إلى السماء ، ودعا ربه وقال : اللهم اجعلنى ملكاً على مصر والشام ، وسائر بلاد الإسلام ، وارزقنى نصراً مبيناً على الأعداء ، واجعل لى كلمة مسموعة ، وحرمة مرفوعة ، واجعل لى من أمرى فرجاً ، ومن الشدائد مخرجاً ، وهب لى عزم أربعين ولياً من أوليائك الصالحين ، إنك أرحم الراحمين .

وفى الصباح طلب محمود العودة إلى بيت على القوصى ، وسار حتى نزل على جار من جيرانه ، ورجاه أن يصلحه على سيده على القوصى ، ويشفع له عنده ، فأحضر هذا الجار علياً القوصى فى بيته وأكرمه ، ثم قال له : إن المملوك الذى هرب منك قد عاد إليك ، وقد استشفع بى إليك ، فأكرمنى بالصفح عنه هذه المرة ، فقال على : وأين المملوك ؟ فقال : ها هو ذا ، وناداه وأحضره بين يديه ، فقال على القوصى :

قد قبلت شفاعتك وصفحت عنه ، ثم آخذه على إلى بيته ، وقال لزوجته : خذى هذا المملوك وعذبيه أشد العذاب ، فنهضت زوجته إليه وكتفته ، ثم صلبته فى عمود بيتها ، ثم أحمت فى النار قضيباً من الحديد ، وهمت أن تعذبه به ، ومحمود متجه إلى ربه يستجير ويستغيث ، ويطلب منه المخرج من هذه الشدة ، وطرق باب عائشة زوجة على إذ ذاك ، فقامت إليه وفتحته ، وإذ بالسيدة فاطمة أخت على القوسى ، ومعها غلمانها يحملون المال الذى تأتى به لأخيها كل عام من عندها ، ولما دخلت البيت وجدت محموداً مصلوباً ، فقال لها : أجيرينى مما أنا فيه يا سيدتى ، فتأثرت وقالت : لا تخف يا ولدى ، فلن يصيبك ضر أو أذى ، ثم قالت فاطمة : أكرميه يا عائشة من أجلى ، فقالت عائشة : لو اجتمع أهل الأرض على أن يخلصوه من يدى فلن يكون ذلك أبداً . فأريحى نفسك ، ولا تتعرضى لما ليس من شأنك .

فغضبت فاطمة وقالت : إنك لخاطئة لئيمة ، كيف لا تقبلين شفاعتى فى غلام ترتكبين بتعذيبه أكبر خطيئة ؟! ! لقد حسبتك امرأة ذات عقل وكرامة ، ولكنى سأريك أنك حقيرة جاهلة ، ثم هجمت عليها وضربتها ، وصاحت بغلمانها أن يخرجوا المال الذى أحضروه ، ويوزعوه على الفقراء والأيتام ، وقامت إلى محمود فخلصته ، وأخذته فى يدها ، وانصرفت إلى بيتها . وهناك أحضرت القضاة والعلماء والأشراف . وأسبغت عليهم كثيراً من حفاوتها وكرمها ، ثم أحضرت أخاها علياً القوسى

وسألته على مشهد من هذا المجلس الحافل : أأنت اشتريت هذا الغلام ؟ فقال : لا ، ولكنه مرتهن عندى فى مائة دينار لى عند علىّ بن الوراقة ، فقالت : اعلم أنى أخذته وان أسلمه إلا لعلى صاحبه ، وخذ دنانيرك المائة ، وليس لك عليه بعدئذ سبيل ، فأخذ أخوها دنانيره منها ، ثم قالت للقضاة والعلماء والأشراف : اسألوه : هل له عندى شيء من متاع أمه وأبيه ؟ ولما سألوه قال : ليس لى عندها شيء . فقالت : اكتبوا بينى وبينه حجة بذلك، فكتبوا الحجة وختمها علىّ بخاتمه ، وشهد عليها القضاة والعلماء ، ثم أخذتها فاطمة ، وقالت : اكتبوا حجة أخرى بأن ما أملكه من مال وعقار ملك لهذا الغلام يفعل به ما يشاء . وإذا توفانى ربى ومنّ هذا الغلام علىّ بالكفن ، كان ذلك تفضلا منه وبرًّا ، فقد اتخذته ولدى ، وجعلته قطعة من كبدى ، وأنتم شهود على ما قلته وأبرمته .

وكان للسيدة فاطمة ولد يقال له بيبرس ، وكانت تحبه حبًّا جمًّا ، ولكن الله استأثر به وتوفاه . فحزنت عليه وصبرت ، ولكنها ما سلته وما نسيته ، وكان هذا الغلام أشبه الخلق بولدها ، ولهذا أحبته وأطلقت عليه اسم ابنها ، ومن ذلك الحين أصبح محمود هذا يدعى بيبرس .

أقام بيبرس عند أمه السيدة فاطمة القوسية ، وكان أمير بيتها ، والقائم بتدبير الأمور فيه . أما على القوسى أخوها فإنه رجع إلى بيته، وسأل زوجته عما حصل منها ، فقصت عليه ما كان منها ومن أخته فاطمة ،

فاغتم غماً شديداً . وحكى لها ما كان من أخته ، وأصبح كل منهما يقلب كفيه ندماً وحسرة .

وذات يوم جلس بيبرس أمام بيت أمه ، فجاءه رجل فداثى ودلال بيده قوس يعلن عن بيعها ، فسأله عن ثمنها ، فقال : خمسمائة دينار فلما أعجبته أجلس الرجلين ودخل بالقوس إلى أمه ، وأبدى لها رغبته فى شرائها ، فقالت : لمن هذه القوس ؟ وكم ثمنها ؟ فقال : إنها لرجل فداثى ومعه دلال ، وثمنها خمسمائة دينار . فقالت هذه قيمتها ألف دينار ، وهم يبيعونها بثمن بخس ، لأن جماعة الفداثية قد اعتادوا أن يبيعوا أشياءهم بأقل من قيمتها ، ثم يتسللوا بالليل إلى الدار التى فيها ما باعوه بالنهار فيسرقوا أشياءهم ، وأرى أن تعطيهم القوس ومعها مائة دينار . لتكون لك وقاية من شرهم ، وتأمن على أموالنا منهم ، وتعال معى الآن لأريك ما يسرك ، ثم ذهبت به إلى قاعة وفتحت بابها ، فوجدها ملأى بالقسى الجيدة التى تفوق فى صنعها وقوتها القوس التى فى يده ، فعجب وقال : ومن أين لك يا أمى هذه القسى ؟ فقالت : اعلم يا ولدى أنى فاطمة القوسية ، وما سميت بذلك إلا لأن أبى كان يصنعها ، واشتهر بيتنا بهذا الاسم ، وهذه القاعة وما فيها ملكك وبين يديك ، فخذ منها ما تشاء . فسره ما رأى ، وعاد بالقوس إلى صاحبها ، فسأله : هل أعجبتك القوس ؟ فقال بيبرس : نعم ، أعجبتنى ولكنى أريد أن أعرف اسمك ، فقال : اسمى عاصف بن بحر من قلعة المرقب ، فقال : وأنعم

بك وأكرم . خذ ثمن القوس ، خمسمائة دينار ، وهذه عشرة دنانير للدلال ، وتقبل القوس هدية كريم لا يرد عطاؤه . فقال عاصف : لقد غمرتنى بمعروفك ، ولا بد أن أقابله بمعروف مثله ، وقد ربطتنى بك الآن المحبة والمعروف ، ثم تصافحا ، وانصرف الرجلان .

ورأى بيبرس رجلا يدلى حبلا من سطح بيت بجوار بيت أمه ، فسأله عن ذلك فقال : فى هذا المكان جواد من أحسن الجياد وأقواها ، وهو لوالد السيدة فاطمة القوسية ، ولا يقدر أحد أن يركبه منذ توفى صاحبه ، كما لا يقدر سائس أن يقدم له طعامه ، وقتل خمسة وهم يقدمون له زاده ؛ فتركناه فى مكانه وننزل له طعامه وشرابه بهذه الطريقة ، فقال : وأين مفتاح الباب لهذا المكان ؟ فقال : هذا هو المفتاح وناوله إياه .

فتح بيبرس الباب ودخل على الجواد ، فوجده زينة الأبصار وبهجة البصائر ، وضاء الغرة ، قوى النظرة ، عظيم الجرأة ، مرهف الأذنين ، ولما رآه همهم وزمجر ، وهمّ أن يقطع القيود والسلاسل ، فضربه بيبرس بعصاه بين عينيه . وجهزه بالسرج واللجام ، ثم فك عنه قيوده ، وامتطى ظهره ، وخرج به إلى الخلاء ، وقال للسائس : لا يتبعنى أحد حتى أعود إليكم .

أخبر السائس السيدة فاطمة ما كان من بيبرس ابنها ، فقلقت نفسها ، واضطرب فؤادها ، خوفًا عليه .

وانفلت الجواد ببيبرس انفلات السهم ، حتى كان به فى جوف

البيداء ، ثم وقف أمام مغارة ، فغمزه برجليه فلم يتحرك ، فنزل من فوقه وقيده فى صدر المغارة ، ودخلها فوجد فيها سراجًا يسطع ضوؤه فيها ، ووجد بابًا من حجر ، فى وسطه حلقة صخرية ، فأمسكها ورفعها ليتأمل فيها ، فسقطت من يده على الباب الحجرى ، وأحدثت دويًّا كأنه دوىّ الرعد ، فسمع قائلا من وراء الباب يقول : من الضارب بابنا ، من غير إذن منا ؟ ارجع من حيث جئت ، وإلا خسئت وهلكت . فهذه كنوز الكهنة ، وليس لأحد عليها سبيل ، ما عدا محموداً الدمشقى ، فهو الموعود فيها بالدخول ، وبلوغه غاية المأمول ، فأجابه بيبرس ، أنا صاحب هذا الاسم الذى ذكرتموه ، إن كنتم صادقين فيما قلتموه ، فقالوا : ادخل ولا بأس عليك ، وفتحوا له الباب ودخل ، فوجد شخصًا راقداً على سرير من ذهب أصفر ، ومن حوله خدم أربعة كأنهم أسود غاب ، وبهداية من الله بسط بيبرس يديه ، وقرأ الفاتحة ، وصلى على الهادى المصطفى النبى الكريم، فنهض الراقد واقفًا وقال : أأنت بيبرس ابن السيدة الدمشقية ؟! قال : نعم : فقال : إذن فأنت صاحب الإمارة ، ولك عندنا حاجة ؟ ولنا عندك صناعة ، وما تلك بيمنك يا بيبرس ؟ فقال : عصا قتلت بها رافضيًّا ، وقص عليه قصته . فقال : ضع تلك العصا عند رأسى لتكون تذكرة بينك وبينى ما دمت حيًّا ، فوضعها ممتثلا أمره ، منتظراً ما يشير به ، ثم قال له : افتح يا بيبرس هذا « الدولاب» وخذ منه « لتًّا » دمشقيًّا زنته عشرة أرطال ، لن تجده

فى حوزة أحد من الأبطال ، فهو أنفع لك من العصا وأغنى ، ولا تطمع فى أخذ شىء غيره مما ترى ، فليس لك عندنا شىء سواه ، واحذر أن تخالف قولى ، فيحل بك الهوان من حيث لا تدرى .

فتح بيبرس « الدولاب » فوجد فيه ما يبهر الأبصار من الأموال والجواهر والنضار ، فأخذ « الالت » الدمشقى تاركاً كل شىء دونه ، ثم حياهم وخرج من المغارة ، فوجد الجواد مكانه لم يتحرك ، ففك قيده وامتطاه ، ولوى عنانه نحو أمه فاطمة فى دارها .

ولقيه فى طريقه فارس فاستوقفه وقال له : هات أجرة الخفر ، فقال بيبرس : على أى شىء معى ؟ فلست أحمل بضاعة ولا تجارة ، فقال معك رأسك ، وجوادك ، وبذلتك ، فقال بيبرس : وإذا امتنع شخص عن إعطائك ما تطلب فماذا يكون ؟ فقال الفارس : أحاربه وأقتله ، أو آخذه أسيراً عندى حتى يفتدى بما طلبته ، ولا ينجيه من يدى إلا شجاعته ودفاعه إن استطاع وغلبنى ، قال بيبرس : حينئذ فأنت خصيمى ، فخذ حذرك منى ، ثم تصاولا مدة ساعة ، دارت على الفارس فيها الدائرة ، ونزل إليه فكتفه ، وهم أن يسوقه أمامه ، فاستوقفه صوت فرسان ثلاثة مقبلين ، ليحاربوه ويقضوا عليه ، ويخلصوا رفيقهم من يديه ، فكان مصيرهم مصيره ، ثم ركب جواده ، وساقهم أجمعين أسرى أمامه .

ولما رأوا أنهم قد عجزوا وأسروا قالوا : أيها الفتى الكريم ، لو تفضلت علينا فأخليت سبيلنا كان ذلك فضلا لاننساه أبداً فقال :

إنى ذاهب بكم إلى المدينة ولأصلبنكم فيها على جذوع الشجر لأقضى بصلبكم وتعذيبكم على قطعكم طريق السابلة ، ونهبكم أموال الغادين والرائحين ، ولتكونوا عبرة لغيركم من المفسدين الذين يزعجون الآمنين من العباد . فقالوا : أيها البطل العظيم ، إن الكريم لا يعاق منح الذمام ، ونحن عرب نرعى الذمام ، فأحسن إلينا بصفحك ، فلن نكون بعد ذلك إلا من أعوانك وخدمك ، فقال : ومن تكونون من العرب ؟ فقالوا : نحن من قبيلة القبائية ، وعدة أكابرنا أربعة وستون ، وتحت كل منهم مائة أو مائتان ، قمنا على هذا الدرب نخفره ، وندفع عن السابلة كل ضر ومخافة ، لقاء أجر يؤديه لنا عيسى شرف الدين ، ومقداره عشرة آلاف دينار ، نأخذها منه كل عام ، ونوزعها على أنفسنا ، نقيم بها أودنا ، ونقضى حاجة معيشتنا ، وهى مورد رزقنا الذى ليس لنا سواها ، فلما ذهبنا إليه هذا العام لنأخذها منه كعادتنا ، أساء استقبالنا ، وأغلظ فى قوله ، وقال : ليس لكم عندى حاجة ، ولن أعطيكم شيئاً من المال قليله أوكثيره ، فقلنا له : إن كفاف عيشنا يجرى على هذا الأجر الذى نأخذه منك كل عام . وإن أنت حرمتنا منه فإنا مضطرون إلى قطع السبل ونهب الأموال والفتك بالأنفس ، فقال : افعلوا ما بدا لكم ، وانهبوا ما شئتم واقتلوا من أردتم ، فاضطرتنا الحاجة إلى أن نقف على الدرب مرغمين ، نعترض الغادى والرائح ، فننهب الأموال ونقتل الأنفس ، حتى التقيت بنا وفعلت ما فعلت ، وهذه قضيتنا فانظر ماذا ترى . فقال

بيبرس : هل ترغبون فى خدمتى على أن تأخذوا أموالكم من يدى ؟ فقالوا : رضينا . ولك الفضل علينا وعلى الناس . فنزل بيبرس وحل وثاقهم ، ورجع واحد منهم ، وسار هو بثلاثتهم حتى دخل على أمه السيدة فاطمة.

طرق بيبرس الباب فنهضت إليه أمه وفتحته ، ولما رأته استبشرت وألقته فى أحضانها ، وزال عنها كل هم وضير ، ثم جلست بجانبه وجعل يقص عليها قصته غير تارك منها شيئًا . فقالت : سفرة سعيدة وفاتحة خير ونعمة ، ثم صاحت بالسائس أن يأخذ الجواد إلى مربطه ، فخاف منه وأبى ، فقام بيبرس نفسه ، وربطه بيده ، وأعد مكانًا للقبائية أنزلهم فيه ، وهيأ لهم زادهم ومعاشهم ، وأقاموا عنده فى بسطة ورخاء عميم .

٦

مرت الأيام والليالى وبيبرس بجوار أمه فى أرغد عيش وأهنئه . وذات يوم جاء أربعة من الفلاحين وسلموه كتاباً ، فسألهم عن أنفسهم وما جاءوا فيه فقالوا: نحن من فلاحى سرجويل المهرى شريك السيدة فاطمة فى أرض تزرع ، فأرسلنا إليها فى أمر هذه الشركة ، وبعث معنا هذا الكتاب الذى أخذته ، وقال لنا : هاتوا معكم الإجابة عما فى هذا الكتاب .

ولما فض الكتاب وجد صورة للصليب فى صدر الكتاب وذيله ، وقرأه فوجد فيه :

من سرجويل المهرى ، إلى السيدة فاطمة القوسية ؛ وبعد فإنى سأقيم أفراح ابنتى هذا العام ، وسأحتاج إلى مال كثير ، وقد أردت أن آخذ حصتك فى القمح الذى أغلته الأرض هذا العام ، على أن أرسل إليك فى العام القادم القمح جميعه ، وهو نصيبى ونصيبك ، فما رأيك فى هذا ؟ والسلام .

ولما قرأه أجابه فى الحال بقوله فى كتابه :

لا تأخذ شيئاً من نصيبى مهما يكن من الأمر ، واعلم أن من أبغض الأشياء إلى نفسى الخداع والمخاتلة ، فكل منا لا بد أن ينال حقه ،

ولن يكون غير ذلك .

ثم أعطى الفلاحين الكتاب وقال لهم إنى لاحق بكم إلى صفد لقسمة القمح وأخذ نصيب أمى ، ثم دخل على أمه وأخبرها ما كان بينه وبين الفلاحين ، وأفهمها كتاب سرجويل المزرى وإجابته ، ففرحت بما أجاب وفعل ، ودعت له بالهداية والتوفيق ، وقالت له : إذا جاء الغد فاركب إلى صفد ، وأحضر نصيبنا من القمح بإذن الله تعالى ، فقال لها : إن شاء الله لايكون إلا هذا .

فلما قرأ سرجويل الجواب غضب وثار ، فقال له وزيره الأمين : لا تغضب فالأمر علينا يسير ، وإذا جاء وكيل السيدة فاطمة فاجعلنى وكيلا ، وأنا أغلبه بمكرى وحيلتى ، وكان هذا الوزير ابن أخت سرجويل وهو معروف بالدهاء وقوة الاحتيال ، واسمه ظنيط ، فقال له سرجويل وقد سكن غضبه : وماذا تصنع يا ظنيط ؟ فقال : سترى ما يسرك . ويكشف عنك حزنك وهمك ، ثم نادى الحمالين والعمال وقال لهم أحضروا عدداً من الحقائب السود ، وعدداً من الحقائب البيض ، أما البيض فلوكيل السيدة فاطمة ، وأما السود فلنا ، وسأضع فى الحقائب السود عشر ما أضعه فى الحقائب البيض ، وبذلك ينتهى الأمر . فسر سرجويل من هذا التدبير . وجعلوا ينتظرون بيبرس .

أخذ بيبرس جماعة القبائية معه بأسلحتهم وعددهم إلى صفد لإحضار القمح الذى لأمه من أرضها ، ولما وصلوا إلى العرمة فى الحقل بعث إلى

سرجويل لقسمته ، فجاءه ظنيط ليكيله ، وينوب عن سرجويل فى قسمته ، فلما حضر قال لبيبرس : لك الحقائب البيض ، ولنا الحقائب السود ، فأجابه : سيكون الخيار بعد الكيل والقسمة ، وسأرى ماذا تصنع .

كال ظنيط القمح فى الحقائب على حسب تدبيره ، فكان يضع فى الحقائب البيض مرة أو مرتين ويضع فى الحقائب السود تسع مرات أو عشراً ، ولما انتهى من قسمة القمح على هذه الحال التفت إلى بيبرس وقال : خذ حقائبك البيض واترك لنا الحقائب السود ، فقال بيبرس : لا آخذ إلا الحقائب السود ، فقال ظنيط : ذلك ما لا يكون ، فقد عرفتك من قبل أن البيض لك ، وأن السود لنا ، فقال : بيبرس : سآخذ السود رضيت أم لم ترض ، وتركتك تقرع سن الندم ، وتضرب كفاً بكف . فاغتاظ ظنيط بفشله فى تدبيره ، وجعل يسب ويشتم ، وينذر ويتوعد ، فلم يلتفت إليه بيبرس ، وأمر رجاله أن يحملوا الحقائب السود فأسرعوا وحملوها على البغال والجمال فى لمح البصر ، ثم رجع بهم بيبرس وتركوه غارقاً فى خزيه وفشله .

رجع ظنيط إلى سرجويل حزيناً وأخبره بما حصل وبالغ فى خبره ، فقال : ولقد سبنا وشتمنا وهم أن يقتلنا ، ولولا أنى فررت من وجهه لكنت الآن قتيلا .

غضب سرجويل وثار ، والتفت إلى أخيه عبد الصليب وقال :

خذ رجالك ، وأدركهم فى الطريق ، واقتل هذا الغلام ، وشرد جماعته ، وارجع إلىّ بالقمح جميعه ، وليكن معك ظنيط ليدلك على الغلام .

ركب عبد الصليب وجماعته خيلهم وأرخوا أعنتها تجرى وراء بيبرس حتى أدركوه ، ونادى فيهم أن اهجموا عليه وعلى رجاله واسقوهم كؤوس الردى ، فأدرك بيبرس فى الحال غرضهم ، وجعل رجاله فريقين : أحدهما لحماية الأموال ، والآخر للفتك والنضال ، ثم هلل وكبر وخاض بسيفه فى أعناق الكفرة ، فجعلهم يتساقطون تساقط أوراق الشجر ، وبحث عن ظنيط وهو يهدم بنيان صفوفهم ، فضربه بالسيف ضربة أطاحت رأسه ، وهم عبد الصليب أن يهرب من وجهه ولكنه انقض عليه فقتله ، ورأى جماعة سرجويل ما حاق بهم من البوار فركبوا أرجلهم وتشتتوا هاربين فى القفار .

فاز بيبرس وانتصر ، فأمر رجاله أن يأخذوا أسلاب العدو المندحر ، ثم سار بهم حتى كان عند أمه ، وحكى لها ما كان من أمره ، فحمدت لله فضله ، ودعت لابنها بدوام نصره .

فر المنهزمون من رجال سرجويل إليه ، وسردوا ما لحقهم من البوار عليه ، ونعوا إليه ظنيطاً وزيره ، وعبد الصليب أخاه ، فوهى جلده ، وانحل عزمه . ولام نفسه ، وشق جيبه ، واسودت الدنيا فى وجهه ، وخرج به الغم إلى التهور ، فجعل يسب جنوده ويوبخهم ، ويحقر من شأنهم ، وأمر بإعداد جيش عظيم ، يجمع من عنده من الرجال والأبطال ،

فتألف جيش جرار ، وقاده سرجويل نفسه ، وسار إلى بيبرس فى مقره . فنزل على مقربة من المدينة . وبلغ عيسى شرف الدين نبأ نزوله فأغلق أبوابها ، وقام الجنود على أسوارها . ولكن سرجويل رأى ألا يغزوها حتى يكتب إليه . ويبين له الغرض الذى جاء به . فبعث إليه رسالة قال فيها : وحق المسيح إن لم تبعث إلىّ البدوى الذى قتل أخى وابن أختى ، فإنى لست براحل عن مدينتكم . ولا تارك حصاركم ، حتى أفنيكم ، ومالى بكم من حاجة إلا طرد بيبرس وإحضاره إلينا ، فإن أحضرته فككت الحصار عنكم . ورجعت بجنودى شاكراً ، فانظر فى عاقبة أمرك ، ولا تتبع غرورك فيضلك ، ويسوقك إلى حتفك ، وتخريب مدينتك.

وبعث به رسوله ، ووصاه أن يعود بإجابة حاسمة عن رسالته .

قرأ عيسى شرف الدين الرسالة . وفكر مليًّا . ثم قال : ومالى لا أريح نفسى ، وأحقن دماء جندى . فأطرد عدوه من بلدى ؟ ! ! ثم كتب الكتاب الآتى وسلمه إلى رسوله :

من عيسى شرف الدين إلى سرجويل .

إنى ما أغضبتك . ولا أذنبت فيك ولا فى أحد من أتباعك وجندك ، ولا أجد فى نفسى لك ما تكرهه ويثير سخطك . وسأخرج عدوك من مدينتى . وستراه فى الخلاء طريداً وذلك ما أردته . وما أعجل به .

قرأ سرجويل كتاب عيسى فأشرق وجهه سروراً ، وانتظر عدوه فى الخلاء شريداً .

أما عيسى فإنه لجأ إلى المكر وخداع بيبرس ، إلى أن يزج به فى الخلاء ، وهناك يفعل الله به ما يشاء . فدعاه إلى مجلسه ، ليسقيه خديعته ، فلما حضر ابتسم فى وجهه ، وقال : لقد دعوتك الآن لأستشيرك فى أمر سرجويل اللئيم الذى أتانا بجيشه ، وحاصر المدينة ، ويريد بنا السوء والمضرة ، وأنا أعلم أنه ما جاءنا إلا لينتقم منا ، لأنك قتلت رجاله ، وأخاه وابن أخته ، ونهبت أمواله ، وليتك قضيت عليه القضاء كله ، حتى لا تقوم له قائمة ، وقد حمدت الله الذى نصرك عليه وأيدك ، وسوف ينصرك على جميع من يعاديك ويناوئك . وقد أردت أن أفرق جمعهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، حتى لا يطمعوا فينا بعد ذلك ، فماذا ترى ؟ فقال لبيبرس : الرأى ما تراه ، فأنت أعلم بمواقف القتال ، وضروب المكيدة والمحال ، فقال عيسى : أرى أن تجمع جموعك وتخرج من المدينة إليه . ولن أدعك تلتقى به وحدك ، فسأكون بجنودى من خلفك فإذا ما رأيتهم قد أحاطوا بك ، أطبقت عليهم بجيش من كل ناحية ، وحينئذ يكونون بينى وبينك ، كالفريسة بين فكى الأسد ، فلا ينجو منهم أحد . فماذا ترى فى هذه الحيلة ؟ فغره صواب هذا الرأى وقوته ، وظن إخلاصه وصدقه ، وأنه شديد الرغبة فى نصره ، فقال : أنعم به من رأى سديد ، وخطة لاتفشل ولاتخيب ؛ وغاب عن ظنه أنه خائن غادر ، أراد بهذا أن يلقى به فى المهالك والمخاطر . فنهض من ساعته وخرج هو وجماعته من المدينة ، ولما صار بعيداً منها نظر وراءه فلم يجد أحداً ،

وعلم أن أبواب المدينة قد أغلقت ، وانقطع عنه كل معونة ومدد ، فأدرك أن عيسى قد خدعه ، وأوقعه فى حبائل كيده وغدره ، فوقف طويلاً يفكر فى مصيره ، فالعدو فى خمسين ألف أمامه ، والموت فى أسلحتهم رابض له ، والمدينة مغلقة من خلفه ، وليس معه إلا فئة قليلة من رجاله .

التفت بيبرس إلى إخوانه وقال : لقد رأيتم ما فعل بنا هذا الخوّان الأثيم ، وليس لكم إلا جهاد الصابرين، وثبات المؤمنين الصادقين ، وإن حرصتم على الموت وهبت لكم الحياة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، فقالوا : لقد بعنا أنفسنا فى سبيل الله ، فلا يهمنا عدو وإن كثر ، ولا حاقد وإن مكر وغدر ، فخض بنا ما تشاء من المعارك ، فالله ولينا وناصرنا ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

ولما تراءى الجمعان ، واصطف الفريقان ، استعداداً لخوض معركة القتال ، برز إلى الميدان من صفوف سرجويل بطريق صنديد فى أسلحة قتاله ، وبيضته وترسه ، راكباً جواداً يسبق الريح ، ونادى بلغته : هل من مبارز ؟ فأقسم بيبرس ألا يخرج إليه أحد غيره من رجاله ، وانفلت بجواده إلى الميدان قائلاً :

جاءك المبارز ! واندفع نحوه اندفاع السيل رقطع رقبته بالسيف ، فارتمى من فوق جواده قتيلا . وأوقع الرعب فى قلوب الفرسان من الأعداء . وجعل يقول : هل من مبارز ؟ فلم يتقدم إليه أحد . فأخرج له

سرجويل بطريقًا آخر كأنه النخلة ، فلم يمهله حتى قطع عنقه وأغرقه فى دمه . واستمر بيبرس يقتل كل من بارزه حتى كان عدد القتلى اثنى عشر فارسًا ، فخاف سرجويل على جيشه وأمرهم أن يهجموا عليه دفعة واحدة ، فأسرع رجال بيبرس إلى الهجوم أيضًا ، واقتتل الفريقان ، فدارت الدائرة على سرجويل وجيشه فى اليومين اللذين استمرت المعركة فيهما قائمة . وكان عدد القبائية الذين يناصرون بيبرس قليلا ، فمات جميعهم ولم يبق إلا بيبرس وحده ، فقاتل أعداءه فى اليوم الثالث معتمداً على ربه وثبات قلبه ، فقتل منهم كثيرين ، ولم يجدوا لهم منفذاً إلى أسره أو إعدامه ، فنادى سرجويل : من أتانى برأس بيبرس أعطيته وزنه ذهبًا ، وكان الليل قد أقبل ، فانتحى بيبرس ناحية بعيدة يقضى ليلته فيها ، وسكن الجيش فى مساكنه إلى أن يأتى الصباح .

وتقدم « العايق عكرتار » إلى سرجويل وقال له : أنا آتيك برأس بيبرس الليلة ، وسآخذ منك وزنه ذهبًا ، وانفلت يجرى بجواده فى القفار حتى أبعد ، وذلك ليهجم على بيبرس من ناحية يأمن فيها على نفسه من الأعداء ، وكان بيبرس قد ربط جواده فى يده ونام على مقربة من باب دمشق ، فأقبل العايق إليه خفية ، وأخرج منديلا مبللا بالبنج ووضعه على أنفه ، فاستغرق فى إغماءة عميقة ثقيلة لا يحس معها شيئًا ، فحمله العايق ووضعه على ظهر الجواد ، وسار به حتى وضعه بين يدى سرجويل ، وقال : هذا الذى تطلب رأسه ، جئتك به كله لتفعل به

ما تشاء . ففرح فرحًا عظيمًا . وقال : فكرو عن جواده . وأنشقوه الحل حتى يفيق ، فلما أفاق ودار بعينيه فيا حوله قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . أين أنا الآن ؟ فقال سرجويل : أنت أمامى وفى قبضة يدى ، ولا بد من قتلك لأمحو العار عنى . فقال بيبرس : فرج الله قريب . وهو الذى يتولانى ويستجيب دعائى . ولكنى أسألك يا سرجويل : لمن هذا الصوان الذى تقيم فيه ؟ فقال : صوانى ، وقد صنعته بمالى . وأجد فيه راحتى . فقال بيبرس : سآخذه منك قهراً وسأتركك فى حسرة من فقده . فعجب لجرأته وثبات فؤاده وقال له : إذا كنت عاجزاً عن تخليص نفسك من يدى . فكيف تقدر على أخذ صوانى ؟ ! فقال : قضى الله أن يحسن خلاصى من يدك ، وتقع أنت فى قبضة يمينى . ويكون هذا الصوان فداءك . فقال سرجويل : إذا نجاك منى ربك . وجعلنى فى يدك . فافعل ما بدا لك . ولا حرج عليك . ثم أمر أن يلتود مكتوف اليدين . مقيد الرجلين على النطع ، وأن يقف السياف على رأسه . فقال بيبرس : ابتعد عنى أيها اللئيم حتى أطلب الفرج من ربى الكريم . فضحك سرجويل ضحكة استهزاء وسخرية . وقال : من أين يجىء لك الفرج . وأنت كالطير الحبيس فى قفص ؟

استغرق بيبرس فى صلته بربه . وقطع ما بينه وبين خلقه ، وتوجه إليه بقلبه داعيًا .

اللهم أنت المعز لمن أطاعك . المذل لمن جحدك . فارحم عبدك .

ويسر له فرجًا قريبًا .

فرغ بيبرس من دعائه والسكون قد خيم على من حوله ، وأقبل فى الحال رجل ذو قوة يحمل سيفه فى يده ، وأطاح برأس السياف ، وفك عن بيبرس القيود والأغلال ، فنهض مجرداً حسامه . وتقدمه هذا الرجل الذىأنجده وأغاثه ، وقال : أيها اللئام ،من فيكم يريد قتل هذا الأمير؟ والله الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، لأقطعن عنق من رامه بضر أو أذى ، وما أنا بخائف منكم ، وإن حملتم علىّ أجمعكم .

قال الرجل هذا القول، وما قدر أحد أن يرد عليه، أو يلتفت إليه، وكأنهم أموات غير أحياء، ثم انطلق هو وبيبرس من بين الأعداء وهم ينظرون ولا يستطيعون حراكاً، وركبا طريقهما إلى البيداء، ومازالا سائرين حتى أمِنا على نفسيهما من شر أعدائهما.

التفت بيبرس إلى هذا الرجل ، وقال : لقد أحسنت إلىّ كل الإحسان فمن أنت أيها البطل الكريم ؟ فقال : لقد نسيتنى وما نسيتك ! أنا عاصف ابن بحر صاحب قلعة المرقب ، الذى بعتك القوس على باب دارك ، فوهبتها لى ، وأعطيتنى ثمنها ومثله معه ، فسألت ربى أن يعيننى على أن أجزيك خيراً بمعروفك وإحسانك ، فمنّ على ربى واستجاب لدعائى . وكان منى لك ما رأيت . فقال بيبرس : جزاك الله خيراً ، فقد خلصتنى من الموت ، وهذا معروف لا أنساه لك ما حييت . ولكنى سائلك :

كيف عرفت ما أنا فيه من الضيق والشدة ؟ فقال عاصف :

رأيتك وأنت راجع من قتال أعدائك ، ثم أويت إلى مكان بعيد لتستريح من التعب الذى قاسيته ، وقد غلبك فيه نوم عميق ، فجاءك شيطان من أعدائك وأفقدك حسك وشعورك ، بما وضعه من البنج على أنفك ، وقد هممت أن أقتله حينئذ ، فأبت نفسى أن أهجم عليه فى الخلاء وحده ، وعزمت أن أخلصك من يده فى جمع من قومه . ولما وصلت إلى هذه الحال دخلت عليك وخلصتك من براثن الموت ، على النحو الذى رأيت . ونحمد الله الذى سلمك وعافاك ، فشكر له بيبرس جزيل نعمائه ، ثم استمرا فى المسير حتى كانا أمام دمشق فوجدا الأبواب مغلقة ، فابتأس وتألم ، وعرف عاصف ما خامر نفسه من الألم ، فسأله عن حاله ، فحكى له مافعله به عيسى حاكم دمشق من الخيانة والكيد له ، وإخراجه هو ورجاله من مدينته . فقال عاصف : ياأخى ، أنا آتيك به الساعة ، أو آتيك برأسه إذا جن الليل . فقال بيبرس : دعنا من هذا فكل امرئ سيلقى جزاء فعله ، ولكن كيف تدخل المدينة وأبوابها مغلقة ؟ فابتسم عاصف ، وقال : سأريك العجب ، وأخرج حبلا فى طرفه حديدة معقوفة كالكُلاّب ، ورماه إلى أعلى السور ، فعلقت الحديدة به ثم أخذ يصعد فى الحبل حتى كان فوق السور ، وأشار إلى بيبرس أن يأتيه ، فصعد فى الحبلِ بمهارة فائقة كما فعل عاصف ، حتى كان بجواره ، فعجب عاصف من مهارته ، وقال : هل سبق لك أن صعدت فى مثل

هذا الجبل ؟ فقال : لا ، ولكن ذا العقل يستطيع أن يفعل ما يفعله غيره ، فقال عاصف : ما دمت ماهراً إلى هذا الحد فأنت ولدى ، وأنا كبيرك ومعلمك ، فقال بيبرس : الأمر كما رأيت . ثم سارا حتى وصلا إلى بيت السيدة فاطمة ، وكانت حزينة على ابنها بيبرس ، فدق الباب ، ولما فتحته وجدت ابنها ففرحت ، وزال ما بها من الأسى والحزن ، ثم دخلا وجلسا ، وأحضرت لهما طعاماً فأكلا وشربا ، وقص عليها بيبرس ما جرى له ، وبعد ذلك همّ عاصف بالقيام فسأله بيبرس إلى أين تذهب ؟ فقال : إنى ذاهب إلى الخلاء فى البيداء ، فأعطاه مائتى دينار ، فأخذها شاكراً وانصرف .

٧

نام بيبرس ليلته ، وفى الصباح وجد نفسه قد استراحت وزال عنها التعب ، فأخذ سلاحه وركب جواده ورأته أمه فسألته : إلى أين تذهب يا ولدى ؟ فقال : إنى ذاهب إلى الأعداء لأخلص منهم جوادى ، فقالت : قواك الله وأعانك ، وقطع دابر خصومك ، وسار حتى كان بباب المدينة ، فصاح بالبواب صيحة أخافته ، وأمره بفتح الباب ففتحه ، وخرج منه إلى سبيله ، وقد ارتاب البواب فى أمره ، وأدهشه أن جاء المدينة بعد أن فارقها ، وأغلق من خلفه أبوابها .

ولما قارب الكفار ، ورآه سرجويل عجب وقال : لاحييت ولا بقيت . وأمر عصبة أن يبرزوا إليه ، فتلقاهم بيبرس بالهلاك والقتل حتى أفنى منهم خمسة وأربعين فارساً ، فهجموا عليه جملة واستداروا من حوله ، فاتجه بقلبه إلى الله ، وبسيفه إلى الأعداء ، وجعلت الرءوس تترامى كأوراق الشجر ، وما زال يكابد ويكافح حتى كلت يده وعجزت عن حمل السلاح ، وشعر بالضيق والخطر ، فأسلم إلى الله وجهه وقال : اللهم إنى أرجو منك الأمان ، وأن تأخذ بيدى ، وتنصرنى على القوم الظالمين .

وفى الحال سمع صوتاً يناديه ، ويقول : يا بيبرس اشدد عزمك ، وثبت قلبك ، فقد أتاك الفرج ، وتأمله بيبرس فألفاه عاصف بن بحر ،

فعادت إليه قوته . وصاح : الله أكبر الله أكبر ، ومالا على الأعداء ميلة ثقيلة قاسية ، أوقعت الرعب فى قلوبهم ، وتقصّص عاصف سرجويل حتى أمسكه وأوثق كتافه ، فانحلت عزائم جيشه ، وتركوه محبوساً فى قيوده وأغلاله . وفروا هاربين ، وتركوا مالهم من خيام ونعم ، ومما تركوه صوان سرجويل الممدود ، وكان معدوم النظير ، له ثلثمائة عمود من خشب الأبنوس مرصعة بالذهب ، وبه ستة وثلاثون ساعة دقاقة من صنع الصين ، وفرش بالحرير الفاخر .

جلس بيبرس على كرسى سرجويل فى صوانه . وقال لعاصف : اجمع الأسلاب وائتنى به . فلما مثل بين يديه أمر بضرب عنقه . فرماه عاصف على الأرض وهم بقتله ، فصاح مستغيثاً مستشفعاً بعاصف بن بحر ، فضحك بيبرس وقال : ألا تذكر استهزاءك بى وأنا أقول : فرج الله قريب ؟ ! اسمع يا سرجويل : إما أن أقتلك . وإما أن تفتدى بالمال . فقال سرجويل : أعتقنى ولك عشر خزائن من المال . ومائة من الجمال ، وخمسون من الخيل ، فقال : لا يرضينى هذا . ولكنك إن أردت السلامة فأعطنى هذا الصوان وما فيه من الأموال . وأنا أمن عليك برأسك . وهو عندك خير من ألف صوان . فقال : أعطيتك هذا الصوان وما فيه . فقال : وقد أعتقتك ، فارحل إلى سبيلك . ومنحه جواداً شارداً من غير سرج .

وجمع عاصف الأسلاب . وحزمها على ظهر الدواب وسارا إلى

دمشق ، وهناك صعد عاصف إلى سور المدينة ونزل فى داخلها ثم فتح الباب ، ودخل بيبرس وعاصف أمامه وقد شهر سيفه ، وأهل دمشق يهنئونه ، وسار حتى كان فى منزل أمه ، وهناك قسم المال قسمين ، وأعطى عاصفًا نصفه ، ووزع النصف الآخر على الفقراء والأرامل والأيتام ولم يبق لنفسه إلا الصوان وما شاء من الخيل لحاجته إليها فى المعارك والقتال ثم ودعه عاصف وانصرف .

٨

نقلت أخبار بيبرس وما غنم من الأموال إلى عيسى شرف الدين ، فأظلمت الدنيا فى وجهه ، واحترق من الهم صدره ، ولكنه أخفى غمه وحزنه ، وعاد إلى كيده ومكره ، فقال لأربعة من كبار رجاله : ائتونى بولدى الأمير بيبرس ، فذهبوا إليه وقالوا : نحن رسل عيسى شرف الدين ، وهو يدعوك إلى الحضور لديه ، فقال : ولأى شيء ؟ فقالوا : لا ندرى ، فقال : هيا بنا إليه . وكان معه عاصف بن بحر المرقب ، فلما رآه عيسى فى ديوانه قام إليه وهنأه بسلامته ، وقال : لقد أرضيت ربك إذ تصدقت بما غنمته من الأموال على الفقراء والأرامل والأيتام من رجال ونساء ، وعلى العلماء والأشراف ، ولقد كنا نود أن نخطر ببالك ، ولكنك نسيتنا ، وما ذكرتنا بمعروف تزجيه ، فهل لذلك من سبب ؟ فقال بيبرس : لقد غدرت بى ، وقذفتنى من المدينة إلى الأعداء ، وتخليت عن معونتى فى أحرج المواقف ، فليس لك حق عندى فى عقال بعير . وهؤلاء العلماء ، فلنقص عليهم قضيتنا ليبدوا فيها رأيهم . فكظم عيسى غيظه وابتسم ، ثم قال : حرسك الله يا ولدى وصانك ، ونصرك على أعدائك ، ولكنى أرى أن فى إهمالك لى احتقاراً لشأنى ، وحطاً من كرامتى ، وأنت لا يرضيك هذا ، فقال بيبرس : يا علماء الإسلام ؛

ما قولكم دام فضلكم فى رجل خدعنى وأباح دمى للأعداء ، وأخرجنى من المدينة على أن يتبعنى لمعونتى ونصرتى ، ثم يغلق أبواب المدينة من خلفى . وقد قعد فيها بجنوده فأغضب الرحمن وأرضى أهل الغدر والطغيان ، ويريد الآن أن يأخذ مما غنمت من أموالهم وأسلابهم ، فقالوا : ذلك لا يجوز فى عقل ولا دين ، ثم التفتوا إلى عيسى فلاموه وأهانوه ، وغشيه الوجوم فسكت مدة ثم قال : ما أردت بكلامى إلا المزاح ، لأفتح لولدى بيبرس أبواب السرور والانشراح ، ثم جعل يضاحكه ويتحدث إليه ، كأنه له ولى حميم ، ولكن قلبه يكاد يتمزق غيظًا وحقداً ، وما لان فى قوله . وأظهر السرور بحديثه معه إلا دهاء وخديعة ، ليمهد بذلك سبل الكيد له .

أحضر عيسى عنده رجلا من أشرار دمشق يقال له لبيد ، وكان كافراً مؤذيًا لا يرحم ، وقال له : يا لبيد لى حاجة إن قضيتها فلك عندى ما تحب ، وهذه ألف دينار منى إليك ، ولك أضعافها إن قضيتها ، فقال : لك عندى قضاؤها ، فما حاجتك ؟ فقال : أن تسرق لى بيبرس وتجيئنى به ، وأن يكون ذلك سرًّا لا يشعر به أحد ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأخذ الألف دينار وخرج .

دخل لبيد بيت بيبرس خفية ، وكمن فى مخبأ فيه وانتظر حتى جن الليل ونام الناس ، وانقطعت الطرق فى المدينة ، ثم تسلل إلى حجرته فوجده غارقًا فى نومه ، فوضع منديلاً به بنج على وجهه ، فصار كالميت لا يحس

ولا يتحرك ، ثم حمله وخرج به ومضى حتى وضعه بين يدى عيسى الذى كان ينتظره ، فشكره وأنعم عليه وقال له : اذهب إلى شأنك واحذر أن تخبر بما فعلته أحداً من البشر ، فقال : كن مطمئناً ، فإنى ما فعلت شيئاً حتى أعلنه أو أتحدث به ، ثم حيا وخرج . وكان قد وضع بيبرس مكتفاً مقيداً فى مكان خفى من بيت عيسى .

دخل عيسى عليه وأنشقه الخل فأفاق من غشيته ، فوجد عيسى أمامه ، وأنه فى حجرة غير حجرته ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أين أنا الآن ؟ فقال عيسى : أنت عندى أيها النذل الخسيس ، وهذا قبرك الذى تلقى فيه ربك ، فقال : كيف تكون والدى وترضى أن تفعل بى هذا ؟! ولكن فرج الله قريب ، فقال : لا تطل الكلام ، فما لك عندى عتاب أو كلام . ثم أغلق عليه الباب وتركه .

انتظرت فاطمة بيبرس ابنها أن ينزل إليها فى الصباح كعادته ، ولما استبطأته ذهبت إليه فى حجرة نومه ، فلم تجده ، وبحثت عنه هنا وهناك فى بيتها فلم تقف له على أثر ، فأدركت أنه سرق إلى حيث لا تدرى ، ولم يقعد بها الحزن عن السعى فى طلبه ، فكتبت فى الحال إلى أولاد إسماعيل الأشراف تقول : من فاطمة القوسية إلى أولاد إسماعيل ذوى الفضل الجليل .

أخبركم أن ابنى بيبرس بات عندى الليلة ، وفى الصباح لم أجده فى

مكانه ، وتفقدته فى المنزل هنا وهناك فلم أقف له على أثر ، وفى يقينى أنه سرق إلى حيث لا أعرف ، ورجائى منكم أن تكشفوا عن خبر أخيكم قبل أن ينزل به كيد أعاديه وحاسديه .

أعطت عبدها سعيد الدار كتابها هذا ، وأمرته أن يركب جواده إلى أولاد إسماعيل فى قلاعهم ، وهناك يسأل عن سليمان الجاموس ، أو أبيه أسد الدين العبوس ، أو جده أبى الرءوس ، ويناوله هذا الكتاب ، وقالت له : اعرف ما يكون من حالهم بعد قراءته ، وإن فعلت هذا فأنت حر لوجه الله الكريم، وكانت قد منحته مائة دينار وخلعة سنية .

ركب سعيد الدار الجواد وسار حتى كان عند قلعة أولاد إسماعيل، وهناك استقبله بعض الرجال فطلب منهم أن يدخل على كبرائهم والمقدمين فيهم ، الذين ذكرتهم له سيدته فاطمة ، ليعطيهم كتابه . فدخل أحدهم عليهم وقال : حضر رسول من عند السيدة فاطمة القوسية ، ومعه كتاب منها ، ويطلب الإذن بالدخول ليعطيكم كتابها ؛ فقالوا : أدخله إلينا فى حفاوة واحترام ، فلما كان بين أيديهم ، حيوه واحتفلوا به وأجلسوه ، ثم سألوه عن السيدة فاطمة ، وعن أخيهم بيبرس فقال : أما السيدة فاطمة ففى رخاء ونعمة ، وأما أخوكم بيبرس فلا أعلم عنه شيئًا ، وربما وجدتم فى كتاب السيدة فاطمة هذا ما ينبئكم عن خبره ،ثم ناولهم الكتاب ، فلما قرءوه هاجوا وماجوا ، ثم قالوا : لا بد من البحث عنه ، ولا بد من العثور عليه وإن كان فى الأرض السابعة . ثم أنعموا على عبد السيدة فاطمة وقالوا له :

أخبر سيدتك أننا قادمون إليها فى جنح الظلام ، فأسرع العبد إلى سيدته ، وشرح لها الحال ، وبلغها المقال ، وأنهم قادمون إليها فى ظلام الليل ، ففرحت وأنعمت عليه بعتقه .

ركب المقدمون خيلهم ومعهم أتباعهم وساروا ، ولما قربوا من دمشق نزلوا عن خيلهم ، وتركوها مع أتباعهم ودخلوا المدينة ، وكانت السيدة فاطمة فى انتظارهم ، موجهة حسها وسمعها نحو باب بيتها ، وما كادت تسمع طرقًا خفيفًا بالباب حتى أمرت غلمانها بفتحه ، ولقيتهم فى سرعة وسارت بهم إلى حجرة جلوسها ، وأجلستهم على أرائكها الحريرية الوثيرة ، وأحضرت لهم ما لذ وطاب من أنواع الشراب ، ثم جلست تبكى فقد ابنها بيبرس ، فقالوا : اهدئى ولا تبكى ، وأخبرينا : هل له فى المدينة عدو أو حاسد ؟ فقالت : نعم ، عدوه الذى يكيد له عيسى شرف الدين ، وهو له بالمرصاد لا يفتأ يدبر له المكايد والمصائب . فنظر بعضهم إلى بعض ، وتغامزوا بإشارات يعرفونها ، ثم قالوا : قد عرفنا كل شىء ، فقرى عينًا ، واهدئى فى مضجعك ، فلن يمضى هذا الليل حتى يزول عنك غمك ، ويكون أخونا بيبرس عندك ، بفضل الله وقوته ؛ فشكرت لهم جميل عطفهم ، وتركتهم إلى حجرة تنتظر ما يكون .

ومضى الرجال فى الحال إلى بيت عيسى ، فتسلقوه وانحدروا إلى حجرة عيسى ، فوجدوه نائمًا على سريره ، فأيقظوه بقسوة مريبة ، ونظر إليهم وعرف أنهم أولاد إسماعيل ، فخاف وفزع ، ولكنه لجأ إلى مكره ،

فأخفى رعبه وتجلد ، ثم قال : أهلا وسهلا بالأسود الكاسرة ، والأشراف الفضلاء أولاد إسماعيل ، فقال سليمان الجاموس متوعداً : إن كنت ذا مكر وحيلة فنحن أمكر منك وأخطر حيلة ، واعلم أنه ما بقى لك من حياتك إلا هذه الساعة ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وتملكه الخوف وعرق ثم قال : وما الذى فعلته بكم حتى تقتلونى وتيتموا أولادى ؟ فقالوا : إنك عالم بذنبك فلا تحاول أن تخفيه وتتجاهله ، فقال : ما علمت لكم من ذنب عندى ، فما الذى أغضبكم ؟ فقالوا له : ورب الكعبة إن لم تصدقنا فيما نسألك عنه قتلناك ، فقال : سأصدقكم ورب الكعبة . فقالوا : أين بيبرس الذى هو مقيم عندك ؟ وفى مدينتك ؟ فأيقن عيسى أنه إن كذب أعدموه ، فقال : ولأى شىء أهمكم أمره ، فأخذتم تبحثون عنه ، وما هو لكم بنسيب ولا قريب ، وليس بينكم و بينه صلة ولا معرفة ؟

فقال سليمان الجاموس : إنه عدو لسلطان القلاع ، وقد أمرنا بإحضاره إليه حيث يكون . فانطلى عليه القول والخداع ، وقال : وماذا فعله حتى أغضب السلطان وأمركم بالبحث عنه وإحضاره ؟ فقال : عنده مقدم تمرد على السلطان . ولما طلبه هرب من وجهه ؛ فأعلن فى الناس أن من آواه أو حماه دق عنقه وأعدمه الحياة ، وقد أخبرتنا الجواسيس أن المقدم عند هذا الغلام ، فطلبناه فى كل مكان فما وجدناه ، وقد علمنا أن هذا الغلام من أعز أحبائك ، وأنه منك بمنزلة ابنك ، فجئناك

وطلبناه منك ، فإما أحضرته ، وإما أخذنا إلى السلطان رأسك . فسرى عن عيسى وزال رعبه واطمأن قلبه ، ثم قال : إن هذا الغلام مقيم عند فاطمة القوسية ، وما اتخذته ابناً ، وما كنت له والداً ، فاطلبوه عندها ، فقالوا : كلمة تسمعها ولا تحيد عنها : إما أن تحضره ، وإما أخذنا رأسك إلى السلطان، واعلم بأنك إن أحضرته فلا ضير عليك، وإن أحضرته وأردت أن نكتم أمرك فعلنا ، وقلنا إنا وجدناه فى البرارى منفرداً لا أنيس معه ، فأبِنْ لنا عن قصدك بعد هذا ولا تطل فى الكلام ، فلما وجد نفسه بين أمرين لا ثالث لهما ، إما القتل وإما إحضار بيبرس قال : إن هذا الغلام من ألدّ أعدائى وأشدهم على نفسى ، فإن دللتكم عليه قتلتموه ؟ فقالوا : نحن ما نطلبه ونسعى فى إحضاره إلى السلطان إلا ليقتله ويتخلص من تمرده عليه ، وسوف ترى بعينيك ما يسرك ، فأين هو ؟ فقال : إنه عندى ، وأحب أن يقتل حتّى آمن على نفسى منه ، فقالوا : وإن السلطان مصرٌّ على قتله ليستريح منه ، فقال : وإن قتلتموه بين يدى، وأخذتم للسلطان رأسه ، أعطيتكم خمسة آلاف دينار ، فقالوا : ولك علينا ذلك ، فقام عيسى وسار بهم إلى مخبأ بيبرس الذى حبسه فيه ، وفك الأقفال وفتح الباب ودخلوا عليه ، فقال عيسى : كيف تجاهر السلطان بالعداوة والتمرد ؟! لقد حان أجلك ، ولم يبق من حياتك إلا بمقدار ما يقطع السيف عنقك .

وكان بيبرس قد توقع الشر حينما رآه داخلا ، ولكنه اطمأن عندما

رأى أولاد إسماعيل من خلفه ، فحمد الله تعالى فى سره ، وأيقن بخلاصه من أسره ، وقال عيسى : هذا خصمكم بين أيديكم يرسف فى قيوده وأغلاله ، فخذوه واقتلوه ، وافجعوا أمه بقتله ، ولكم عندى عشرة آلاف دينار والخلع الغالية ، فما كاد ينتهى من قوله حتى ضربه سلمان على رأسه ضربة ألقته على الأرض كالمغشى عليه ، ثم كتف يديه وقيد رجليه ، فارتعد عيسى من الخوف وقال : ماذا فعلت من ذنب بعد أن سلمتكم خصمكم وعدوكم ؟ فقالوا : يا غادر ، ما هو إلا أخونا ، وأحب إلى أنفسنا منا ، وقد خدعناك بدهائنا ومكرنا حتى أنجيناه من شرك وظلمك ، وما أنت إلا عدوه المبين ، ثم فكوا عن أخيهم بيبرس القيود والأغلال ، وضموه إلى أحضانهم ، فقال بيبرس : جزاكم الله خيراً ، فقد نجيتمونى من موت محتوم ، وخلصتمونى بقوتكم ودهائكم ، وما كان لأحد غيركم أن يعرف مكانى ومصيرى ، فقالوا : لو كنت فى سد الإسكندر ذى القرنين لخلصناك فى طرفة عين . وسنبقى عوناً لك مدى الحياة ، فشكرهم والتفت إلى عيسى قائلا : ماذا جنيت عليك حتى تسعى فى إتلاف مهجتى ؟ ثم قال لإخوانه : من الخير أن تقطعوا عنقه ، وتريحوا الناس من غدره وظلمه ، فهمّ سلمان أن يقتله ولكن عيسى صاح متوسلا راجياً : عفواً يا بيبرس ومعذرة ، فما حملنى على ما فعلته بك إلا وشاية حاسديك وقول شانئيك ، وقد ندمت الآن فلا تؤاخذنى . وإن عدت لمثلها فحلال لسيفك دمى ، وإنى أستشفع بحسبك ونسبك وشرف أولاد

إسماعيل ، وهم شهود على ما أقول ، فسكت بيبرس ونظر إلى إخوانه كأنه يستفتيهم ويستشيرهم ، فقالوا : إن أردت قتله عجلنا به فى الحال ، وإن أردت إبقاءه حتى يجترح خطيئة أخرى أبقيناه . فقال : اصبروا ولا تعجلوا ، والتفت إليه قائلا : هل تبت الآن توبة خالصة ؟ فقال : تبت توبة نصوحًا ، ولن يكون منى بعد ذلك إلا ما تقرُّ به عينك ، فقال لإخوانه : لقد شهدتم على توبته ، والعفو شيمة الكرام ، وإن جرى علىّ القضاء بمكروه بعد ذلك فلا تطلبونى من غيره ، فإنى لا أزال أعتقد أنه عدوى المبين . فأكرموه بالصفح عنه هذه المرة . فقالوا : والله ما لنا رغبة فى إبقائه ، ما دمنا لا نجد لك عدوًّا غيره ، فدعنا نقطع رقبته ونريحك من مكره وغدره ، فقال عيسى : لا تردوا لأخيكم قولاولا شفاعة ، فقد تبت على أيديكم ، وندمت على ما فعلت ، وإن جرى على أخيكم مكروه ، فأنا المسئول ، فقالوا : إن جرى على أخينا مكروه أخذناك فيه دون غيرك من الناس ، فقال : رضيت بذلك والمقدم سليمان يضمننى ، فكفله سليمان وضمنه ، ثم أطلقوه وأمروه أن يقبل يدى بيبرس ، فجعل يقبل يديه ورجليه ، وكان ذلك على كره منه ، ولكن خوفه من الموت دفعه إلى أن يفعله . ثم سار بهم إلى مكان الجلوس من بيته . وأعطاهم عشرة آلاف دينار وكثيراً من الخلع الغالية ، ورجاهم أن يكتموا هذه القضية ولا يذكروا لأحد أن بيبرس كان عندى ، فقالوا : ستبقى قضيتك فى طى الكتمان ، وودعوه وخرجوا .

كانت السيدة فاطمة تنتظر الرجال وابنها على أحر من الجمر ، وكان سرورها عظيماً حينما دخلوا عليها فى بيتها ومعهم ابنها بيبرس . يلوح فى ناظريها كأنه البدر المنير ، وطغت عليها نشوة من الفرح العظيم ، فأيقظت غلمانها ، وأمرتهم أن يضيئوا المصابيح فى مجلس الرجال ، ويحضروا لهم ما لذ من الطعام ، ثم أعطت كلا منهم منديلا به ألف دينار ، بشارة لخلاص ابنها على أيديهم ، وبعد أن أكلوا وشربوا وتبادلوا أحاديث المسرة ، وضعوا المناديل وما فيها والأموال التى أخذوها من عيسى شرف الدين بين يدى بيبرس وقالوا : هذا مالك أنت ، ولا نرضى أن نأخذ منه شيئاً ، جزاء بما خلصناك ونجيناك . فإن ما نملك من أموال وأنفس فداء لك ، فإذا يسر الله لك وصرت ملكاً فسنكون جنودك الذين يجاهدون فى سبيل الله بأمرك ، وحينئذ نأخذ منك العطايا من مال وخيل ، وهذا ما نقرؤه فى الكتب القديمة التى بأيدينا ، فشكرهم بيبرس ورد إليهم أموالهم ، فأقسموا بالله أنهم لا يأخذون منها قليلا ولا كثيراً ، وقد أثنت عليهم السيدة فاطمة الثناء الجميل ، وشكرتهم شكراً جزيلا ، ثم سلموا وودعوا ، وخرجوا إلى أسوار المدينة فتخطوها إلى الخلاء ، حيث ينتظرهم أتباعهم بالركائب ، فركبوها إلى ديارهم .

أما السيدة فاطمة فإنها جلست إلى ابنها بيبرس وسألته : أين كنت يا بنى ؟ وماذا لقيت فى غيبتك ؟ فقال : كنت أود أن أقص عليك

كل شيء ، ولكن إخوتى عاهدونى على ألا أذكر شيئًا عن المكان الذى كنت فيه ، وستمر الأيام وينتشر الكلام ، فدعينا هذه الساعة من تلك المسألة . ثم أبدى رغبته فى النوم ، فانصرفت عنه السيدة فاطمة ، ونام شاكراً لله فضله وكريم إحسانه . وأقام عند أمه فى هناءة وعزة .

٩

جلس الملك الصالح يوماً فى ديوانه بقلعة الجبل ، وقد كمل معه جمع من الوزراء والحجاب والنواب والإخوان ، فقال الوزير شاهين : يا مولانا السلطان ، نريد أن ترسل رجلا من أولاد عمك يجمع الخراج من الشام فقال : انظر لنا الآن فيمن يقوم بجمع الخراج ، فنادى الوزير فى هذا الجمع وقال : من يريد منكم أن يقوم بجمع الخراج من بلاد الشام ؟ فوقف ابن عمه نجم الدين البندقدارى . فقال له الملك : أخشى عليك أن تسير بالأموال فى الأودية وبين الجبال . فقال : أحببت القيام بهذا العمل ، لأن لى فى بلاد الشام حاجة أخرى سأقضيها ، فقال : وما حاجتك يابن العم ؟ فقال : لزوجتى السيدة شهوة أخت بدمشق تسمى السيدة فاطمة القوسية وهى كريمة متدينة ، وقد توفى ابنها ، ودو واحدها ، فلم ترزق غيره . وقد رغبت زوجتى أن تسافر إلى أختها ، لتعزيتها وتخفيف آلامها ، فخشيت عليها من السفر ومتاعبه ، ووعدتها أن أسافر إلى أختها بدلا منها ، وتلك حاجتى من بلاد الشام . فلما سمع الملك هذا الكلام قال : إذا وصلت فأدخل الطير فى القفص ، وأزل عنه الغصص وتلطف به ، وضع له الزاد والماء ، ولا تحرمه من أى شىء . فقال نجم الدين : أى طير تعنى يابن العم ؟ فقال الملك : الله ، الله ،

يا نجم الدين ، وما الفائدة إذا أنت جئت بالطير ، وجعلته لنفسك ، وخبأته فى بيتك ؟ ولكن يابن العم ، وعزة الربوبية ليظهرن ظهور الشمس وليكبتن حاسديه ومبغضيه ، وليعلون شأنه على الطيور ، وليكونن ذا عمل مشكور ، وذكر مشهور . فقال نجم الدين : يابن العم ، ما فهمت من هذا الكلام شيئاً ، فقال الملك : إنى رجل مأخوذ فى حب الله ، فلا تؤاخذنى بما أقول . وصل على طه الرسول .

والتفت إلى وزيره شاهين وقال : قد أجبت نجم الدين إلى ما طلب فولّه الأمر وهيىء له أسباب السفر ، فصدع الوزير بأمر مليكه ، وألبس نجم الدين قباء ولاية الخراج . وأعطاه كتب هذه الولاية إلى نواب البلاد .

ورجع نجم الدين إلى بيته ، فسألته زوجته عن أمر هذا القباء الذى لبسه ، فقال : ولاّنى الملك جباية الخراج فى بلاد الشام ، فقالت : لا تنس أن تزور أختى السيدة فاطمة ، وأن تخفف عنها ما تقاسيه من الأحزان لفقد وحيدها ، وأن تعتذر لها عنى ، والله معك حتى ترجع إلينا فى سلامة وعافية . فقال لها : ما طلبت السفر إلى الشام لجباية الخراج إلا من أجل أختك ، والقيام بواجب عزائها ، والله يمنحنا الهداية والتوفيق .

ركب نجم الدين فى حاميته من العساكر ، وسار يطوى القفار حتى نزل بعساكره أمام دمشق ، وأرسل إلى عيسى نبأ قدومه ، وعرفه

بنفسه ، وما جاء من أجله . فتلقى عيسى هذا النبأ بفتور ولم يظهر أى اهتمام به ، وقال : غداً أذهب إليه وأسلم عليه .

انتظر نجم الدين عيسى أو نائبه أو أحداً من قبله فلم يأته أحد ، فعجب وقال : لا بد لهذا الأمر من سبب ، وستظهره الأيام .

وذات يوم جلس بيبرس فى بيت أمه . والمماليك من حوله ، فدخل علىٌ القوسى على أخته فاطمة ، ومكث معها فى حجرتها ساعة ، ثم نزل وعلى وجهه أمارات الحزن والغضب ، فناداه بيبرس ، وأجلسه معه ، وسقاه شراباً حلواً ، وتلطف له فى القول حتى سكن غضبه ثم قال له : طلعت إلى أختك فرحاً ، ثم نزلت غاضباً ، فهل لذلك من سبب ؟ فقال :

أقبل من مصر إلى دمشق نجم الدين البندقدارى ، وهو زوج أختى وأختها السيدة شهوة ، فأمر عيسى شرف الدين الرجال والأعيان أن يأخذوا زينتهم ويصحبوه غداً لمقابلته والتسليم عليه ، ثم الدخول معه إلى دمشق ، وقد جئت أختى أستعير منها بذلة تليق بى فقالت : لا أملك التصرف فى أمر من الأمور ، إلا إذا كان ذلك باطلاع ابنى بيبرس ورضاه ، فاذهب إليه . واعرض رغبتك عليه ، فإن أعطاك فبرأيه ، وإن منعك فبأمره ، فصعب علىّ قولها ونزلت من عندها غاضباً .

تبسم بيبرس ضاحكاً وقال : لا يغضبك ما سمعت من أختك ، فنحن وما ملكت أيدينا ملك لك ، واعلم أنها ما قالت لك ذلك إلا

لأنها تعلم أنى لا أرد لك سؤالا ، فَسَلْ ما شئت واطلب ما أردت .

ثم جلسا يتحدثان حتى غلبهما النوم ، فناما حتى الصباح .

أمر بيبرس غلمانه أن يدخلوا علياً الحمام فصدعوا بأمره ، أما هو فقد ذهب إلى الصناديق وأخرج منها بذلة الأمير حسن القوسى والد علىّ ، وانتظر بها فى حجرة الجلوس ، فلما خرج من الحمام وجاءه ناوله البذلة وقال : هذه بذلة أبيك ، فخذها منى هبة كريم لا يرجع فى عطائه .

لبس علىّ البذلة وتقلد سلاحه ، ثم أقبل على بيبرس فملأ به أحضانه وقبله فى رأسه وقال : جزاك الله خيراً ، ولقد أحسنت أختى فاطمة إذ اتخذتك ابنها ، وملكتك أموالها ، فأنت أهل لذلك وأكثر ، فقال بيبرس : إنى خادمك فرنى بما تشاء .

أمر بيبرس « الركبدار » أن يجهز له جواد سرجويل ، وأن يجهز لعلى جواداً كريمًا آخر ، وكان بيبرس جميل المحيا ، وضيء الطلعة ، وأخذ معه اللت الدمشقى ، وسار إلى جانب على القوسى ، وخرجا من أبواب المدينة .

وبعد قليل حضر عيسى شرف الدين فى موكبه ، وأقبل إلى نجم الدين البندقدارى فسلم عليه وقبل يده ثم جلس إلى جانبه .

وبعد أن تبادلا عبارات التحية قال عيسى : اعلم يا نجم الدين أنك ما جئتنى إلا وأنا فى حاجة إليك ، وهأنذا أستغيث بك أن تدفع

عنى ما يحيق بى من شر وبلاء ، فقال نجم الدين : وأى شر ذلك الذى أفزعك ؟ فقال عيسى : أصبت فى هذه المدينة بغلام شديد البأس ، شرس الأخلاق ، لا يترك خطيئة إلا ارتكبها علانية ، أقلق الأمن . وأزعج الناس . وقد أعيانى أمره ، وعجزت عن تأديبه والوصول إليه ، فإذا قتلته أرحتنا منه ، وكان لك أجر عظيم عند الله ، ذلك الغلام هو بيبرس . فقال نجم الدين : إنك الآن مدع ، فعليك أن تثبت صحة ما تقول بالدليل والبرهان ، ولا بد من أن يشهد أناس أخيار طيبون بصحة ما تقوله ، فإذا ثبتت صحته فسأريحك وأريح الناس من شره . فقال عيسى : بسوف ترى منه العجب فى أيامك هذه ، وأرجو من الله أن يجعلنى من الصادقين . فما أتم كلامه حتى أقبل خادمان من رجال نجم الدين البندقدارى يحملان قتيلا . فوضعوه بين يديه وقالوا : عوضك الله خيراً فى هذا السايس ، فقال نجم الدين : ومن الذى قتله ، ودامس كرامتى واعتدى على رجالى ؟ فقالوا : قتله غلام اسمه بيبرس . فالتفت إلى عيسى وقال : كيف يعتدى على رجالى ويُقتل واحد منهم فى بلدك ؟! فقال : الحمد لله الذى لم يكذبنى عندك ، وقد حدثتك عن هذا الغلام وأظهرت سوء فعاله ، وقد بان الحق وثبت صدق بقتله رجلاً من رجالك .

فغضب نجم الدين وقال : علىّ بهذا الغلام ، فأسرع إليه الخدم ، ووجدوه جالساً هو ورفقاؤه ، فلم يقدر أحد منهم أن يطلبه أو يقترب

منه ، فما سبب ذلك ؟

كان بيبرس ذا مهابة فى الناس ومحبة واحترام ، لأن بأسه شديد ، ومهارته فى القتال لا تصل إليها مهارة بطل من الأبطال ، ولأنه كريم مبسوط اليد فى البذل والعطاء ، ولأنه كريم السجايا . عظيم الأخلاق ، حلو الشمائل . سامى الرجولة . ولأن الخدم الذين ذهبوا فى طلبه شاهدوا وهم يطلبونه هذه الحادثة الآتية :

قدم رجل يقال له العرند إلى بيبرس وهو جالس مع رفقائه للفرجة ، فجلس معهم قليلا ، ثم قال لهم : تعالوا معى إلى مكانى الذى أقيم فيه لتكونوا إخوانًا لى ، ولآخذكم إلى أرض مصر معى ، وإن أحببتم أن تعيشوا معى فذلك خير لكم ، وكان هذا الرجل يقيم فى إصطبل الرياضة الخيل ، فعجب بيبرس ودهش لهذا القول وقال : وماذا يفيدك يا والدى إذا مضينا معك إلى إصطبلك وليس فينا من يروض الخيل ، أو يعرف شيئًا عن تربيتها ، كما لا نجد فينا خدمًا ولا غلمانًا ، فقال : قم معى أنت وحدك ، وأنا أعلمك ما ينفعك من شئون الخيل ، وستكون فى حمايتى ورعايتى ، فأدرك بيبرس أن هذا يحتال لأخذه . ليوقعه فى شر لا يدرى مداه ، أو ليسوقه إلى حاسد من أعدائه ليفتك به . فقال له : دع المجون وامض إلى شأنك ، فقال العرند : أطعنى فيما أقول وإلا أخذتك رغم أنفك ، فقال بيبرس : إنك الآن تسعى إلى حتفك ، فاحفظ نفسك وامض لسبيلك ، فقال العرند : لا مفر لك منى ولا بد من أخذك معى ،

فرفع بيبرس يده باللت الدمشقى وضربه فى رأسه فهوى العرند مَغْشِيًّا عليه وهو لا يهتم بشىء مما حصل . فحمله الذين كانوا فى صحبته من الخدم ، ووضعوه بين يدى نجم الدين البندقدارى وقصوا عليه قصته. فغضب وقال : على بهذا الغلام .

لم يجرؤ أحد ممن جاء يطلبه إلى نجم الدين أن يدنو من مجلسه خوفاً منه ، فوقفوا فى مكان بعيد وقالوا له : أيها الأمير ، أجب دعوة نجم الدين البندقدارى ، فإنه يطلبك ، فقال لهم : سيروا قدامى وأنا أتبعكم وأسير من خلفكم ، فقالوا : ولم لا تسير معنا ؟ فقال : إن لم يعجبكم قولى فارجعوا أنتم . وسأمضى إليه وحدى . وإن لم يعجبكم هذا أيضاً قمت إليكم وهشمت رءوسكم غير عابئ بكم وبأمثالكم وبسيدكم ، فساروا أمامه وهم خائفون حتى وصلوا إلى نجم الدين وقالوا : ها هو ذا بيبرس قد أقبل ، فقال : وكيف جئتم به ؟ فقالوا : دعوناه إليك فأجاب ، ولكنه أمرنا أن نسير قدامه وهو من خلفنا كأنه الراعى ونحن أغنامه ، حتى جئنا إليك .

دخل بيبرس على نجم الدين وسلم فرد عليه السلام ، ثم قيل له : هذا الغلام الذى ضرب السايس ، فقال عيسى : والله يا سيدى لا جزاء له إلا القتل ، ليستريح الناس من شره ، فقال نجم الدين : أأنت الذى ضربت السايس ؟ فقال بيبرس : نعم . فقال له : ولماذا ؟ فقال : إنه فعل كذا وكذا وحكى له قصته . فقال نجم الدين : لقد نمى إلىّ

أنك فاسق فاجر تفتك بالناس وتقتلهم ظلماً وعدواناً . ثم قال : خذوه إلى النطع وكتفوه حتى يصدر أمرى بقتله .

فلما فعلوا به ذلك أقبل فى الحال علىّ القوسى إلى السياف الذى ينتظر الأمر بقتل بيبرس . فأخذ السيف من يده ، وتقدم إلى بيبرس فحل وثاقه ، ورفع العصابة عن عينيه . وجاء به إلى نجم الدين . فقال له : لم فعلت هذا ياعلىّ ؟ فقال علىّ : إنك إن قتلت هذا الغلام ، لم تستطع أن تطأ بقدمك أرض الشام . وما هنىء لك فيها طعام ولا شراب ولا نوم . فعجب نجم الدين وقال : كيف يكون ذلك ، وأنا لى فى دمشق أهل وإخوان ؟! فهنا بيت فاطمة القوسية أخت زوجتى ، وأنا ما جئت دمشق فى جباية الخراج إلا من أجلها . فقال على : إنك لا تقدر أن تدخل عليها فى بيتها ، فقال : وكيف ذلك . وأنا ما جئت إلا لأعزيها فى ولدها ووحيدها فقال علىّ : أتريد أن تقتل ابنها بيدك . وتمضى فيه حكمك . ثم تعزيها فى فقده ، فيصدق فيك المثل السائر : يقتل القتيل ويمشى فى جنازته . فقال نجم الدين : ماذا تقصد بقولك هذا ؟ أطلعنى على حقيقة الأمر . فقد أصبحت فى حيرة . وحل قولك فى نفسى محل العناية والاهتمام . فقال على : اعلم يا سيدى أن الأمير بيبرس ابن أختى السيدة فاطمة القوسية ، فقال نجم الدين : أهذا الغلام بيبرس ابن السيدة فاطمة ؟ قال : نعم ، فقال نجم الدين : لقد أراد عيسى الناصر أن يوقعنى فى المهالك بخديعته ومكره . ولكن أحمد الله الذى حفظنى وحمانى ، وإنى

لأفتدى ابن السيدة فاطمة بمالى ونفسى ، وإنى سائلك : ما رأيك فيما فعله بيبرس ، وما حكاه عنه عيسى ؟ فقال : تطلق سراح الأمير بيبرس ، وترجئ الفصل فى قضيته إلى الغد ، وتأمر المنادى ينادى فى دمشق أن يجتمع الناس عقب صلاة الظهر من الغد فى الجامع الكبير ، جامع بنى أمية ، ليشهدوا النظر فى قضية بيبرس والحكم فيها ، ثم يقف بيبرس وعيسى بجانبه ، وتقام الدعوى ويشهد الناس فيها عليهما ، وحينئذ يظهر الحق وينال الظالم جزاءه .

اطمأن نجم الدين إلى مشورة علىّ وأمر بتنفيذها ، وتلقى بيبرس فى أحضانه ، وأجلسه بجانبه ، وأرجأ النظر فى قضيته إلى الغد ، ثم أمر بدفن العرند ، فحملوه ودفنوه . ثم انفض المجلس ، وعيسى تضطرم نفسه غماً وفزعاً .

وفى الغد ذهب نجم الدين إلى جامع بنى أمية واجتمع فيه خلق كثير ، فصلى بهم نقيب الأشراف الظهر ثم عقدت جلسة القضاء والحكم على مشهد من هذا الجمع الذى امتلأ به الجامع .

وجئ بعيسى وبيبرس فوقفا أمام قاضى الإسلام ، وقال القاضى : ماذا تدعى يا عيسى ؟ فقال : أدعى على هذا الغلام بيبرس أنه قتل خمسة وثلاثين من أولاد الشام ، وقتل سعيداً الحبشى الركبدار الذى هو من سلالة بلال مؤذن النبي عليه السلام ، وعاث فى البلاد فساداً ففسق وفجر ، وانتهك حرمة الإسلام بما يعمله من الآثام . فقال القاضى : يا أهل

الإسلام والصدق والإنصاف ، هل ما يدعيه عيسى صحيح ؟ فتقدم نقيب الأشراف وقال : ما علمنا على بيبرس من سوء ولا فساد ولا خطيئة ، وهو أشرف من عيسى عملا وقولا ، وأعظم منه منزلة وقدراً ، وأقوى منه ديناً وأكرم خلقاً ، وما فعل عيسى معه هذا إلا حسداً وحقداً ، وحق الواحد الأحد ، ما شهدت إلا بالحق ، وما نطقت إلا بالصدق .

ولما انتهى نقيب الأشراف من شهادته أيدها الحاضرون من العلماء والتجار والأعيان وغيرهم ، وثبتت براءة بيبرس ، وباء عيسى بالخزى والفشل . وقال عيسى ليخفى خزيه : لقد أثار بيبرس العدو علينا وحمله على غزونا وقتالنا ، ولولا أنى لقيته بجندى وأكرهته على الفرار من وجهى لقتل العباد وملك البلاد ، فقال أهل دمشق : هذا القول زور وبهتان ، وما أفنى العدو وطرده إلا بيبرس وحده ، ولولاه لهلك عيسى ومن معه ، وأصبحت الديار فى قبضة الأعداء ، ولقد أخرجه عيسى من دمشق وأغلق أبوابها من خلفه ، وتركه يحارب الأعداء دون أن يقدم إليه أية معونة ، وبيبرس هذا هو الذى فتك بالعدو وانتصر عليه ، ورجع ومعه الأسلاب والمغانم ، وقد وزعها على الفقراء والأرامل والأيتام ، أما عيسى فهو غصة فى حلق الإسلام وحجر عثرة فى طريق المسلمين . وخرس عيسى فلم ينطق بكلمة أمام هذا الحق المبين . فقال نجم الدين : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد غررت بنا يا عيسى ، وكذبت على الله وعلينا ، إرضاء لحقدك وحسدك ، وخدعتنا حتى أوشكنا أن نقتل

نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقد أصبحت الآن لا تصلح اولاية أمور الناس . ثم أمر بحبسه فى مكان مظلم كظلام قلبه ، وضاع تدبيره ومكره سدى .

ظهرت براءة بيبرس فأحبه نجم الدين ومنحه حلة سنية ، وأخذه معه إلى السيدة فاطمة القوسية، وكان الخدم قد سبقوهما وأخبروها بقدومهما ، فاستقبلتهما بباب دارها ، وأجلستهما فى حجرة الجلوس من بيتها ، وقدمت ما لديها من ضروب الإكرام والتحية ، ثم عزاها فى والدها ، ثم باتوا فرحين بما أسبغ الله عليهم من التوفيق والهداية .

وفى الصباح ذهب نجم الدين ومعه بيبرس إلى ديوان الحكم ، وكمل مجلسه بالعلماء والقراء والأعيان . فأمر بإحضار عيسى من سجنه ، فلما حضر قال : خذوه إلى النطع وليننتظر السياف أمرى فيه ، فارتعدت فرائص عيسى ، وخارت قواه ، وقال فى مسكنة : أجرنى يا بيبرس ، أنت كريم والكريم قريب الصفح ، اشفع لى يا بيبرس ، أنت شجاع والشجاع يعفو عند القدرة ، احمنى يا بيبرس ، حماك الله من كل شر وبليـة .

تقدم بيبرس إلى نجم الدين وقال : لقد استجار بى ، ومن كرم النفس أن أكون عند حسن ظنه ، فاقبل شفاعتى فيه واصفح عنه ، فعجب نجم الدين وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، يريد قتلك وتريد سلامته ، فقال : الصفح من شيم الكرام ، وعلى الباغى تدور الدوائر . فتبسم

نجم الدين وقال : قبلت شفاعتك ، وعفوت عنه . فنهض بيبرس إليه وأطلقه وقال : احفظ هذا المعروف يا عيسى ولا تجحده ، فقال عيسى : لا يجحد المعروف إلا لئيم ، وكفانى ما حل بى من الخزى والهوان ، وقد نجيتنى من الموت بفضلك مرتين . وان أنسى لك هذا الفضل ما حييت ، فأنت أحب إلىّ من نفسى وأكرم .

رضى نجم الدين عن عيسى ، وأجلسه بجانبه وطلب منه الخراج ، فقال : سمعًا وطاعة .

وكان يختلف إلى السيدة فاطمة كثير من العجائز ، فتكرمهن . وتتصدق عليهن ، فجاءتها عجوز وقالت لها : الحمد لله الذى نجّى ولدك ولم يفجعك فيه ، وصرف عنه السوء الذى كاد يقضى عليه ، فقالت لها : حمداً لله فى كل آونة ، ولكن ماذا تقصدين بهذا الكلام ، وما رأيت على ابنى سوءاً فى هذه الأيام ؟ فقالت العجوز : أما بلغك ما حصل ؟ ! لقد جرى على ابنك كيت وكيت ، وقصت عليها قصته مع نجم الدين ، ولم تترك منها شيئًا . وكانوا قد أخفوا عليها الحادثة ولم يبدوا لها شيئًا منها إشفاقًا عليها ، ففزعت السيدة فاطمة ، وذهبت إلى نجم الدين ، وسألته عما أفضت به العجوز ، فأكد صدقها وأعاد عليها القصة كما قالت : فنظرت إليه ، وقالت : والله لو نفذ فيه حكمك لطلبتك بدمه ، وشكوتك إلى الملك الصالح . فقال : الحمد لله الذى عصمنا من الخطأ ، وأظهر الحق ، ونجّى ولدك .

١٠

وذات يوم سأل بيبرس نجم الدين عن مصر ، فقال : هنيئاً لمن سكن فيها ، وأظلته سماؤها ، وسقاه نيلها ، لم يخلق مثلها فى البلاد ، ففيها المساجد وفيها الأهرام التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وفيها العلماء والأدباء والشعراء . وأهلها على جانب عظيم من الخلق الكريم . فعلق بحبها فؤاد بيبرس وقال : سألتك بالله يا سيدى أن تأخذنى إليها معك ، فقال : مرحباً بك يا ولدى ، وإن شئت فجهز عدتك للرحيل ، فإنى متى جمعت الخراج سافرت إليها على جناح السرعة . فشكره وقال : سمعاً وطاعة .

وقال بيبرس لأمه : لى عندك حاجة أروم قضاءها ، وإن كنت أشعر أنها عليك ثقيلة ، فقالت : لا أشعر يا ولدى بثقل من حاجة ترومها وتبغيها ، فما حاجتك ؟ فقال : لى رغبة فى السفر إلى مصر مع زوج خالتى نجم الدين ، ولأفرج عن نفسى بالإقامة فيها ، والاطلاع على آثارها . وسأعود إليك بعد مدة قصيرة إن شاء الله ، فجزعت لما أبداه من رغبته وقالت : ما مصر إلا بلد كبقية البلاد ، وما أنت فى حاجة إلى أن تحمل نفسك مشاق السفر ومتاعبه ، دون غرض تنشده من جهاد فى سبيل الله ، ودفع شر عن الإسلام والمسلمين ، فقال : ولكن الرغبة فى السفر إليها مُلِحَّة ، ولست متوقعاً منها مكروهاً ، وما دمت راجعاً إليك

بعد أيام فامنحيني رضاك ، وائذني لى فى السفر إليها مزوداً بدعواتك الطاهرة . فقالت : ما أغراك وحبب إليك الارتحال إلا نجم الدين ، وليته ما وطىء بقدمه أرض الشام ولا أرانا طلعته ، فقد أتانى معزّياً فى ابنى الذى فقدته ، فحرمنى من ابنى الذى وجدته واصطفيته ، فقال نجم الدين – وكان حاضراً – سألنى ابنك عن مصر فما قلت إلا أن سماءها مشرقة صافية الأديم ، ونيلها عذب نمير ، وفيها قبور الأولياء والصالحين ، وآثار أسلافنا الأولين ، وعلية القراء والعلماء والأدباء الأكرمين ، وما كنت أبغى إلا صدقى فى الإجابة ، وما دار بخلدى أنه سيشغف بها ويرغب فى السفر إليها ، فضربت كفاً بكف ، وقالت : لاحول ولا قوة إلا بالله ، سبحان من جعل لكل شىء سبباً ، ولكل أجل كتاباً ، لوكنت يا ولدى مصرًّا على الرحيل فخذ جميع الملابس والسلاح ، وما تستطيع حمله من الأموال ، لتكون عوناً لك فى غربتك ، وسأمدك بما تطلبه فى أقرب فرصة ، وإنى أسأل الله القدير ألا أراك إلا قائداً مظفراً ، تحكم البلاد وتقيم موازين العدل بين العباد ، فقال : تقبل الله منك الدعوات ، وأرانى وجهك الكريم فى أسعد الأوقات ، وردنى إليك بالخير الذى تقرّ به عيناك . وقالت السيدة فاطمة : يا نجم الدين ، أوصيك بابنى خيراً ، وإياك أن يسىء إليه أحد ، أو يجرى على يديك أو يدى أختى ما يغضبه ويكرهه ، وقد سلمته إليك صادقة النية ، وجعلت وكيلى ربى الذى لاتخفى عليه خافية ، فقال : سيكون لأختك نور العين ومسرة الفؤاد .

وليس له عندى إلا كل ما يحبه ويرضاه . فلتطب نفسك ، وليطمئن فؤادك ، فلن يكون إن شاء الله إلا ما يسرك ، وقالت لابنها : إن وجدت تغييراً فى شأنك ، أو سآمة من مقامك ، أو شممت ريح أذى سيأتيك من أية ناحية فارحل إلىّ من ساعتك ، ولا تنتظر هناك طرفة عين ، واحذر أن تهمل الكتابة إلىّ من حين إلى حين ، واجعلنى على علم بما يجرى عليك كل آن ، فإنى أمك التى لا تهنأ لها حياة إلا بك ، فقال : سمعًا وطاعة ، ثم سلم عليها وقبل يديها ورحل ، بعد أن جمعت له الأموال والأسلحة ، ثم وضعتها فى الصناديق وأغلقتها ، ووضعت مفاتيحها فى صندوق صغير أقفلته ، وأعطته مفتاحه وودعته بالدعوات الطيبة الطاهرة .

عرف الغلمان الذين نقلوا الخراج أن نجم الدين سيصحبه بيبرس إلى مصر ، وأن أكابر دمشق وأعيانها قد شملهم الحزن الأليم لسفره وارتحاله ، وأخبروا عيسى بذلك ، فأشرق وجهه وقال : الحمد لله الذى أخرجه من أرضنا ، ولا ردّه الله علينا ، ولا أرانا له وجهًا ، وسأقيم حفلة يتلى فيها القرآن العظيم ، ومولد النبي الكريم شكراً لله الذى طهر من بيبرس البلاد ، وشرح بفراقه أفئدة العباد .

وفى يوم الرحيل أعطت السيدة فاطمة نجم الدين علبة صغيرة مقفلة ، ووصته ألا يفتحها إلا أمام أختها زوجته السيدة شهوة ، وولدها بيبرس ، وكان عيسى قد أقام الزينات فرحًا ، وحضر ليودع نجم الدين .

بدأ الركب السير ، والتف رجال البلدة حول بيبرس يودعونه وهم من

أجل فراقه آسفون ، وبعد فرسخين من المدينة سلموا عليهم السلام الأخير ،ورجع أهل دمشق ، واستمر الركب سائراً حتى شعر بالتعب فحط فى طريقه للراحة والجمام ، وكان ذلك عند الغروب ، وبعد مسيرة أيام .

أطلت من السماء النجوم الزواهر ، ونامت أعين الركب الفواتر ، وجعل الليل يمضى فى سكون شامل لا تحس فيه حركة ولا همساً ، وبيبرس لم تغمض له عين ، ولم يطرق جفنه رقاد ، وجعل يتخلل الركب ويطوف به سهران حارساً، فسمع ثلاثة من القاطرجية يتحدثون خفية، فقال أحدهم لصاحبه : ألا تعرف السر فى أن الأمير نجم الدين أمرنا أن نغير الطريق ، فنترك السهل القريب ، إلى الصعب الطويل ؟ فقال الآخر : إنه ذكر السبب غامضاً غير مفهوم فقال : إن ذلك لأمر جسيم وخطب عظيم لا تعرفونه ، واحذروا أن يعرف بيبرس أنكم ستغيرون الطريق ، فقال صاحبه : ألم تفهم شيئاً من قوله هذا ؟ فقال الآخر : لعله يخشى أن يلقاه عدو فينهب الأموال ويقتل الرجال ، فانتقل بنا إلى حديث آخر ، ودعنا من هذا الحديث الذى لا نعرفه ولا يعنينا أمره ، مخافة أن يسمعنا أحد ونحن نخوض فيه ، فما أتم كلامه حتى كان بيبرس أمامهم وقال : السلام عليكم ، فوقفوا إجلالا له ، وردوا السلام ، وانتظروا ما يأمرهم به ، فقال : ماذا كنتم تقولون ؟ فقال أحدهم : إن أخى يود أن نسير بالليل ، ونهجع بالنهار ، حتى نتقى لفح الشمس وحرارة الجبال ، فقلت له : ومن الذى يستطيع أن يتحدث فى ذلك إلى

نجم الدين ، وهذا حديثنا الذى كنا نخوض فيه . فتبسم بيبرس وقال : لقد سمعتكم تقولون غير هذا القول ، وسرده عليهم كما كانوا يتحدثون ، ثم قال لهم : لا تخافوا ، واعلموا أن ما تحدثتم به سيبقى طى الكتمان ، ولن يعرف أحد عنكم شيئًا ، ودلونى على الطريق ، وبينوا لى الصعب منها والسهل ، والقصير والطويل ، والمطروق الممهد وغير المطروق الذى لم يمهد ، واطمئنوا بعد ذلك على أنفسكم فلن يقدر أحد أن يؤذيكم ما دمت معكم . فقالوا : عند المفترق الذى نحن قادمون عليه طريقان : طريق جهة اليمين وهو الممهد المطروق القريب ، وطريق جهة اليسار وهو الصعب الوعر البعيد الذى لم يطرق ، فقال بيبرس ، ولأى شىء أمركم نجم الدين أن تستبدلوا بالطريق المستقيم طريقًا معوجًا ؟ فقالوا : نجيبك على سبيل الحدس والظن ، ولا ندرى أهو السبب الحقيقى أم غيره ؟ فإن على الطريق المستقيم الآمن قلعة حصينة ، وبها ملك من الصليبيين يقال له إفرنجيل ، له ضريبة من المال يأخذها من كل سالك وعابر ، وإن امتنع السالكون عن إعطائه تلك الضريبة نهب أموالهم وفتك برجالهم ، وشردهم فى القفار ، ولعل نجم الدين خاف من هذا الملك فغير الطريق ، وأمرنا أن نسلك بالركب طريقًا آخر وإن كان صعبًا وطويلا ، فقال : إذا وصلنا إلى المفترق وقف أحدكم على رأس طريق، ووقف الآخران على رأس الطريق الآخر ، ثم أشرتم إلى من طرف خفى ، ودللتمونى على الطريق

المستقيم ، وبعد ذلك اتركونى وشأنى ، وذلك ما أريده منكم ، فقالوا : سمعًا وطاعة ، ثم منحهم شيئًا من المال وقال : وأريد منكم أن تجمعوا لى ملء هذا الصندوق حجارة ، وتأتونى به ، فإنى أريد أن أصنع منها شيئًا ينفعنى فى مصر ، فملأوا له الصندوق بالحجارة وأحكم إغلاقه ، ثم تركهم وحفظ الصندوق عنده .

سار الركب حتى كان عند مفترق الطرق، فأشار الرجال إلى بيبرس وفهم منهم أنهم سيعرجون على الطريق المعوج الصعب الذى أراده نجم الدين ، فصاح بيبرس قائلا : ويلكم !.! لماذا تتركون الطريق السهل ، وتسلكون بنا طريقًا صعبًا معوجًا نقاسى فيه متاعب السفر وطول أيامه ؟ ! فقالوا : أمرنا نجم الدين أن نسير فى هذا الطريق الصعب ولا نستطيع أن نخالف له أمراً ، فقال : سيروا فى هذا الطريق المهد المطروق ، وسآتيكم بالأمر من عنده ، وكان ذلك على مسمع من نجم الدين فقال : اعلم ياولدى أن هذا الطريق سهل على سالكه ، ولكنّ عليه ملكاً من ملوك الإفرنج ينهب الأموال ويقتل الأنفس ، إن لم يشبع أطماعه بما يأخذه من أموالهم أجرة الخفر وحراسة الطريق . فقال بيبرس : إن كنتم قد تعودتم أن تعطوه أجرة الخفر فلا مانع من إعطائه إياها ، فقال : ما اعتدنا إعطاء شىء ، ونحن نخشى منه على أموالنا وأنفسنا ، فقال بيبرس : سأعطيه من مالى مايطمع فيه ، ولا أكلفكم شيئًا ، ودعونا نسير فى طريقه ، فقال نجم الدين : إذن فسيروا فى الطريق الذى يريده بيبرس .

ولما قربوا من قلعة الملك أفرنجيل قال بيبرس لنجم الدين : انج أنت بنفسك وركبك والأموال ، وسأكون أنا وعشرة من الغلمان الفوارس وهذا الصندوق من ورائكم ، وجدّوا أنتم فى سيركم ولاتنتظرونا ، فإنا سنتأخر عنكم قليلا ، فإذا اعترضكم أتباع الملك وطلبوا المال منكم فقل لهم : إن صاحب المال فى أعقابنا وقد أعدّ لكم أجرتكم فحاسبوه وخذوها ، وظن نجم الدين أن هذا القول حق فمضى سائراً والركب معه .

وكان للملك إفرنجيل ولد يسمى قمطة ، وهو خبيث ماكر شرير كثير الفساد كثير الإسراف إلى الحد الذى أعجز والده ، فترك لابنه هذا جباية أجرة الخفر من السابلة ، وفرح ابنه قمطة بذلك ، وأخذ أتباعه ووقفوا على جانب الطريق وجعلوا يأخذون الأجرة من كل سالك وعابر ، ومن امتنع عن دفعها نهبوا ماله وأصابوه بضرهم وأذاهم .

ومر نجم الدين وركبه بهم فاعترضوه وطلبوا منه الأجرة فقال لهم : ليس لنا فى هذه الأموال دينار ولا درهم ، وما نحن إلا رجال صاحبها ، وهو قادم فى أعقابنا ، ومعه ما تطلبونه من المال أعده لكم ، فصدق قمطة وأمرهم بالمسير ، ولبثوا ينتظرون صاحب الأموال .

وأقبل بيبرس ومعه الصندوق والغلمان ، فصاحوا به : أن ادفع أجرة الخفر ، فقال : وهل مر بكم رجالى ومعهم أموالى ؟ فقالوا : مروا بنا ، وأذِنَّا لهم بالمسير ، وانتظرنا قدومك ، فأعطنا الأجرة ، فقال : ومن الذى سيحاسبنى ويأخذ الأجرة ؟ فقال قمطة : أنا الذى سآخذها ، وأنا قمطة

ابن الملك إفرنجيل ، فقال بيبرس : مرحبًا بك يا سيدى وأهلا ، وما دمت ابن الملك فأنت عندى ذو دين وعلم ووفاء ، فخذ هذا الصندوق واذهب به إلى بلدك ، ثم افتحه وخذ منه أجرتك ، واحفظ الباقى لى أمانة عندك ، حتى آمر بك فى المرة المقبلة . فإنى عجل من أمرى ، وأنت عندى تؤمن على أكثر من هذا المال الذى فى الصندوق ، وأرجو ألا يقرب الصندوق أحد غيرك ، حتى لا تصل إليه يد خائنة آثمة .

فرح قمطة وانطلى عليه المحال ، وانطلق به إلى بلده ، وهو عازم على ألا يرد منه شيئًا إلى صاحبه ، وانفتح الطريق أمام بيبرس فانفلت مسرعًا ليلحق الركب .

دخل قمطة ديوان أبيه فسلم وجلس ، فقال أبوه : هل أتيت بأجرة الخفر ؟ فقال : أتيت بأجرة ما حصلت أنت مثلها وما خطرت ببالك ، فهو صندوق مقفل مملوء بالمال ، فقال أبوه : ما حصلت مثله أبداً ، فمن الذى أعطاك إياه ؟ فقص عليه قصة الصندوق ، فسأله أبوه عن مفتاحه فقال : طلبته من صاحبه فقال : إنه نسيه مع الركب الذى سبقه ، وقد عزمت على أن أغالطه ، وأخبره أنه لا فضل من المال عندى له ، فقال أبوه : أودّ أن تفتحوا الصندوق الآن لتطمئنوا على ما فيه من الأموال ، فإنى أخشى أن يكون فيه شىء ثقيل غير المال ، فقال قمطة : لقد أقسم علىّ صاحبه ألا تمتد إليه يد أحد غيرى ، كل أولئك والصندوق أمامهم ، فأمر الملك أن يحضروا النجار ، فلما حضر قال له : افتح هذا الصندوق

ولا تكسر منه شيئاً لأنى أريد أن أعيده مقفلا كما كان ، وعالج النجار فتحه فانفتح ووجدوه مملوءاً بالحجارة ، وليس فيه درهم واحد . فقهقه الملك قهقهة ساخرة وقال : هذا ذهب أحمر لا مثيل له ، ولم أحصل مثله فى حياتى ، وستأكل يا بنى الباقى منه على صاحبه بعد أن تستوفى أجرتك ، فغضب قمطة وجعل يسب صاحب الصندوق ويشتمه ، وأقسم أن يلحقه ويقطع رأسه ، وينهب أمواله ويشتت من نجا من القتل من رجاله ثم ركب فى خمسمائة من أتباعه وطار من خلفه .

سار بيبرس وغلمانه العشرة بعد أن أخذ قمطة منه الصندوق، فقال لهم أظن أن هؤلاء سيقتفون أثرنا ويلحقوننا ، ولا بد من لقائهم وتشريدهم ، وما عليكم أنتم إلا حماية ظهرى ، وأن تجردوا من الآن سيوفكم .

بان الغبار من خلفهم عن خمسمائة فارس يقودهم قمطة بن إفرنجيل، فوقف بيبرس وغلمانه يستقبلونهم ، ولما التقوا قال قمطة : يا مسلم ، كيف تخامرنى وتخدعنى ؟ ! لا بد من أن أقطعك إرباً ، أما تدرى أننى ابن الملك إفرنجيل ، الذى ليس له فى القوة مثيل . دونك والقتال . فقال بيبرس : يا كلاب ، كيف أبحتم لأنفسكم نهب الأموال ، وإزعاج الآمنين من عابرى السبيل ؟ ! فارتدوا على أعقابكم ، قبل أن ينزل عليكم الموت بغتة وأنتم لا تشعرون ، وقد نصحت لكم وأنذرتكم ، وقد عدل من نصح ، وأعذر من أنذر ، فبربروا وتصايحوا وهموا أن يهجموا على بيبرس ليقتلوه ويمزقوه ، فغطس فيهم بسيفه ، وجعل يقطع الرءوس ، ويبقر



بيبرس يفتك بقمطة ورجاله

البطون ، ويمزق القلوب ، ويلقى على الأرض جثثاً كأنها أعجاز نخل خاوية ، وتبع قمطة ، فضربه بالسيف ضربة طار لها رأسه ، وخاف الباقون من الجيش أن يعودوا إلى أبيه من غيره فيقطع منهم الأعناق ، وحملوا على بيبرس حملة غاضبة عنيفة حتى يقتلوه ويأخذوا رأسه معهم إلى الملك ، ليشفع لهم عنده . ولكن بيبرس نزل عليهم نزول السيل ، حتى أيقنوا أنهم مقتولون إن استمروا يحاربون ، فحملوا جثة قمطة وفروا هاربين . وكان قد قتل ثلثمائة وخمسون . أما بيبرس وغلمانه فلم يقتل منهم أحد ، وجمعوا الأسلاب والمغانم وجدوا في مسيرهم مقتفين آثار الركب الذى سبقهم .

دأب نجم الدين على السير والمضى فى سبيله جميع النهار ، ولما جاء المساء حط الرحال للراحة ولكشف أخبار بيبرس وغلمانه ، وما لبثوا أن جاءهم بيبرس وغلمانه ، فقال له نجم الدين : غبت طويلا وما كنت أظن إلا أنك ستغيب ساعتين ، فأين كنت ؟ فقال : كنت أجاهد فى سبيل الله حتى انتصرت على القوم الظالمين ، وقص عليه قصته ، ثم قال : وهذه الأموال والمغانم التى أخذتها منهم .

علم نجم الدين أنه داهية لا تدفع ، فاغتم غماً عظيماً ، لأنه خاف أن يقتل أحداً من أهل مصر ، ويضرم فيها نيران الفتنة ، وقال فى نفسه : ليتنى ما جئت به من عند أمه ، ثم عزم على أن يحبسه فى بيته عند خالته ، ولا يترك له فرصة يتصل فيها بأحد من المصريين ،

حتى ييئس من حبسه ويطلب العودة إلى أمه ، وبذلك يكون قد خلص من شره الذى يتوقعه . ومع هذا فقد أظهر له سروره وإعجابه به . ولم يبد له شيئاً مما فى نفسه . وأخذ بيبرس يتحدث إلى زوج خالته حتى أخذه النعاس . . . وفى أثناء نومه قال نجم الدين للقاطرجية : إذا قربتم من مصر فادخلوا بنا ليلا ، وتذكر أن الأعداء قد يجمعون جموعهم ويدركونهم فأيقظ الركب واستأنف المسير فى سرعة فائقة .

دخل المهزومون من أتباع قمطة على الملك إفرنجيل يحملون جثته وهم فى غم شامل وحزن أليم فاندهش وذهل وقال : من فعل هذا بابنى ؟

فقالوا : بيبرس وحده ، وهو الذى فتك بجيش سرجويل وأخذ أمواله وصوانه ، ولولا أننا هربنا من وجهه لكنا الآن طعاماً للوحش والطير .

فقال : وكم كان عددكم ؟

فقال : خمسمائة .

فقال : وكم كان عدد عدوكم ؟

فقالوا : عشرة .

فقال : لا هنتم ولا عشتم ، ثم أمر بضرب أعناقهم .

فقال وزيره : وما ذنب هؤلاء ، وقد بذلوا ما فى وسعهم فما استطاعوا أن يغلبوا عدوهم ، وهل كانوا يودون أن يفروا خائبين ، وحاملين جثة ابن مليكهم الذى يفتدونه بأرواحهم وأموالهم ؟ !

فقال : وما تراه فى الأخذ بثأر ابنى ؟

فقال : لسنا فى قوة بيبرس ورجاله ، ولقد جاءتنا الأخبار من قبل أنه أباد جيش مرجويل ، وغنم أمواله وصيوانه ، وأذاقه خزى الهزيمة ، وذل الخيبة ، والرأى عندى أن ترسل من خلفه العيون والجواسيس ، حتى تأتيك أخباره أنه قريب من ديارنا وحينئذ تخرج إليه وتقتله وأنت فى ديارك لم تغادرها ، فهدأت ثورة الملك وارتاح لمشورة وزيره ، وأمر أن يدفن ابنه فدفنوه ، وبعث الجواسيس يراقبون بيبرس فى حركاته وسكناته .

١١

استمر الركب سائراً حتى كان فى غسق الليل بباب النصر من مدينة مصر، فطرقوه فأجاب الحرس : من الطارق ؟ فقال : نجم الدين ابن عم الملك الصالح، فلما عرفوه فتحوا ودخل ومعه بيبرس وبقية الركب والأموال.

كانت السيدة شهوة زوجة نجم الدين قد تذكرت زوجها فى تلك الساعة وزاد وجدها لغيبته، وجعلت تقول : يسر الله أمره، وأرانى عن قريب وجهه، فما أتمت السيدة شهوة كلامها حتى طرق نجم الدين بابها وقال : افتح يا غلام. فعرفه الغلمان وفتحوا الباب : ونقلوا إليها بشرى قدومه، فخفت لاستقباله فرحة مستبشرة. ولما رأت بيبرس معه توارت فناداها : تعالى، فهذا بيبرس ابن أختك السيدة فاطمة القوسية. فرجعت وسلمت عليه فى شوق وفرح عظيمين، ثم أمر نجم الدين بحفظ الأموال التى لبيبرس فى مخازن الدار، أما الخراج فقد حفظ فى مخزن وأقفل بابه، وأخذ نجم الدين مفتاحه، ثم جلس هو وزوجته وبيبرس يتحدثون، وتذكر حينئذ العلبة فأتى بها وقال : هذه العلبة أرسلتها إليك أختك السيدة فاطمة، وحلفتنى أننى لا أفتحها إلا أمامك وأمام ابن أختك بيبرس، فأخذتها السيدة شهوة وأزالت غطاءها فانكشف عما فيها فإذا هو (نقاب، وشعيرية، وفردة من خف)، فعجب نجم الدين إذ كان يعتقد أن بالعلبة شيئاً

غلا ثمنه . فقال : يظهر أن أختك كانت مجنونة حين أعطتنى هذه العلبة ، وكيف تحملنى علبة فيها أشياء لا منفعة لها ؟ ! فتبسمت السيدة شهوة ، وقالت : اعلم أن أختى لم ترسل هذه الأشياء لتكون هدية إلىّ منها ، ولكن لتنطق بما فى نفسها لأختها ، ولأقرأ فيها ما تريد تبليغه إلىّ ، فأمسك زوجها الخف وجعل يقلبه وينظر فيه ، ثم قال : والله ما رأيت فيه كتابة ولا كلاماً ، فقالت : إنها رموز لما تريد أن تقوله ، لا يفهمها إلا من كان ذكىّ الفؤاد ، بصيراً بمعانى الدلالة والإشارة ، وقد فهمت الآن ماذا تقول أختى ، فقال : اقرئى علينا ما فهمته من هذه الأشياء ، فقالت : إنها تقول : أرسلت إليكم ابنى الذى هو نور عينى ، ومكانه قلبى وفوق رأسى ، وذلك ما دل عليه النقاب والشعيرية ، ثم تقول : أكرموه واحترموه ، ولا تجعلوه مهاناً منبوذاً كالنعال ، وذلك ما فهمته من فردة الخف ، فعجب نجم الدين من ذكائها وقوة فهمها ، وقال : عليك حينئذ أن تكرميه وتعطفى عليه ، وتعامليه كأنه ابنك وفلذة كبدك ، ولا تسمحى له بالخروج من المنزل على أية حال . حتى لا يتعرض لمكروه ، فقالت : إنه ابنى ولن أحتاج فيه إلى وصية ، ثم التفتت إليه وقالت : اعلم يا بنى أنك عند أمك التى هناءتها مرتبطة بهناءتك ، وألمها موصول بألمك ، ولك عندى كل شىء تهواه وتريده ، فقال : شكراً لك يا أماه ، وإنى أحب أن أقيم فى مكان خاص بى ، فإنى أحب العزلة وأستريح فى الوحدة ، فأمرت الجوارى أن يعدوا له فى الحال حجرة خاصة

وأن يلازمنه لخدمته .

وأغلق بيبرس عليه حجرته وصرف الجوارى ونام متوكلا على الله ، وفى الصباح استيقظ وأدى فريضة الصبح ، وتناول هو ونجم الدين طعام الفطور ، وقال له زوج خالته : إنى ذاهب بالخراج إلى ديوان الملك ، فانتظرنى فى هذا البيت حتى أعود إليك ، وسلم عليه ومضى إلى سبيله ، بعد أن أمر حارس بابه ألا يمكن هذا الضيف من الخروج ، مخافة أن يقتل أحداً من المصريين ، ويلوم الناس بعد ذلك نجم الدين ، إذ كان السبب فى مجيئه إلى تلك الديار ، فقال الحارس : لا تخف يا سيدى فإنه لن يستطيع أن يفلت من يدى وإن كان فى قوة عشرة من الأبطال .

فى هذا اليوم دخل الملك الصالح ديوانه ، وكان قد كمل عقد مجلسه ، فحياهم وحيوه ، ثم جلس وقال : آمنا وأخلصنا فوصلنا ، سبحان المنجى من المهالك ، يا شاهين ، دخل الطير القفص ، وزالت عنه الغصص ، وصاد الصائد ، وهذا حكم الإله الواحد . فما فهم شاهين ولا جلساء الملك لهذا القول معنى ، وشملتهم حيرة وسكون ، وفى أثناء ذلك دخل عليهم نجم الدين ، فحيا الملك ودعا له بدوام العز والسعادة ، وأخبره أنه أحضر الخراج من بلاد الشام ، فأمر الملك بحفظه فى بيت المال ، وأمر نجم الدين بالجلوس فجلس ثم قال : يا شاهين ، لا بد أن يظهر الخفى ، لأن الطير دخل القفص ، وأغلق عليه بابه ، ووصاه ألا يحاول الخروج منه ، وقال الرجل : أنا ما حبسته فى القفص إلا مخافة أن ينقر

الطيور ، لأن منقاره حاد ، فلا ينقر به طيراً إلا أماته ، ولكن وعزة الله لا بد أن يظهر ، ويؤيد بالنصر من مولاه ، يا شاهين ، أصحيح ما أقول ؟ فقال شاهين : إنه صحيح يا مولاى ، مع أنه لا يدرى له معنى ، فقال الملك : يا شاهين ، قلت لك ما خطر ببالى ، فلا تؤاخذنى بما تحرك به لسانى .

أما بيبرس فقد ضاق صدره بانفراده ووحدته ، ففتح نوافذ حجرته وجلس يتلو القرآن بصوته الرخيم فاستوقف السابلة لإعجابهم بصوته وتلاوته حتى غص الشارع بخلق كثير . وأقبل عليهم الشيخ محمد الجعيدى ، وسألهم عن جمعهم هذا فقالوا : نستمع لقراءة القرآن من قارئ سحرنا بصوته ، فقال : ومن هذا القارئ ؟ فقالوا : لا ندرى ، فهل تقدر أن تظهره لنا ولك علينا ثلاثون نصف فضة ؟ فوقف تحت النافذة وصفق بيديه ، وقال : يا قارئ القرآن ، نحن أولاد الحسينية ، نرجو منك أن تطل علينا لنحييك ، فأطل عليهم برأسه ، وقال : السلام عليكم ، فردوا عليه السلام ، وفتنهم جمال وجهه ، وقال الشيخ محمد : ما شاء الله ! خلق فسوى ، يخلق الله ما يشاء ويختار ، ثم رجا منه أن ينزل إليهم ليأتنسوا به ، فقال : اصبر مقدار ساعة حتى آتيكم .

نهض بيبرس من حجرته وأخذ الآلات فى يده ، ونزل إلى وسط الدار ثم قال فى نفسه : إن الجمود فى المجتمع عقم وبلادة ، وأهل مصر ذوو لباقة وعذوبة وفكاهة ، وما علينا من بأس إذا جاريناهم وسايرناهم فى

أحوالهم ما دام ذلك فى حدود الأدب واللياقة ، فلأخرج إليهم وبالله التوفيق .

وذهب توًّا إلى باب الدار ، فلما رآه البواب انتصب قائمًا كأنه الأسد وقال : إلى أين تمضى ؟ فقال : أريد الخروج لأطوف بالبلدة وأزور أحياءها وأختلط بأهلها وأعرف شيئًا عن أحوالهم ، فقال البواب : ارجع إلى حجرتك ، فقد أمرتُ ألا أسمح لك بالخروج من باب الدار ، فقال : اعلم أيها البواب أنى لم يكن لى سيد إلا مولاى الذى خلقنى ورزقنى ، وما أنا مملوك لأحد إلا لله رب العالمين ، وقد خلقنى حرًّا لا فرق بينى وبين مليككم فى ذلك ، وما نجم الدين إلا زوج خالتى ، فإن أقمت فى البيت أو خرجت منه فبرأيى ورغبتى ، ولا سلطان لأحد علىّ ، وما أتيت إلى مصر إلا لرؤية مبانيها ونواحيها وآثار السالفين ، ومعرفة كثير من أحياء أهلها وأخلاقهم وعلومهم ، فافسح لى الطريق ولا تمنعنى من الخروج ، فقال : ارجع من حيث أتيت ، وإلا كسرت رأسك ، وهشمت عظمك . فجعل بيبرس يلاينه ويلاطفه ، لعله يسمح له بالخروج ، فما أغناه ذلك شيئًا . فقال فى نفسه : ذلك رجل لا ينفع فيه اللين والمعروف ، وتقدم إليه يريد الخروج ، فهم به البواب ليضربه ، فرفع بيبرس يده باللت وضربه على رأسه ضربة خفيفة فسال دمه وسقط مغشيًّا عليه ، فتخطاه بيبرس ، وخرج من الدار لا يلوى على شىء إلى الجمع الذى ينتظره ، فاستقبلوه فرحين ، وسألوه عن اسمه ، فقال :

بيبرس ابن أخت السيدة شهوة زوجة نجم الدين البندقدارى ، فقالوا : شرفت بك الدار ، وأشرقت بقدومك الأنوار ، وانا رغبة فى أن تصحبنا للترفيه عن نفسك والائتناس بمجلسك ، فقال ذلك ما وددته وتمنيته ، فهيا بنا إلى حيث تشاءون .

ومشى جمع يتقدمهم الشيخ محمد الجعيدى ، وذهب بهم إلى دكان به شاب على وجهه أمارات الحياء والأدب والوقار يسمى كريم الدين ، وهو ابن عالم من علماء الدين فقير يأخذ كفافه من دكانه هذا ، الذى يبيع فيه العرقسوس ، يسمى الشيخ يحيى الشماع .

ولما رآهم الشاب مقبلين على دكانه نهض إليهم وحياهم وأجلسهم ، وبيبرس من بينهم كأنه القمر تحيط به النجوم ، ووزع الشاب عليهم شراب العرقسوس فشربوا جميعهم ، وسأل بيبرس الشاب فقال له : ما اسمك ؟ فقال : كريم الدين بن يحيى الشماع ، فقال : يا كريم الدين علىّ ثمن ما وزعته من العرقسوس ، فلا تأخذ من أحد شيئاً . فقال كريم الدين : أبقاك الله أهلا للكرم والمروءة . وأسعد يومنا بطلعتك ، وبسط رزقك ، ولا حرمنا عونك ، ثم أخذ كريم الدين يؤنسهم ويتحدث إليهم ، ولما رغبوا فى القيام استأذنوا وانصرف كل إلى شأنه ، وبقى بيبرس مع كريم الدين فى الدكان حتى خلاولم يبق فيه أحد ، فقال بيبرس : يا كريم الدين ، أنا ابن أخت السيدة شهوة زوجة نجم الدين ، ومقيم معه فى منزله ، وثمن العرقسوس عندى ، سآتى به إليك ، لأنى الآن ليس

معى شىء من المال ، ثم ودعه وانصرف إلى منزل خالته .

وجد بيبرس البواب قد أفاق من غشيته ، فلما رآه بجانبه ارتعدت فرائصه وقال : ارجع عنى يا سيدى وكفانى ما أصبتنى به من الأذى . واست بقاعد فى وظيفتى هذه ما دمت مقيماً فى هذا المنزل ، وسأنتظر سيدى نجم الدين لأسلمه منزله ، ثم أذهب إلى سبيلى أبتغى رزقى من باب آخر ، فإنى لست فى غنى عن نفسى ، وإذا كنت قد سلمت من يدك هذه المرة ، فقد لا أسلم منها فى المرة الثانية ، فجلس إليه بيبرس وقبل رأسه ، وقال : اصفح عنى واغفر لى زلتى هذه ولك عندى عشرة دنانير ، فقال البواب : قد صفحت عنك يا سيدى، ولكن أين الدنانير؟ فقال : بعد قليل ستكون فى يدك ، ثم صعد إلى حجرته ورجع فى الحال إليه وأعطاه عشرة دنانير وقال : إذا سألك سيدك نجم الدين عنى فاكتم عنه أمر خروجى من المنزل ، فقال البواب : يا سيدى لن أخالف لك أمراً ، وأنا خادمك ليلا ونهاراً ، واطلب منى ما تشاء ، فإنى أحضره إليك سريعاً . فقال : جزاك الله عنى خيراً ، ثم تركه وقعد فى حجرته .

حضر نجم الدين وسأل البواب : هل خرج بيبرس من المنزل ؟ فقال : وحق رأسك ما خرج من باب دارك أبداً ، فصعد إليه وجلس معه يتحدثان ولم يسأله عن خروجه لأنه وثق من بوابه .

بقى كريم الدين فى دكانه وحده ، فراحت الفكرة ، وجاءت الحيرة ، وجعل يفكر فى ثمن العرقسوس الذى باعه ، ويقول فى نفسه : سيأتى أبى

من الجامع الأزهر ويسألني عن ثمن العرقسوس الذى بعته . فإن قلت : لم أبع منه شيئاً ، قال : وأين العرقسوس ؟ وإن قلت : إنه انسكب مني على الأرض ، قال : وأين مكانه ؟ وإن قلت بعته نسيئة ، قال : ومن أين نأكل وليس لنا مورد رزق إلا ثمن العرقسوس وربحه ، وإن أغلقت الدكان وهربت أوقعت أبي وأمي فى حيرة وغم من أجلي، ثم اهتدى أخيراً إلى أن يقول الحق ويخبر والده بما حصل قائلاً فى نفسه : الوقوع فى البلاء خير من انتظاره ، وما أكرم أن يصدق الإنسان ! !

أقبل الشيخ يحيي ، فقال : السلام عليك يا كريم الدين ، فقال : وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم قبل يده وأجلسه ، وقال أبوه : ناولني ثمن ما بعته يا كريم الدين ، فناوله جديداً واحداً، فقلبه فى يده مندهشاً وقال : وأين الباقى من ثمن العرقسوس لنشترى به ما يلزم للدكان والبيت من حاجات المعيشة ، فقال : يا والدى ، الصدق منجاة ، والكذب مهلكة ، وإنى أصدقك الأمر ، وقص عليه قصة بيبرس وجمعه الذى كان معه .

غضب الشيخ يحيي واضطرب وقال : كيف تضيع مالنا وثمن بضاعتنا وتتركنا نقاسي ألم الجوع والحرمان هذا اليوم وتلك الليلة ؟ ! ليس لك عندى إلا التأديب والضرب ، وسأشترى بهذا الجديد عصاً أؤدبك بها ، ثم قام ليشتريها وترك ابنه فى دكانه .

ولما غاب أبوه عن عينيه أقفل الدكان ومضى إلى أمه فحكى لها

ما جرى وهو يرتعش خوفاً . فهدأت أمه من خوفه فأجلسته وقالت : وما الذى نقدر أن نفعله مع الملوك ووزرائهم وأقاربهم من أمثال نجم الدين ومملوكه هذا ، الحمد لله الذى سلمك منهم ، فاطمأن الشاب وجلس إلى جوارها .

رجع الشيخ يجى ومعه العصا ، فلم يجد ابنه ، ووجد الدكان مقفلا فسأل عنه جيرانه ، فقالوا : أقفل الدكان ومضى إلى ناحية الدار ، فمضى الشيخ إلى داره وهو فى شدة الغضب والألم لفقره وضيق ذات يده ، ووجد ابنه جالساً بجانب أمه ، فنهضت الأم إلى زوجها وقالت : لأى شىء أتيت بهذه العصا ؟ ! لقد أفزعت الولد ، وأضعفت قواه ، وفككت مفاصله وهززت قلبه ، ليت الذى فى يدك ملابس له أو شىء يأكله ، ولد واحد ليس لى غيره وتريد أن تضيعه من أجل دراهم معدودة ؟!! وماذا كنت تريد أن يفعله مع المملوك ؟ أيضربه أم يشتمه ؟ لو كنت أنت مكانه ما قدرت أن تفعل شيئاً ، ثم بكت . فقال الشيخ : إن ابنك ضيع رزقنا الذى نأكل منه ، وأنت تعلمين أن رزقنا فيما نبيعه بالدكان ، فقالت : وماذا كان يفعله مع المملوك ؟ فقال : وماذا نحن فاعلون ؟ فقالت : اجلس ، وسآتيك بمال يخلفه ، فقال : ومن أين لك المال ؟ فقالت : اصبر وسترى ما يكون ، ثم غابت وأحضرت له وعاء من الفخار وأخرجت منه ستة أنصاف من الفضة ، قيمة كل نصف ستة جدد ، ثم دفعتها إلى زوجها قائلة : ماذا تقول فى ذلك ؟ فقال : ومن أين

حصلت على هذا المال ؟ فقالت : من خدمتى فى أبيك رحمه الله ، فقد كنت أحضر له الماء ، وأصب عليه ليتوضأ ، وكان يعطينى فى كل وضوء جديداً ، وكنت أضعه فى هذا الوعاء . وكلما كمل عندى ستة جدد بدلت بها نصف فضة ، ولم أزل على هذه الحال حتى توفى والدك رحمه الله وجعل الجنة مثواه ، وكنت جمعت هذا المال وحفظته ، وقد نفعنا هذه الساعة .

فرح الشيخ يحيى وألقى العصا من يده وقال : خذ يا كريم الدين ، هات بهذا النصف عسلاً وعرقسوساً إلى الدكان ، واشتر بهذا النصف قمحاً ، وبهذا النصف سمناً ، وبهذا النصف لحماً وخضراً وهذان النصفان معى إلى وقت الحاجة إليهما ، ومضى الولد فقضى ما أشار به والده ورجع .

وقال الشيخ يحيى : اسمع يا كريم الدين ، سأمكث فى المنزل غداً ولا أذهب إلى الجامع الأزهر ، أما أنت فافتح الدكان كعادتك ، فإذا أتاك المملوك وجماعته ، وشربوا العرقسوس ولم يعطاك ثمنه ، فاشغله بالحديث معه وابعث إلى لأحضر إليك وحينئذ آخذ الحق منه رضى أو كره ، فقال الولد : سمعاً وطاعة .

فتح كريم الدين دكانه فى الصباح وأعد شراب العرقسوس وقال : يا فتاح يا كريم ، اكفنا شر هذا اليوم ، وارزقنا بفضلك وكرمك فأنت خير الرازقين .

دخل بيبرس وجماعته الدكان وأمر كريم الدين أن يسقيهم شراب العرقسوس على حسابه ؛ فشربوا هنيئًا وجلسوا يتحدثون إلى ضحوة النهار ثم استأذنوا وانصرفوا ، وابث بيبرس فى الدكان جالسًا ، وكريم الدين ينظر إليه وهو خائف ألا يعطيه شيئًا ، وبعد برهة من انصراف الجماعة قال بيبرس : ناولنى يا كريم الدين هذه الطاسة التى على هذا الرف ، فأحضرها إليه ، وظن أنه سيأخذها ، فقال : تلك ورثناها عن جدى ، وأدرك بيبرس غرضه فابتسم ، ثم أخرج من جيبه كيسًا من الحرير وأفرغه فى الطاسة فامتلأت ، وكان ما فى الكيس خمسمائة دينار ذهبًا ، وقال : هل يكفيك هذا يا كريم الدين ثمنًا لشراب العرقسوس يومين ؟ وإن أردت أن أزيدك أعطيتك . فقال : جزاك الله خيراً ، والله إن هذا لكثير ، وما هو إلا عطاء الملوك والسلاطين ، لا عطاء مماليك لمثل نجم الدين ، فقال بيبرس : أعط أباك هذا المال ، فإنى سمعت أنه من علماء الإسلام ، وأهل دين وتقوى ، وأن رزقه الكفاف ، واسأله أن يدعو لى ، فمثله مستجاب الدعوات ، واذهب إليه الآن ، وأنا هنا قاعد فى انتظار عودتك ، فأسرع كريم الدين فرحًا إلى أبيه وأمه .

أقام الشيخ يحيى ذلك اليوم فى داره ، وبينما هو ينتظر رسول ابنه أخذته سنة من النوم هو وزوجته ، ورأى كل منهما فى منامه رؤيا ، فلما استيقظا قصت على زوجها رؤياها فقالت : رأيت بيتى هذا قد امتلأ نوراً ، وعبقت فى أجوائه رائحة ذكية عطرة . وبينما أنا غارقة فى

سروري بهذه الحال أقبلت علىّ شريفة سمراء كأنها الشمس المنيرة ، وعليها حلة خضراء ، وقد أمسكت يدها اليسرى ابنى كريم الدين ، وأمسكت يدها اليمنى ولداً آخر ، مشرق الوجه وضاء الجبين ، فى جبهته سبع نقط سوداء ، وبين حاجبيه شعرة من الأسد ، وإلى جانب الشعرة سبع من اللحم يبدو إذا غضب ويختنى إذا رضى ، فقلت لها : يا مولاتى ، من أنت ؟ فقالت : أنا كريمة الدارين ، أنا أخت الحسن والحسين ، فقلت : ومن هذا الغلام الذى فى يدك اليمنى ؟ فقالت : هذا محمود ، ويكنى بيبرس ، وسيسمى الظاهر ، وسيكون ملكًا تذل له رقاب الإنس ، وهذا الذى فى يدى اليسرى ولدك كريم الدين ، له شأن عظيم فى مدة الظاهر بيبرس ، ففرحت وقبلت يديها ، وسألتها أن تدعو لى ولولدى وزوجى ، فقالت : رفع الله عنكم ألم الفقر والفاقة . ثم انصرفت واستيقظت من نومى فرحة مسرورة . فتبسم الشيخ يحيى ضاحكًا فرحًا وقال : وحق من خلق الأرض والسموات ، إن هذه الرؤيا هى التى رأيتها فى منامى هذه الساعة ، وكأنك قصصت على ما رأيته كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، ونحمد الله تعالى الذى كتب لنا الخير والسعادة .

وطرق باب الدار إذ ذاك طرقًا خفيفًا ، فظن الشيخ أن هذا الطارق رسول ابنه ، فأطل من النافذة فوجد ابنه كريم الدين ، فقال : يا كريم الدين ، إن كان المملوك قد جاءك فانتظرنى حتى أنزل بالعصا وأذهب معك إليه ، فقال كريم الدين : افتح الباب يا والدى فقد أتيتك بنبأ عظيم .

فتح الشيخ الباب ودخل ابنه، ثم وضع المال بين يديه ، فقال : من أين لك هذا الذهب الكثير ؟ هل عثرت على كنز فى الدكان ؟ فقال : لا يا والدى ، ولكن المملوك أعطانيه ، فقال أبوه : إنى رجل من أهل العلم ، وأخشى الله تعالى إن أخذت هذا الذهب ، فقد يكون مال نجم الدين ، وقد سرقه هذا المملوك وأتى به إليك ، لأن هذا عطاء الملوك لا عطاء الصعاليك ، فقال الولد : لو كان المال مسروقاً ما سكبه من الكيس فى الطاسة جهاراً دون أن يخشى أحداً ، فقال أبوه : لا تطل فى الكلام يا ولدى ، فغداً سيعرف نجم الدين أن ماله قد سرق ، وأن الذى سرقه هذا المملوك . وأنه لا يجلس إلا فى دكانك ، وحينئذ يطردنا أو يقتلنا ويصلبنا ، فلا يغرنك الطمع وحب المال ، واذهب إليه ورد هذا المال إليه، فرجع كريم الدين بالدنانير امتثالا لأمر أبيه .

انتظر بيبرس كريم الدين فى الدكان ، ولما أبطأ فى عودته ترك الدكان وذهب إلى حجرته فى منزل نجم الدين ، ثم عاد إلى الدكان ومعه كيس آخر فيه ألف دينار ، وجلس ينتظر عودة كريم الدين ، وما لبث أن رجع إليه فسلم عليه وقال : خذ هذه الدنانير التى أعطيتنيها ، واكفنا شرها وشر أذاها ، فقال : وما حملكم على ردها ؟ فقال : إن أبى ما رضى بها ، وهو قادم إلى الدكان على أثرى .

حضر الشيخ وسلم عليهما فردا عليه السلام ، وقاما إليه وقبلا يده ، ثم جلسوا ، فقال الشيخ : يا سيدى ، هل أعطاك ابنى الأمانة ؟ فقال

بيبرس : يا سيدى ، إن هذا المال منحة منى إليكم ، ورب الكعبة ما سرقته ولا نهبته ولا هو من مال أحد من الناس ، ولكنه من مالى ، وما أنا بمملوك كما تظنون ، ولكنى أنا محمود بيبرس ابن السيدة فاطمة القوسية أخت السيدة شجرة زوجة نجم الدين ، فخذ المال وتوكل على الله وإن سألك عنه أحد فقل إنه منى ، فاطمأن الشيخ وفرح بما أعطاه الله ، ثم قال : وسأزف إليك بشرى ، وأسأل الله أن يبلغك الآمال ، فستكون ملكًا تفتح البلاد ، وتدين لك بالطاعة العباد ، لأننى رأيت فى منامى ما رأته زوجتى فى منامها فى ساعة واحدة ، وقص عليه الرؤيا كاملة ، ثم قال وقد رأيت فيك العلامات ، لأن المؤمن ينظر بقلبه على نور من الله ، فابتسم بيبرس ، وقال : سيكون هذا إن شاء الله بفضل دعائك ورضاك ، فقال الشيخ : أحب أن تكون أخًا لولدى فى الله وأنا والدكما . فقال بيبرس : كما أردت يا والدى ، ثم تواثقوا وتصافوا على عهد الله . ثم أغلق الشيخ الدكان وأخذ ابنه وأخاه إلى منزله ، وجاءته زوجة الشيخ فقصت عليه رؤياها وبشرته بالملك والسلطان ، وعاهدته على أن تكون أمه وأم كريم الدين ، ثم قال لها : تمنى شيئًا تحبينه ، فقالت : أمنيتى عندك إذا أصبحت ملكًا أن يكون ابنى كريم الدين أخوك قاضيًا بالديوان ، وأن تبنى لى بعد وفاتى مسجداً عظيمًا وأدفن فيه ، وأن تزور قبرى فى الشهر أربع مرات ، وهذه أمنيتى عندك ، فقال لها : سمعًا وطاعة يا أمى ، ثم أخرج من جيبه كيس الذهب ، وقال : خذ يا والدى ، هذه

ألف دينار ، لتبنى بها دكانـًا فسيح الرحاب ، وتجهزه بكل ما يلزمه من بضاعة وفرش فاخرة ، وهذه الدنانير من أموالى التى قدمت بها من بلدى بالشام . ثم استأذن بيبرس فى الانصراف ، وقبل يد الشيخ وسأله الدعاء ، فقال الشيخ : جعلك الله سعيداً فى الدارين ، ثم مضى إلى بيت نجم الدين البندقدارى .

أما الشيخ يحيى فإنه هدم دكانه ثم أنشأ مكانه دكانـًا آخر كان بدعًا فى بنائه وزخرفته واتساعه وأرائكه ، وملأه بأنواع البضاعة فكان ندوة عامرة بالناس ، وكان يختلف إليه بيبرس وجماعته من أبناء الحسينية ، ويغدق عليهم من كرمه ما حببه إليهم وألزمهم صحبته ومعونته فيما يريد ، ثم منح الشيخ كيسًا آخر من الذهب ليبنى له بيتًا ويصلح شأنه ، فشكره وتم له ما أراد من بيت وصلاح حال .

١٢

وذات يوم خرج بيبرس ، وسار فى الشوارع وحملته رجلاه إلى الرميلة فوجد ملاعب المصارعة قائمة ، ووجد محموداً المصارع الذى غلبه بيبرس فى الشام وفر منها إلى مصر مهزوماً ، يدل على المصارعين ويفتخر عليهم ، ويتحدى من يساميه فى مهارته وقوته ، فلما رآه محمود هذا قال : تركت لك أرض الشام فتبعتنى إلى مصر ، لا بد من مصارعة حاسمة بينى وبينك هذا اليوم ، فقال بيبرس : كما أردت ، وعلى أى وجه أحببت ، فقال : لتكن بالرهان . فقال بيبرس : وأين الرهان الذى معك ؟ فأخرج محمود دملجاً ذهبياً به سبع جواهر ، وقال : إن غلبتنى يا بيبرس فهو لك ، وإن غلبتك بقى لى ، ولكنك تشهد أمام الحاضرين أنك عاجز ومغلوب لى ، فقال بيبرس : رضيت بذلك ، ولكنك تعلم أن المصارعة من أبواب الحرب والقتال ، وربما ثارت حمية أحدنا فقتل صاحبه ، فماذا ترى ؟ فقال : ليس القتل فى المصارعة جريمة يعاقب عليها القاتل ، والمغلوب فيها ملك للغالب ، فله أن يقتله ، وله أن يخلى سبيله ، وهو فى كلتا الحالتين غير مسئول ، ولا حرج عليه ، فقال : بيبرس : اكتب بينى وبينك وثيقة بذلك ، حتى تكون حجة فى يد من يغلب منا . فكتبت نسختان للوثيقة ، وأخذ كل منهما نسخة .

ودخل المتصارعون أبواباً كثيرة للمصارعة وبيبرس يخرج منها غالباً

فقال محمود : لم يبق إلا باب الخوخة ، فوقف محمود وباعد بين قدميه بمقدار شبر ، ثم رمى بيبرس بنفسه رمية قوية ، فنفذ من بينهما كالماء الدافق ، ثم وقف بيبرس وقفته ، وكان محمود يريد أن يحمله على كتفيه وينهض به واقفاً ثم يلقيه على أم رأسه فيقتله ، وفطن بيبرس إلى مكره وما يريده ، فلما كان محمود بين رجلى بيبرس ضغط بهما على عنقه ، وحاول محمود النهوض فعجز . وما زال بيبرس ضاغطاً على رقبته حتى أسلم روحه ، ومات لساعته ، فأخذ الدملج ، وتركه ملقى فى مكانه . وكان فرح النظارة بفوز بيبرس عظيماً .

وبينما الملك جالس فى ديوانه إذ بتابوت فيه جثة محمود بين يديه ، فقال : ومن قتل هذا ؟ فقيل : قتله مملوك اسمه بيبرس ، فتنحنح القاضى وقال : يا مولاى : من قتل يقتل . وإن ثقل عليك أمر قتله ، فإنى أضع بين يديك خمسين كيساً من الذهب ، فى كل كيس ألف دينار ، فقال : أتهب هذا المال لإظهار الحق أم لقتله ؟ فقال : أهبه لإظهار الحق . فقال : لإثبات الحق وظهوره ودحض الباطل وإخفائه ، فأمر الملك نجم الدين أن يحضر له بيبرس من بيته . فرجع إلى منزله ووجد بيبرس جالساً فسأله : ماذا فعلت هذا اليوم ؟ فقال : قتلت واحداً لا غير . فقال نجم الدين ساخراً : ليتك قتلت خمسين . ثم قال : قم إلى الملك ، فقد أرسلنى فى طلبك ، فقال بيبرس : إنى ذاهب إلى الديوان من غير استدعاء ولا طلب .

تقدم بيبرس إلى الملك فى ديوانه ودعا له بدوام العز والنعم ، فقال الملك : يا شاهين ، انظر إلى هذا الولد . اللهم عمر به الأرض والبلاد ، أأنت قتلت هذا الرجل يا بيبرس ؟ قال : نعم ، قتلته ، فقال القاضى : الإقرار حجة وبرهان ، ومن قَتَل قُتل ، فأخرج بيبرس الوثيقة وناولها الملك وقص قصة المصارعة .

فقال الملك : وكيف تكتب وثيقة لقتل مؤمن بالله ورسوله ؟ ! فقال بيبرس : لم يذق قلبه طعم الإيمان . وما هو إلا كافر ، على أن المؤمن والكافر فى الرهان سواء ، فأمر الملك القاضى أن يحضر المال . فلما أحضره وهبه لبيبرس ، فكان لذلك وقعه الأليم فى نفس القاضى ، ثم قال الملك : يا شاهين ، ضع يدك فى جيب هذا القتيل ، وهات لى الصرة التى معه ، فلما جاء بها نظر إليها وتأمل فيها فإذا هى الصرة التى كان قد أعطاها الملك على بن الوراقة ، فأبدى الوزير دهشته وعجبه ، فقال الملك : هذه بضاعتنا ردت إلينا ؛ ثم قال : خذوا هذا القتيل وأحرقوه .

وقال نجم الدين : يا بيبرس : وما الذى جمعك بمحمود العجمى الذى قتلته ؟ فقال : التقيت به فى الرميلة ، فقال : لِمَ لم تركب جوادك ؟ فقال: رغبت فى الذهاب ماشياً . فقال نجم الدين للخدم : الجياد تحت أمر بيبرس ، فأحضروا له ما يشاء منها فى أى وقت ، وكونوا طائعين لأمره ، وإشارته ، فأمره من أمرى ، وطاعته من طاعتى .

وذات يوم أمر بيبرس أن يحضروا له جواداً ، وكان رئيس الخدم

عقيرب أخو العرند الذى قتله بيبرس بالشام ، ووجد من اليسير عليه أن يقتله ثأراً لأخيه ، فأحضر له جواد سرجويل، مجهزاً مطهماً ، ولكنه جعل علائق الركاب ونطاق السرج والسير الجلدى للجام واهية بحيث تنقطع عند الجرى السريع ، وبيبرس لا يعلم شيئاً من ذلك .

ركب بيبرس الجواد ومر بدكان الشيخ يحيى فألقى عليه وعلى من معه تحية الصباح ، وعرف الشيخ منه وجهته فرغب هو وأبناء الحسينية الحاضرون أن يصحبوه إلى قبر الإمام الشافعى . وكان الجواد من يوم أن جاء من الشام لم يركبه أحد ، فلما وجد نفسه فى الخلاء بدا منه ما يدل على رغبته فى الجرى ، ورغب بيبرس أيضاً أن يجرى به ، فأرخى عنانه وغمزه برجليه ، فانطلق كالريح العاصف ، وأراد بيبرس أن يقف على الركاب فوقع الركاب ، وشد العنان إليه فانقطع . وقلق السرج من تحته ، فألقاه من على ظهر الجواد ، وثبت نفسه وأمسك معرفة الجواد والجواد يجرى على الأرض كأنه الطائر فى الجو . وطارت عمامته ، وسقطت ساعته ومنديله وكيس نقوده ، وهو لا يدرى من ذلك شيئاً ، وما زال الجواد يجرى حتى دخل به بين البساتين ، وكان فيها بيت الوزير شاهين ، وكان مطلا من النافذة ، يرى مماليكه وهم يروضون خيله ، فصاح بهم أن قفوا هذا الجواد الشارد ، فاعترضوا سبيله ، وكان الجواد أصيلا ذكياً ، فأدرك ما يريدون ، فوقف ولم يجفل . فأمسكوه وقادوه إلى الوزير ، فلما رآه قال : أهلا بالأمير بيبرس ، ،

فقال : : وهو متعب : أهلا بك أيها الوزير . أين أنا الآن ؟ فقال أنت فى بيتى ومعى ، ثم أدخله البيت وأجلسه وأكرمه ، ولما زال تعبه سأله عن حاله فحكى له قصته ، فقال الوزير شاهين : الحمد لله الذى شرفنا بقدومك ، وجمع بينى وبينك على غير موعد ، ولك عندى بشرى طيبة ، فقم معى لأريك ما يسرك .

١٣

أدخل شاهين بيبرس حجرة وأغلق عليهما الباب ، وسار به إلى لوح من الرخام فى حائط من حيطانها ، طوله أربع أذرع ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وإلى جانبه لولب نحاس أصفر ، ففركه الوزير فانزلق اللوح الرخامى وبان من خلفه باب من خشب العاج المندى ، أقفاله من ذهب ومفاتيحها معلقة بجانبه ، ففتح الوزير الباب ، ودخلا إلى حجرة أخرى منقوشة نقشاً بديعاً . وهى مفروشة بالأثاث الفاخر ، صفت بها كراسى من العاج ، وعلى تلك الكراسى تماثيل رجال مختلفى الأجناس يبلغ عددها مائة وخمسين ، وفى صدر المكان كرسى مرتفع عليه تمثال فى صورة الأمير بيبرس . وتمثال للوزير شاهين بجانبه الأيمن ، وتمثال لوزير أعجمى آخر بجانبه الأيسر ، وبجوار وزير الميسرة رجل قصير القامة أسمر اللون ، أفلج الأسنان ، يحدق بعينيه ، ويتحرك ويفور فوران القدر على النار ، فعجب بيبرس وقال : ما هذا أيها الوزير ؟ وما هذا الذى هو فى صورة رجل ويتحرك ويفور ؟ فقال : الوزير شاهين : ستكون ملكاً ، وتذب عن الإسلام ، وتحارب أعداءه ، وسيدخل فى طاعتك خلق كثير من مصر والشام وغيرهما من بلاد المسلمين ، وسيكون لك ديوان مثل هذا الديوان ، وأما هذا الرجل الذى يفور ويتحرك ، فهو سلطان الفداوية ،

وسيكون فى عهدك وشريكك فى الجهاد ، ويسمى أبا الفتوحات والنصر ، فقال : ومن فعل هذه التماثيل ، ووضعها فى مكانها هذا ؟

فقال الوزير شاهين :

كان فى الزمان الأول أحمد بن باديس السبكى ، وهو لبيب فطن ، له معرفة واسعة بعلوم الفلك والكواكب والنجوم والرمل ، فاستفتى علمه هذا وتجاربه فبان له أنه سيظهر فى آخر الزمان ملك أصله من خوارزم العجم ، واسمه محمود بيبرس الدمشقى ، يجاهد فى سبيل الله ، وينتصر الإسلام على يديه ويهلك بسيفه جيوش الأعداء . فصنع هذا الديوان وكتب اسمك على تمثالك ، فانظر إليه واقرأه ، فتأمل وقرأ : إن كنت محمود بيبرس الدمشقى العجمى الخوارزمى بن القان شاه جمك . فأنت صاحب الإمارة ، وقد بشرتك بهذه البشرى ، ولك عندى غيرها إذا حان وقتها . فاذكرنى بالدعوات والرحمة وقراءة الفاتحة ، فدعا له بيبرس وقرأ الفاتحة ووهب ثوابها للنبى ولمن صنع هذا الديوان وبشره ولأموات المسلمين أجمعين . ثم عاد الوزير بالأمير بيبرس ، وأغلق الأبواب وأعاد الحال إلى ما كانت عليه . ووصاه أن يكتم هذا الأمر حتى يقضى الله فيه ما هو قاض . وقد أثارت فترة خلوة الوزير بالأمير بيبرس ريبة فى صدور المماليك ، وذهبت بهم الظنون السيئة كل مذهب .

جلس الوزير شاهين يتحدث إلى بيبرس فقال : رغبت يا بيبرس أن أتخذك ولداً فى الله ، فماذا تقول ؟ فقال : ما أنا أيها الوزير إلا

عبدك وخادمك ، ثم توضأ كل منهما وصلى ركعتين ، وأبرما العهد على ذلك . وفرح الوزير ، بهذا الميثاق ، وقال : لا بد أن تزور كل يوم لأعلمك أبواب الحرب ، وفنون النزال ، وممارسة الأبطال ، حتى تصير فارس الزمان ، وليث الطعان ، فقال : لك ما تريد إن شاء الله .

وقال الوزير شاهين : من الذى جزز لك هذا الجواد ؟ فقال : عقيرب سايس نجم الدين زوج خالتى ، فقال : هل بينك وبينه ثأر أو خلاف أو سوء علاقة ؟ فقال بيبرس : لا أعلم فى نفسى شيئاً من ذلك ، ولكنى أحسن إلى جميع الخدم وأكرمهم ، فقال الوزير : لا بد أن يكون بينك وبينه ثأر ، فاقرأ صفحات ماضيك فإنك واجد صدق ما أقول .

ففكر بيبرس مليا وقال : قتلت بأرض الشام سايساً يقال له العرند . فقال : هذا كبيرهم وجميعهم أتباعه ، وسيطلبون ثأره وإن امتد بهم الزمان ، وأرجو من الله أن ينجيك من مكرهم . وأنصح لك أن تجعل لك سايساً تثق به وتعتمد عليه ، وإنى أحذرك من رجل جبار يسمى عثمان بن الحبلة ، فقد أذل أهل مصر وقتل كثيراً من الولاة ، وما قدر عليه أحد ، وما استطاع رجال السلطان أن يمسكوه أو يقتلوه أو يحبسوه . فلا تأمن جانبه ، فهو خوان غادر أثيم . فقال بيبرس : شكراً لك ، وقد حفظت ما قلته ووعيته ، والله تعالى ولى التوفيق ، ولا يكون إلا ما يريد .

ألبس الوزير بيبرس حلة فاخرة وجهز له جواده ، فركبه وسلم عليه وسار فوجد الشيخ يحيي وأبناء الحسينية ينتظرونه على مقربة من بيت الوزير . وقالوا له : حينما جرى بك الجواد تبعناك واقتفينا آثارك حتى دخلت هذا البيت . فلبثنا فى هذا المكان وعزمنا على ألا نغادره حتى تخرج إلينا ، وهذه عمامتك وساعتك ومنديلك وسرج جوادك . فشكرهم ورجعوا إلى ديارهم .

رجع بيبرس إلى بيت نجم الدين فوجد الخدم يشربون الخمر ويتضاحكون فرحين ، لاعتقادهم أن الأمير بيبرس لن يعود إليهم إلا جثة محمولة . فلما طرق الباب ونادى : يا عقيرب ، عرفوه من صوته فكفوا عن شربهم وسكتت أفراحهم ، وفتحوا الباب والغيظ يملأ صدورهم ولكنهم أخفوه ولم يظهروه . وقال عقيرب : زيارة مقبولة أيها الأمير ، فقال : يتقبل الله ويغفر . وكان عقيرب يرتعد من الخوف ويتوقع الشر ولا يدرى ماذا يفعل ، فقال له الأمير بيبرس : هل علمت ما جرى لى يا عقيرب ؟ فقال : كل خير وسلامة أيها الأمير ، فقص عليه بيبرس ما جرى . فقال : لعل عدة الجواد بالية ونحن لا نعرف ، فرفع بيبرس اللت وضربه به ضربة خفيفة فسقط على الأرض يتلوى من الألم ، ورأى بقية الخدم ذلك فهربوا ولم يبق منهم أحد . وجاء نجم الدين إذ ذاك ورأى ما حل بعقيرب . فسأله عما فعله . فقص عليه القصة ، فقال نجم الدين : إن كان قد فعل هذا عامداً فكفاه ما حل به ، وليس له إلا صفحك

عنه ، وإن لم يكن عامداً فالله يتولاك ويتولاه ، فأعطاه بيبرس خمسين ديناراً وقال :سامحنى يا عقيرب ، فقال سامحتك أيها الأمير وأبرأت ذمتك منى ، فقال بيبرس : اجعل لى سايساً خاصاً بى لا يكون من جنسكم ولاتكون له صلة بكم ، فأين يباع ؟ فقال عقيرب : مرادك سايس من خشب أو من حديد أو زجاج أو طين ؟ فقال : سايس مثلك يمشى ويتكلم ، فقال : أنا من بنى آدم ، فقال بيبرس ، ولاأريده إلا من بنى آدم ، فقال : وهل بنو آدم يباعون ؟ إن بنى آدم لا يباع منهم إلا العبيد والمماليك ، وإنما السياس أحرار ، لا يجرى عليهم بيع ولا شراء ، فضحك بيبرس وقال : إنى قادم من الشام ولا أعرف شيئاً عن مصر وأحوالها . فقال عقيرب : اعلم أيها الأمير أن السواس فى مصر فى خمسة بيوت : بيت ريحان ، وبيت خنفس ، وبيت هيضم ، وبيت وكال ذقنه ، وبيت الشيخ . فقال : وأين مكانهم يا عقيرب ؟ فقال : بيت هيضم فى باب النصر ، وبيت وكال ذقنه فى الأزبكية ، وبيت ريحان فى الحسينية ، وبيت خنفس فى باب الاوق ، وبيت الشيخ فى الرميلة ، فإذا توجهت إلى أية جهة وأردت سائساً فقل لهم : أريد سائساً جوايكياً حازماً جوادياً معتدل القامة أبيض اللون جميل الصورة ، فظن بيبرس أنه مخلص فيما نصح به وذهب إلى باب الاوق وسأل عن كبير السواس فأرشدوه إليه وسلم وحيا ، ثم أبدى رغبته فى شراء سائس ، وذكر له الأوصاف التى ذكرها عقيرب ، فتصايح السواس وهموا بيبيبرس ليضربوه

ولكن كبيرهم حال بينهم وبينه وقال : إن سائساً يكرهه مكر به وخدعه ، وحفظه الأوصاف التى ذكرها وسمعتموها . أما هذا الرجل فلا يعرف شيئًا عن هذه الأوصاف ، ثم التفت إليه وسأله : من أين أنت ؟ قال : من بيت الوزير نجم الدين البندقدارى وقد جئت إليه من الشام ، فقال : لعلك أنت الذى قتلت العرند بأرض الشام ، فقال : نعم ، فقال : إن الذى حفظك هذه الصفات وأغراك بها ما أراد إلا قتلك ليأخذ بثأر العرند، فاذهب الآن إلى الرميلة وسل عن أولاد الشيخ ، فإنه لايقوم بخدمة الجهة التى فيها بيتكم إلا أولاد الشيخ ، فشكره وسار حتى كان بالرميلة فوجد أربعة صواوين ، وقد جلس كبيرهم على مصطبة بينها ، وكان شيخًا ذا شيبة ووقار ، وظن أن السواس الذين هم فى طاعته مؤدبون ، ففرح واستبشر ، وسلم على الشيخ ونقبائه الذين معه وقال : جئت راغبًا فى سائس ، فقالوا : سمعًا وطاعة ، ولكن أنت من أى بيت ؟ فقال : من بيت الوزير نجم الدين البندقدراى ، فقال الشيخ : وما صفة سائسك الذى تريده ، فذكر بيبرس الصفات التى حفظها له عقيرب ، فعرضوا عليه سائسًا كما وصف ، فلما رآه غضب واربد وجهه وقال : أريد سائسًا قويًا ماهراً ، فجاءوه بالسواس جميعهم واحداً واحداً فلم يعجبه سائس منهم ، فعجب كبيرهم . وقال : ارجع إلى بيتك وسآتيك بسائس يعجبك فقد فهمت مرادك ، وفى الحال سمعوا جلبة هرب على إثرها السواس جميعهم إلى صواوينهم ولم يبق إلا الشيخ وبيبرس ، فقال الشيخ : امض

إلى سبيلك وانج بنفسك ، فإن القادم جبار عنيد وشيطان مريد ، وقد لا تنجو من يده .

كان هذا القادم عثمان بن الحبلة ، وهو شاب جميل الخلقة ، يلبس ملابس فاخرة ، فقام إليه الشيخ وقبل يده ، وقال : مرحبًا بجدى عثمان ابن سيدتى الحبلة ، فقال عثمان : يا ولدى سليمان ، أين المال الذى جمعته اليوم ؟ فعجب بيبرس أن تقلب الأوضاع ، فيكون الجد ولداً ، والولد جدًّا ، وقلب الشيخ سليمان وعاء النقود أمامه ، وقال : لم أرزق اليوم بشىء ، وهذا وعاء النقود فارغ لا يحوى درهماً . فالتفت عثمان بن الحبلة إلى بيبرس ، وقال : وما أتى بك إلى هذا المكان ؟ فقال : سليمان : جاء فى طلب سائس له ، وعرضت عليه السواس جميعهم ، فلم يعجبه واحد منهم ، فنظر إليه عثمان ، وقال : ألم يعجبك أحد من السواس ؟ فقال : ما أعجبنى أحد منهم ، فقال : وهل أعجبك أنا لأخدمك ؟ فقال بيبرس أنت أعجبتنى ، ولكنى لا أدرى ، هل أعجبتك أنا أيضًا ؟ فقال : أعجبتنى كثيراً ، وقال بيبرس فى نفسه : هذا الفتى الذى حذرك منه الوزير شاهين ، ولكنى سآخذه عندى ، فإن خدمنى وأخلص لى فذلك ما أبغى ، وإلاّ فإنى قاتله ، لأخلص الناس من شره . وكان عثمان ينوى فى نفسه ، أن يذهب معه ليقتله ، ويأخذ ما عنده من أموال ونفائس ، ثم يمضى لشأنه ، فيبحث عن فريسة أخرى ليفتك بها . أعطى بيبرس الشيخ سليمان عشرة دنانير ، ولما هم أن يضعها فى وعاء

النقود الذى معه نظر إليه عثمان نظرة طويلة ، فناوله الدنانير جميعها فى صمت وسكون ، ولم يبق منها شيئًا لنفسه .

ومشى بيبرس وعثمان معه إلى بيته ، وفى أثناء سيرهما أحب بيبرس أن يتحدث معه فقال : ما اسمك أيها السائس ؟ قال عثمان : اسمى زجاج ، فقال بيبرس : اسم رائق لا يحجب ما وراءه ، وقال عثمان : وما اسمك أنت يا سيدى ؟ قال بيبرس : اسمى مطرقة ، فقال عثمان : إن المطرقة تكسر الزجاج وتحطمه ، أفلا علمت لك اسمًا غيره ؟ قال بيبرس : ما علمت اسمًا يليق بى الآن إلا هذا الاسم ، أفأنت تكره القوى وتبغضه ؟ فقال عثمان : قواك الله ، ومن أى بيت أنت يا سيدى ؟ فقال : من بيت نجم الدين البندقدارى ، فقال عثمان : وفيه السائس عقيرب ، فقال : وهو الذى أرشدنى إلى المكان الذى جئت بك من عنده . فقال عثمان : إذا دخلت البيت فقل لعقيرب : جئتك بالسائس الذى يعجبك ، وذكرت لى أوصافه . فقال : لا مانع لدينا أن نقول ما شئت .

دخل بيبرس البيت وسائسه الجديد معه ، فقال : يا عقيرب جئتك بالسائس الذى يعجبك وذكرت لى أوصافه ، ثم نزل عن جواده وصعد إلى حجرته ، ولكنه جعل يراقب ما عسى أن يكون من عقيرب وعثمان . أما عثمان فإنه رأى حجرة مفتوحة الباب أمامه فدخلها وجلس على سريرها ، وكان قد غطى جسمه بثيابه ولثامه ، فلم يظهر منه إلا ساقاه وعيناه .

ذهب عقيرب إلى عثمان فى حجرته وقال له : مرحباً يا ولد ، فقال : مرحباً بك، فقال عثمان: من أى بيت ؟ فقال : من بيت هيضم ، فقال عقيرب: هذا البيت عدونا ، ولكن ذلك لا يمنعنا من إكرامك ، فاسترح أنت ولا تعمل شيئاً ، ونحن سنقوم بجميع أعمالك . ولك بعد هذا أجرتك كاملة ، لا ينقص منها درهم ، ولا يشارككك فيها أحد ، ثم قال : وما اسمك يا ولد ؟ فقال : اسمى عثمان بن الحبلة . فاضطرب عقيرب وغاب وعيه ، واصفر من الرعب وجهه ، وقال : أنت جدى ، وجد جدى ، فسامحنى ، فقال : أنا جدك الآن ، ومن قبل كنت ولداً عندك ، وأقل من ولد ، ثم رفع اللثام عن وجهه ، وضربه بيده ، وجعل يضربه وهو يقول : تبت يا جدى ، تبت يا جدى ، ولما تركه خرج يجرى إلى السواس فزعاً باكياً ، فأحاطوا به يسألونه ، فقص عليهم ما جرى له ، فتركوه إلى عثمان بن الحبلة مسرعين ، وقبلوا يده وألقوا أزمتهم فى قبضته ، وكان عقيرب قد تبعهم فلما رآه عثمان قال : أظنك قد فهمت من قدوى مع سيدكم أنى سأخدمه ، ألا فلتعلموا أنى عثمان بن الحبلة ، وقد خدعته وجئت معه لأقتله وأنهب أمواله ، لا لأخدمه ، وأروض له جواده . ونظر فرأى عدة الجواد معلقة ، فقال : ولمن هذه العدة ؟ فقال عقيرب : عدة جواد الذى جئت معه ، فقال : ناولنى إياها ، فإنى سآخذها ، وهى أجرة انتقالى من الرميلة إلى بيتكم ، فقال عقيرب : وإن سألنا عنها فماذا نقول ؟ فقال : قل له : أخذها عثمان أجرة انتقاله معك من الرميلة إلى بيتك ،

واحمد الله الذى جعل مصيبتك فى عدة الجواد ، ونجاك أنت من العطب والهلاك ، فإنه جبار عنيد لا يقدر عليه أحد . ثم وضعها فى ملاءة وحملها وخرج . فأطل بيبرس وناداه قائلا : ما الذى تحمله يا زجاج ؟ فقال : ملابس السواس أخذتها لأغسلها ، فقال بيبرس : ارجع وكلف الجوارى أن يغسلنها ،فقال عثمان : هذه ملابس بالية متروكة سأبيعها وآخذ ثمنها، فقال : بيبرس ارجع بها وأنا أعطيك ما تشاء من الدنانير ، فقال : إنها عدة جوادك ، أخذتها أجرة سيرى معك من الرميلة إلى بيتك ، وأنا عثمان بن الحبلة ، لا أخدم الناس ولكنى أقتلك يوم واحمد ربك الذى نجاك من يدى ، فقال : جزاك الله خيراً ، فخذها . وارجع لتأخذ معها مائة دينار ، ثم اذهب إلى حيث تشاء .

طمع عثمان فى الدنانير ورجع ، واستعد بيبرس ليلقاه باللت الدمشقى ، فلما دخل عليه ابتدره بضربة أوقعته على الأرض ، وأسرع فوضع رجله على رقبته ، وفك عمامته وكتفه بها ، وأخذه إلى عمود وصلبه فيه ، وكان معه سوط يضرب به الناس ، فأخذه بيبرس وجعل يضربه ويقول : لأذيقنك حرارة الألم بسوطك هذا الذى آذيت به الناس وآلمتهم ، ثم أنذر السواس العذاب الأليم إن أطلقه أحد ، وكان النهار قد ولى ، فذهب إلى حجرته لينام .

ونادى عثمان : يا عقيرب ، يا عقيرب ، وكان يسمعه ولا يجيبه ، فقال عثمان منذراً ، والله يا كلب السواس لأخدمن سيدك خدمة صادقة

ولأقتلنك شر قتلة ، وان أنسى لك قعودك عن معونتى ، وحمايتى من أذاه ، فقال عقيرب : ومن منا يستطيع أن يعترضه أو يخالف أمره ، أو يمنعه من رغبة ، فقد أعجز الأبطال ، وهو الذى قتل كبيركم العرند بالشام . فكيف تطلب منى بعد ذلك أن أكون معك ، فقال عثمان : أهذا الذى قتل العرند بأرض الشام ؟ فقال : نعم ، هو نفسه وعينه . فقال عثمان : إنه جبار ولا أقدر عليه ، ولهذا فإنى أرجو منك أن تحل رباطى لأجلس معك مستريحاً فإذا قرب طلوع النهار فاربطنى كما كنت ، فقال : قد لا ترضى أن أربطك ، وحينئذ يقتلنى ، وبذلك أكون قد سعيت إلى حتفى بنفسى ، فأقسم عثمان أنه لن يعصى ، وأنه سيرضى بصلبه قبل أن يقوم بيبرس من نومه .

ولما فك عقيرب رباطه ، هجم عليه وصلبه مكانه وضربه ، ثم أخذ عدة الجواد وفتح الباب وخرج ، وتركه مصلوباً يندم على فعله ويتوقع الشر من سيده .

ذهب عثمان إلى بيته ، وطرق الباب ففتحت له أمه ، ووضع ما معه وطلب منها شيئاً يأكله لشدة جوعه ، فوضعت بين يديه مائدة تحتوى على خبز وإوزة ، فتناول لقمة وقطعة من لحم الإوزة ، وتذكر صلبه وضربه ، فامتنع عن الأكل وغطت وجهه سحابة من حزن وألم وكآبة . فقالت أمه : كنت تشكو الجوع فلم لا تأكل ؟ ومالى أراك حزيناً على غير عادتك ؟ فحكى لها ما فعله به بيبرس ، ثم قال : وقد

عزمت على أن آخذ ثأرى منه ، وإنى ذاهب إليه الآن فى ثمانين من رجالى فقالت : افعل ما تريد والله معك .

ترك عثمان الطعام وخرج ، وفى ساحة أحمد بن طولون جمع من أتباعه ثمانين ، وبث لهم شكايته ، وقص عليهم حكايته ، فأصروا على أن يثأروا له بقتل خصيمه .

١٤

استيقظ بيبرس فى الصباح من نومه ، فصلى وأكل وحمد ربه ، ثم ذهب إلى عثمان ليضربه فما وجده ، وكان عقيرب مصلوبًا فى مكانه ، فقال فى نفسه : الوكيل مثل موكله ، وجعل يضربه وعقيرب يستغيث ويقول : أنا عقيرب ، وما أنا بعثمان ، أنا عقيرب ، وما أنا بعثمان . . . وبيبرس مستمر فى ضربه كأنه لم يستمع لأحد ، ثم سكت وقال : وأين عثمان ؟ فقال : خدعنى حتى حللته ، وصلبنى مكانه ، وأخذ العدة وخرج ، فقال بيبرس : وهذا جزاؤك ، ولن أعفو عنك حتى تدلنى على بيته ، فقال : سأدلك عليه ، ولكنه إن عرف ذلك قتلنى ، ولهذا أرجو ألا يعلم إنسان أنى دللتك على بيت عثمان ، فقال : لك ذلك يا عقيرب ، فقال : إذا كنت فى المراغة والدرب الطويل فسل عن حارة غزية ، فإذا دخلتها فسل عن بيت غزية الحبلة ، فهذا بيت أمه الذى سمى باسمها ، وعثمان مقيم فيه معها . فعفا عنه وأطلقه .

ركب بيبرس جواده وأخذ « اللت » الدمشقى فى يده ، وجعل يسأل عن المراغة والدرب الطويل وحارة غزية حتى كان هناك ، أمام دكاكين وقهوات كثيرة ، فذهب إلى بقال فى دكانه وسلم عليه وجلس بجانبه ، فرد عليه السلام وسأله : ألك حاجة يا سيدى ؟ فقال : نعم ، أتسكن

فى هذه الحارة ؟ وهل أنت من أهلها ؟ وهل تعرف من فيها ؟ فقال : أسكن فى هذه الحارة ، وقد نشأت فيها ، وليس فيها رجل ولا امرأة ولا صغير ولا كبير إلا عرفته وعرفنى فقال : وإن سألتك عن أحد فيها دللتنى عليه ؟ فقال : نعم ، فقال : دلنى على بيت عثمان بن الحبلة ، فسكت البقال طويلا ، وكأنه فى ذهول وحيرة ، ثم قال : إنى أبيع يا سيدى القرنفل والحبهان والفلفل وغيرها ، فقال بيبرس : ما سألتك عن شىء مما تبيعه ، ولكنى أحب أن تدلنى على بيت عثمان بن الحبلة ، فقال : خذ ما شئت من الدكان من دون ثمن هبة منى لك ، ثم لبس البقال حذاءه وترك بيبرس وخرج .

وكان قدام الدكان تاجر خضرى فأشار إلى بيبرس أن يجىء عنده فلبى إشارته وجلس بجواره ، فقال الخضرى ، ذلك البقال مجنون ، لا تستفيد منه شيئاً ، فحكى له بيبرس الحديث الذى دار بينهما ، فقال الخضرى : سلنى وأنا أجيبك ، فقال : أريد أن تدلنى على بيت عثمان بن الحبلة ، فقال : ليس فى هذه الحارة هذا الاسم ، ولن تجد أحداً يدلك عليه أبداً ، فارجع إلى بيتك ، وراقب ربك ، ولا تظلم الناس وتظلم نفسك . وهأنذا قد نصحتك .

عرف بيبرس أن الخوف من عثمان ملأ قلوب الناس فلم يجرؤ واحد منهم أن يدله على بيته ، فعمد إلى تدبير حيلة يعرف بها البيت دون أن يشعر إنسان ، وكان بهذه الحارة تنور عام ينضج الخبز للناس ،

فدبر الحيلة فى نفسه ، وذهب إلى ذلك التنور ، ودخل على صاحبه فضربه وشتمه وقال : لماذا أتلفت خبز سيدى عثمان بن الحبلة ؟ فقد أحرقت منه أحد عشر رغيفاً ، وسرقت خمسة أرغفة، فقال : أنا ما أتلفت لسيدى عثمان خبزاً مدة حياتى ، فقال بيبرس : لقد أمرنى سيدى أن أضربك بهذه العصا لأنك أتلفت خبزه ، فقال : هدئ من غضبك وارجع إلى أمه واسألها ، فإن قالت إنى أتلفت خبزاً لها فافعل ما تشاء ، فقال بيبرس : سر قدامى إليها حتى تسمع منها .

ومشى صاحب التنور وبيبرس من ورائه حتى كان ببابه وهمّ أن يطرقه ، فقال بيبرس : اصبر ولا تطرق الباب ، فقال : لا بد أن ندخل البيت لتعرف صدقى ، وأنى لم أتلف خبزاً ، فقال بيبرس: ليس فى أمرنا شىء مما سمعته ، ولكنها حيلة دبرتها لتدلنى على بيت عثمان ، بعد أن تعبت وعرفت أنى لن أجد إنساناً يدلنى عليه ، وهذه عشرة دنانير منى إليك ، فأخذها وقال : وهذا آخر أيامى بمصر ، فإنى لن أستطيع البقاء فيها ، وإلا قتلنى عثمان وقتل عيالى ، ثم رحل إلى بلده هو وأهله .

طرق بيبرس الباب فانفتح ، وبينما هو يريد الدخول بجواده ، إذا قطعة من الرصاص يرمى بها من صدر المكان المواجه للباب ، ولكنها لم تصبه ، وإذا بصوت يقول : اسكت يا ولد ، شلت يمينك ، كيف ترمى بالرصاص من يدخل دارنا ؟ ! وكان فرج عبد عثمان هو الرامى ، وكانت أم عثمان غزية الحبلة هى القائلة .

نزلت غزية إليه واستقبلته قائلة : أهلا وسهلا عدد ما مشيت من دارك إلى دارنا ، بوركت الدار بقدومك ، وأنا جاريتك ، وعثمان خادمك وعبده عبدك ، ونحن جميعًا فى زمامك وحماك ، فقال بيبرس : هل أنت أم عثمان ؟ فقالت : نعم ، يا فتى الفتيان ، وفخر الأبطال ، وملك الملوك ، وأمير الأمراء ، فقال لها : أحضريه فإنى أحب أن أراه ، فقالت : إنه فى مغائر الرميلة وملاعب أحمد بن طولون ، ولكنى لا أسمح لك أن تذهب إليه حتى تأكل زادنا ، وتشرب شرابنا ، لتكون عليك حرمتنا ، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا ، ثم أمسكت يده وصعدت به إلى حجرة واسعة وأجلسته ، فرأى أشياء كثيرة من حلل وعمائم وملاءات وغيرها ، فقال : يا أم عثمان ، أرى فى حجرات بيتك الأرضية أرائك وكراسى وأبسطة كأنه بيت من بيوت السادات ، وأرى فى حجراته العلوية أشياء مختلفة كأنها سوق الدلالين ، فقالت : هذه الأشياء التى تراها يخطفها عثمان من أصحابها أو يأخذها منهم كرهاً ، ومن امتنع عن إعطائه ما يريد قتله ، وتلك عادته ، وهذه عدة جوادك التى أتى بها اليوم ، وكشفت له عنها ، فعجب بيبرس وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأحضرت له الطعام الذى وضعته أمام ابنها عثمان وتركه ، فقال : كيف آكل ما فضل من غيرى ؟ فقالت : ما هو بفاضل من غيرك ، ولكنى قدمته لابنى عثمان ، فأخذ لقمة واحدة من الخبز والإوزة . وحكت

قصته ، فقال بيبرس : وهو الآن فى ملاعب أحمد بن طولون ؟ فقالت : نعم ، فقال : وإنى ذاهب إليه قبل أن آكل طعامك ، فإمّا هداه الله ، ورضى بخدمتى فى صدق وأمانة ووفاء ، وإما أتيتك برأسه وأرحت الناس من شره ، فقالت : سألت الله له الهداية والتوفيق ، ولكنك لن تخرج حتّى أقص عليك رؤياى التى رأيتها فى منامى الليلة الماضية ، وما قصصتها على أحد من قبلك . فقال : قصى رؤياك يا أمى ، فقالت : رأيت السيدة نفيسة رضى الله عنها وهى تقول لى : يا حبلة ، طيبى نفساً وقرى عيناً ، فإن عثمان ابنك قد أقبل سعده ، وذهبت شقوته ، وسيكون خادماً للملك السعيد ونصيره ، ورأيتك أنت فى يدها اليمنى ، وعثمان ابنى فى يدها اليسرى ، والنور يشع من وجهها ، فقلت لها : يا سيدتى ، من هذا الغلام الذى فى يدك اليمنى ؟ فقالت : هذا بيبرس محمود ، وسيكون ملكاً يؤيد بجهاده الإسلام ، وأما الذى فى يدى اليسرى فهو ابنك عثمان ، وسيكون له على يد الملك بيبرس شأن عظيم . فإذا أقبل إليك غداً فأكرميه ، وبلغيه سلامى ، وإذا طلب ابنك فدليه عليه ، فسينال الهداية على يديه . هذه رؤياى ، ولما رأيتك عرفت أنك أنت الذى كنت فى يد السيدة نفيسة اليمنى ، وإنى أوصيك بابنى خيراً ، فقال بيبرس : نسأل الله له الهداية ، ونسألك الدعاء لنا وله ، ثم ودعها وخرج .

١٥

ركب بيبرس جواده إلى مغاور الرميلة ، وأخذ يبحث عنه فيها مغارةً مغارةً حتى وجده فى السابعة بين رجاله يحضهم على قتل بيبرس قصاصاً له وثأراً ، وقد تأثروا من حديثه وشكواه حتى قام أحدهم صائحاً يقول : لا تبتئس فقد مات بيبرس ، وسأقتله الآن ، وأرجع إليك برأسه ، وتركهم ومشى نحو باب المغارة ، فوجد الأمير بيبرس واقفاً أمامها و « اللت » فى يده ، فارتد إليهم مسرعاً خائفاً ، فقال له عثمان : لم رجعت ؟ فقال : رأيت عجباً ، فقال : وما العجب ؟ فقال : رأيت الغلام الذى حدثتنا عنه ، وحرضتنا على قتله واقفاً بالباب ، فقال : رأيته هو نفسه ؟ فقال : نعم . فقام عثمان ومشى إليه ، ورجاله من ورائه ، فوجده واقفاً و « اللت » فى يده ، فقال له : أأنت جئت ؟ ! أما خفت من الموت ؟ ! فقال بيبرس : جئت لأخيرك بين أمرين لا ثالث لهما ، فإما رجعت أنت معى راضياً بخدمتى ، وإما رجعتُ أنا برأسك إلى أمك ، وأمنت البرية من شرك ، فاختر الآن ما شئت منهما ، فقال عثمان : خير لك أن ترجع من فورك قبل أن يخرج إليك رجالى من هذه المغارة فيقتلوك ، فقال بيبرس : اخرج أنت وليخرجوا معك ، لأعرفكم أقداركم ومنازلكم قبل أن أسحقكم ، فخرج إليه عثمان طامعاً أن يغلبه ويرديه . ولكن بيبرس

ضربه باللت فأوقعه ثم كتفه وقال : يا رجال عثمان ، يا شجعان ، من أراد منكم أن يغيثه وينجيه من يدى ، فليخرج إلىّ ، ومن أراد منكم أن يذوق طعم الموت فليأتنى ، فقالوا : خذه معك إلى حيث تريد ، فليس فينا من يروم قتالك من قريب أو بعيد ، فركب جواده ومشى ، وعثمان مكتف بين يديه ، حتى كان أمام باب الخلاء . قدام السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فقال عثمان : إننى لا أحتمل الخزى إن دخلنا المدينة ومشينا فى شوارعها وأنا على هذه الحال ، فإن فككت وثاقى خدمتك وكنت لك ، وإلا فإنى لا أخدمك وإن قتلتنى ، فظنه بيبرس صادقًا وأطلقه ، فأصلح عثمان حاله ، ولبس عمامته ، ومشى أمامه قليلا ، ثم انفلت مسرعًا إلى قبة السيدة نفسية ، ومد يده إلى قفل الباب فانفتح من غير مفتاح ، ودخل وأغلق الباب كما كان ، ثم جلس بجوار قبرها يدعو الله متوسلا بها أن يحميه ، ويدفع عنه الشر ولا يخزيه . وكان عثمان يختلف إلى زيارة قبرها كثيراً ، ويحسن إلى فقرائها كثيراً ، ويغدق العطاء على خدم قبرها كثيراً ، وذلك ما جعله يفر إليها ويتوسل بها .

جرى بيبرس خلفه ، ونزل عن جواده وقيده ، وأراد أن يلحق به فمنعه الخدم وقالوا : أما تخاف من الله ، كيف تجرى وراء رجل احتمى فى هذا المكان الطاهر ؟ أما رأيت أن الله قبل التجاءه إليه فى هذا المكان فانفتح له باب القبة من غير مفتاح ، ثم أغلقه أيضًا من غير مفتاح ؟ ! فقال : يا رجال ، هذا سائسى ، وهو هارب منى ، ولا أبغى له إلا

الخير والمناءة ، وأن أطهره من كل رجس وخطيئة . وما أردت ظلمه واضطهاده ، فقالوا : إن كنت صادقًا فيما ذكرت فدونك وباب القبة ، وعسى أن يفتح لك من غير مفتاح كما فتح له . فقال : أرجو من الله ذلك ، ثم وقف أمام الباب وقرأ الفاتحة ودعا الله أن يهيئ له من أمره يسراً وأن يعينه على هداية عثمان . وإخراجه من ظلمات الخطايا ، إلى نور الطاعة والاستقامة على دين الله ، ثم مد يده إلى الباب فانفتح ودخل فوجده منهمكًا فى الدعوات أن ينصره عليه . فأمسك كتفه ، وانتبه عثمان والتفت إليه فوجده ، فعجب أن جاءه فى هذا المكان الذى أغلق عليه بابه ، وقال : إنى لن أخدمك ولا أسير معك فلا تطلب المحال ، فقال بيبرس : أنت آمن يا عثمان ، فاهدأ قليلا . وادفع عنك هذا القلق والجزع ، واصبر حتى يظهر ما فى الغيب . فربما كان فيه الخير لى ولك ، وجلسا بجوار القبر هادئين ساكنين ، فأخذتهما معاً سنة من النوم . فرأى بيبرس فى منامه أنهما واقفان أمام السيدة نفيسة وهى تقول : يا بيبرس : رضيت أن يكون عثمان خادمك ، وأوصيك به خيراً ، وأنت يا عثمان ، كن سامعًا مطيعًا لبيبرس ، فهو الذى كان سببًا فى استقامتك على الطريقة المثلى . وكونا أخوين فى الله على يدى ، والله وليكما وهو خير الشاهدين . ثم استيقظ بيبرس فوجد عثمان يبكى ويقول : تبت إلى الله ، ورضيت بقلبى ودمى أن أخدمك ، وأن أطيعك ولا أعصاك ، فقد سمعت ما قالته السيدة نفيسة لى ولك ، ثم خرجا متواثقين على الإخاء والوفاء ، وفى

مسجد السيدة نفيسة علمه الوضوء وحفظه الفاتحة ، فقام عثمان وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم ذهبا إلى بيته ، فأدهشه أن عرفه بيبرس ، وسأله : ومن دلك على بيتى ؟ فقال : رجل من هذه الحارة ، فقال : عرفنى به حتى أقتله براً بقسمى ، فقال بيبرس : إنك قد حلفت قبل توبتك ، والآن قد تبت ورجعت إلى ربك والإنذار بالقتل من غير حق معصية ، ولا ينبغى أن ترجع إلى معصية تبت عنها ، فقال عثمان : وقد حلفت أيضًا أنى لا أدخل بيتى إلا ورأسك فى يدى ، فقال بيبرس : وأنا أيضًا أقسمت ألا أعود إلا برأسك إن لم تستقم وترجع إلى ربك ، فقال عثمان : وما العمل ؟ فقال : أما يمينى فهى صادقة بتوبتك ، وأما يمينك فقد أبطلتها توبتك ، وإن أردت أن أمسك رأسك وتمسك رأسى ثم ندخل على هذه الحال فلا بأس فى ذلك ، فقال عثمان : ومن علمك هذا الكلام الذى فيه حلاوة الشهد ؟ ! ثم دخلا ، فتلقتهما غزية الحبلة فرحة ، وبشرها عثمان ابنها فقال : افرحى يا أمى ، فقد استقمت على طريقة الله ورسوله ، وأصبحت أنا وهذا أخوين متحابين متعاونين ، بفضل الله والسيدة نفيسة رضى الله عنها ، ودعائك الطيب المستجاب ، فهنأتهما بما هديا إليه من الخير ، وأحضرت لهما مائدة فأكلا وشربا .

وقال عثمان : قم أنت إلى بيتك عند نجم الدين البندقدارى ، وسأمكث هنا لأقضى حاجة لى ، فقال بيبرس : وما حاجتك ؟ فقال : سأذهب إلى رجالى وأتباعى وأكشف لهم عن حياتى الجديدة ، وأعرفهم أن

ما ينهبونه من الأموال فهولهم ، وأقطع صلتى بهم ،فقال بيبرس : ولكن التوبة النصوح أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فعليك أن تنهاهم عن إيذاء الناس ، وتجعلهم يُنيبون إلى ربهم ويعملون الصالحات، فقال عثمان : ومن أين يأكلون ؟ إن رزقهم يجرى على الخطف والنهب ، فإذا رجعوا عنهما ماتوا جوعاً ، فقال : ادعهم إلى خدمتى وأنا أعطيهم من مالى ما يكفيهم ، فقال : إنهم كثيرون وربما لا تتسع أموالك ، فقال بيبرس : إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فهاتهم ورزقى ورزقهم على الله ، فقال عثمان : صدقت فيما قلت ، فاذهب إلى بيتك وانتظرنى فإنى راجع إليك بهم إن شاء الله . فودعه بيبرس وعاد إلى بيته .

أما عثمان فإنه مضى إلى رجاله وأتباعه فى مغاراتهم ، فتلقوه بلهفة وشوق ، وأخذوا يستنبئونه ويسألونه عما جرى له ، فلم يُخْفِ عنهم شيئاً وقال : قد جئتكم أدعوكم إلى التوبة والاستقامة والرجوع إلى الله الذى سيجمع الخلق للحساب يوم القيامة ، وأن نكون على شريعته أقوى ارتباطاً وأمتن صلة ، فماذا أنتم فاعلون ، فقالوا : أنت كبيرنا ، ولو خضت بنا البحر لخضناه معك ، فمرنا بما تشاء ، فنحن فى قبضة يمينك . ففرح عثمان بهم ، وقال لهم : قولوا كما أقول ، فقال وهم يرددون قوله : تبنا إلى الله ورجعنا إلى الله ، وندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا على ألا نعود إلى ارتكاب المعاصى ، وبرئنا من كل دين يخالف دين الإسلام ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم علمهم الوضوء ،

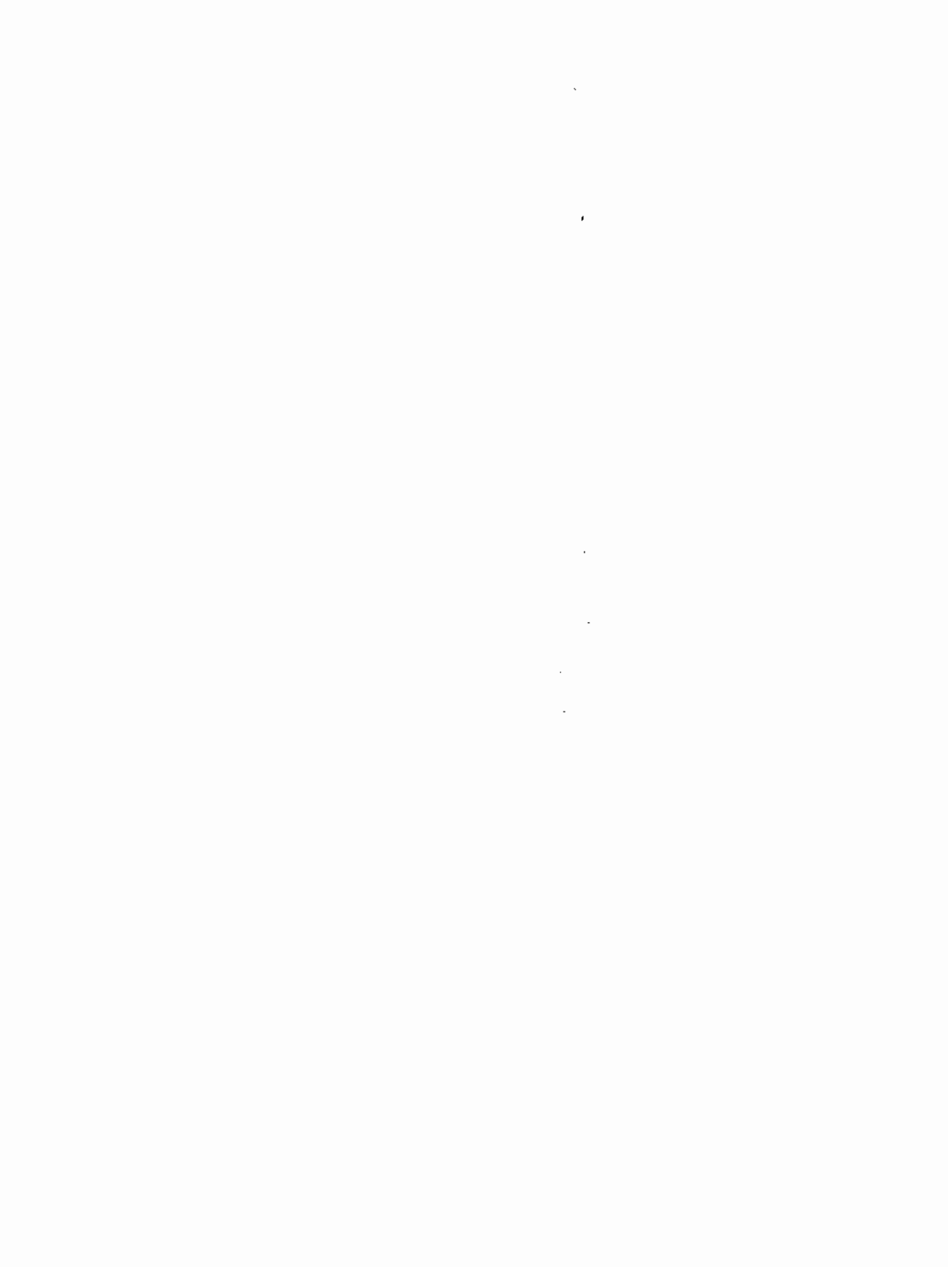
وحفظهم الفاتحة ، وسار بهم إلى مسجد السيدة نفيسة ، فصلوا وزاروا قبرها وقرأوا الفاتحة لها وللمسلمين ، ثم سار بهم إلى بيت صاحبه عند نجم الدين البندقدارى .

وحان وقت الظهر وهم سائرون أمام تاجر يبيع أوانى من الفخار ، فقال عثمان له : هات واحداً وثمانين إبريقاً وأعط كل رجل منا واحداً ، فقام التاجر وأحضر الأباريق ووزعها وهو خائف ، ولا يكاد يحمل نفسه من الرعب ، وسأله عثمان عن ثمنها فقال : سر على بركة الله ، فإن ثمنها قد وصل ، فقال عثمان : إنى تبت إلى الله ، وأنبت إليه ، فلا خوف عليك منى ،وخذ هذا الدينار ثمناً لها ، فأخذه التاجر وشكره، ثم ذهب عثمان بهم إلى بائع حبال واشترى لكل إبريق حبلا ، وأمر كل رجل أن يربط حبله بالإبريق ويعلقه فى كتفه ، ونقده ثمن الحبال وانصرف ، ثم أمرهم أن يملأوا الأباريق ويسيروا بها ، ليتوضئوا منها إذا أرادوا الصلاة فى أى مكان . ففعلوا ما أمرهم به وساروا وهم على هذه الحال .

وحار الناس فى أمرهم وظنوا بهم السوء وقالوا : ما هذه الأباريق إلا مملوءة خمراً ، وقد فعل هذا عثمان وجماعته استهزاء بأهل الطريق والسنة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة واحدة ، وعرف عثمان ذلك من حالهم فسلم على واحد منهم وأمره أن يشرب من إبريقه ، فلم يخالف الرجل له أمراً ، وشرب من الإبريق حتى ملأ بطنه ، ثم سأله عثمان ، هل شربت خمراً ، أو ماء ؟ فقال : ما شربت إلا ماء عذباً صافياً . فقال عثمان

له ولمن حوله من الناس : ما فعلت هذا إلا لأمحو من نفوسكم سوء الظن بنا ، وأعرفكم أننا تبنا إلى الله ، واستمسكنا بشريعة الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذوا طريقهم إلى بيت نجم الدين ، فلقيهم فيه بيبرس ، وجلس معهم فى ديوانه ، بعد أن سلموا عليه وقبلوا يديه ، ثم سألهم عن هذه الأباريق ، فقال عثمان : جئنا بها لنتوضأ منها كلما حان وقت الصلاة ، فقال بيبرس : اتركوا هذه الأباريق ، وعندكم الحنفيات فى هذا البيت ، تتوضئون منها فى سهولة كلما أردتم ، ثم قال : اعلموا أنى رجل لا أحب إيذاء الناس ، ولا أحب أن يجرى على أيديكم أذى كما كنتم فى ماضيكم ، فاتقوا الله فى السر والعلانية ، واعتصموا بحبل الله ، وأقيموا شعائر دينكم ، ولا تظلموا أحداً من خلق الله ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ولكم عندى بعد ذلك ما تطلبونه من المال ، ورزقى ورزقكم على الله . وأعطى كلا منهم خمسين ديناراً ، وثمن حلة يشتريها حسب رغبته وهواه . وقال لهم : إذا نفد ما أعطيتكم من المال فاطلبوا غيره من عثمان ، وعليه أن يطلب منى حاجتكم ، وذلك لئلا يمنعكم الحياء من طلب ما تريدون ، واعلموا أننى أحبكم وأحميكم ما دمتم مستقيمين ، فإن جار أحدكم وظلم أذقته العذاب الأليم ، ثم انفض الجمع وذهب بهم عثمان إلى عقيرب ليقوموا بالخدمة فى الإصطبل وغيره ، ولما أذن المؤذن لصلاة العصر ذهب عثمان وعقيرب ورجالهما فتوضئوا ، ثم جمعهم عثمان وراءه وأمهم فى الصلاة ، ولما قرأ نصف الفاتحة التفت إليهم وقال :

اعتدلوا وسووا صفوفكم ، ثم بدأ يقرأ النصف الباقى منها ، وكان بيبرس يرى ويسمع فقال له يا عثمان ، بطلت صلاتكم بكلامك ، لأن الكلام فى الصلاة يبطلها ، فابدأ فى الصلاة من جديد ، فنوى صلاة العصر مرة ثانية ، ونوى الرجال الصلاة معه أيضًا ، ولما ركع أنفذ رأسه من بين رجليه وقال : يا عقيرب : اجعل قدمك بجانب قدم أخيك ولا يتأخر أحدكما عن صاحبه ولا يتقدم ، فقال بيبرس : يا عثمان ، قلت لك إن الكلام فى الصلاة يبطلها ، فقال عثمان : كان الكلام فى المرة الأولى ونحن وقوف ولكنه فى هذه المرة ونحن راكعون ، فقال بيبرس الكلام يبطل الصلاة ما دمت فيها سواء أكنت قائمًا أم قاعداً ، راكعًا أم ساجداً . فبدأ بهم صلاة جديدة وصلوا ، ولما فرغوا من الصلاة أمسك المسبحة فى يده ، وجعل يصلى على النبى ، وهم يرددون قوله .



عثمان بن الحبلة

١

خرج بيبرس ذات يوم ومن ورائه عثمان وجماعته، وكان بيبرس قد وضع « البرنس » على رأسه قاصداً دكان أخيه كريم الدين ، فلما أقبل على الدكان نهض إليه كريم الدين فحياه وأجلسه، والتف حوله أبناء الحارة يحيونه، وسأله الشيخ يحيي: لم أرك يا ولدى منذ ثلاثة أيام فأين كنت؟ قال بيبرس: كنت أبحث عن خادم أستريح له وأطمئن إليه ويقوم بخدمة الجواد، فوجدت رجلاً طيباً، فقال الشيخ: ومن يكون هذا وما اسمه؟ فقال : رجل يسمى عثمان ابن الحبلة . وذكر له قصته كاملة ، كان الشيخ يحيى فى شبه إغماءة غرق فيها حينما سمع اسم عثمان بن الحبلة، فلم يفهم ولم يع من قصة بيبرس شيئاً، وجلس ساكتاً ساكناً لا يتحرك ، فسأله بيبرس مندهشاً : ماذا جرى يا سيدى الوالد ؟ ! فقال : هذا رجل لا يقعد عن الأذى وما سلم من شره أحد – وكأنه لم يسمع شيئاً مما قصه عليه بيبرس – فقال بيبرس : لا تخف من الآن ، فقد تاب عثمان ، وصار لا يجرى على يديه إلا كل خير فهدئ من روعك ، وسآتيك بكل ما أخذه منك ، ثم أعاد عليه القصة .

فقال الشيخ : إذا كان الأمر كما قصصت فالزم جوارى فإنى لا أزال منه

خائفاً ، فقال بيبرس : لا تخف أبداً فإنى أفتديك بنفسى . فاعتدل الشيخ فى جلسته ، وسكن روعه ، وأخذ يتحدث إلى بيبرس .

عرف أبناء الحسينية أن عثمان ورجاله أصبحوا خدماً لبيبرس ، فهالهم ذلك الأمر ، وقالوا : ما لنا بعد الآن قيمة عند بيبرس . فقد استغنى بعثمان وجماعته عنا ، ولهذا سلموا عليه ومضوا إلى سبيلهم .

كان عثمان وعقيرب ورجالهما قد وقفوا بعيداً عن الدكان ، وحذر عثمان عقيرباً من أن يفلت من الحارة رجلا من أبناء الحسينية ، لأن فى نيته أن يلتقى بهم ، لأمر فى نفسه ، لا يعلمه أحد .

ومر بعثمان رجل كان جالساً فى الدكان ، وقد وضع العباءة على رأسه ، فأشار إليه بيده ، فجاءه يجرى مسرعاً ، وأمسك عمامته ، ومد بها يده إليه ، فقال : إنى تبت فالبس عمامتك ، فقال الرجل : خذها منى ، ثم تُبْ ، واتركنى أمضى لشأنى ، فقال عثمان : اسمع ما أقول : البس عمامتك وامض إلى كريم الدين وقل له : كلم رجلا فى مكانى هذا ، واحذر أن يعرف منك أنى عثمان ، فقال الرجل : سمعاً وطاعة ، ورجع إلى الدكان يتعثر فى أذيال خوفه ، وبلغ كريم الدين الرسالة ، فسار معه إلى عثمان ، فلما رآه كريم الدين اصفر وجهه من الخوف ، فقال عثمان : لا تخف يا كريم الدين فإنى تبت وأصبحت خادماً للأمير بيبرس ، فهدأ كريم وقال : بلغنا ذلك ، ونشكر الله الذى جعلك أخانا ، ونسأله أن يعطيك ما تتمناه ، فقال عثمان : إنى سائلك عن حاجة فاصدقنى فيها ، فقال : وما هى ؟ فقال له عثمان : إنى

أرى أبناء الحارة يأكلون عندك الحلوى ، ويشربون العرقسوس ، ولا يعطونك ثمناً ، فكيف ذلك ؟ فقال كريم الدين : إنهم يأكلون ويشربون أربعة أشهر كاملة على حساب الأمير بيبرس ، فقال : امض الآن إلى دكانك ولا تخبر الأمير ولا غيره بشيء مما دار بيني وبينك ، فرجع وما أبدى لأحد شيئاً .

وقف عثمان فى مفترق الطرق ينتظر أبناء الحسينية وقد غطى رأسه بالملاءة ، فلما أقبلوا كشف عن رأسه وظهر لهم ، ولما عرفوه ذهلوا وثبتوا فى مكانهم ، لا يعرفون من خوفهم أين يذهبون ، فقال لهم : هل تعلمون أنى أخدم الآن الأمير بيبرس ؟ فقالوا : لا نعلم شيئاً من هذا ، فقال : اعلموا أنى ورجالى فى خدمته ، وقد بلغنى أنكم تأكلون فى الدكان وتشربون أربعة أشهر كاملة ، وأنتم لا تعطون صاحب الدكان ثمن ما أكلتم وما شربتم ، وقد جعلنى وكيلا لأحصل له ثمن البضاعة حتى لا يفلس ، فقالوا : كنا نأكل ونشرب على حساب سيدك بيبرس ، فقال : وهل كان من أقربائكم أو من أصحابكم حتى يطعمكم ويسقيكم ولا يأخذ منكم شيئاً ، فحاسبونى وإلا أنزلت بكم ما تكرهون ، فقالوا : الحساب معروف وظاهر كل منا عليه مائة وعشرون جديداً ، فقال : رضيت بحسابكم هذا ، فأعطونى ما عليكم ، فقالوا : خذ ما معنا ، أما الباقى فنظرة إلى ميسرة ، فقال : لا إمهال ولا نظرة ، ثم ناولوه ما معهم ، وسألهم عن الباقى فقالوا : ليس معنا كثير ولا قليل ، فقال : ملابسكم تفى بما بقى عليكم .

فجردهم من كل شيء إلا ثوباً واحداً لكل منهم يستر به جسمه . ثم جمع كل هذا ووضعه بجانب الدكان وجلس فوقه ، أما أبناء الحسينية فقد عزموا على ألا يتصلوا بالأمير بيبرس ولا يعرفوه ما دام عثمان بن الحبلة معه . ولكن عقلاءهم قالوا : ذلك العزم لا يمنع الآن من إخباره بما حصل لنا من عثمان ، فلعله ينقذنا من هذا الموقف الشائن الحرج ، فقالوا : إن عثمان عنده . ونخشى أن يصيبنا بشره . فقال العقلاء : ولكن هذا الأمر لا بد منه وإن أوذينا ، فساروا ووقفوا أمام الدكان . رآهم بيبرس على هذه الحال فاضطرب وغضب وقال : من فعل بكم هذا أيها الإخوة ، فقال أحدهم : أصابت عمامتى نجاسة فأرسلتها إلى البيت لتغسل وقال آخر : أرسلت حاجات البيت فى ملابسى وعمامتى ، وقال آخر : أعطيت الخياط ثوبى ليرقع فتقاً فيه : وقال آخر : أعجبت ملابسى الحدأة فخطفتها وطارت . وقال آخر : أكل الفأر ردائى ، فأرسلته إلى الرفاء ، واتسع الهذيان أمام بيبرس فقال : ذلك قول أقرب إلى الهذيان منه إلى الحقيقة ، فقولوا الحق ولا تخافوا ، فقال أحدهم : عهدناك فطناً لبيباً . تكفيك الإشارة . وما فعل بناهذا إلا واحد من أتباعك ، وليتنا ما عرفناك ، ولا جمعتنا بك الأيام ، ثم أشار بأصبعه إلى عثمان وقال : لا إله إلا الله ، واحد أحد ، لا شريك له ولا ولد .

فهز بيبرس رأسه وغضب وخرج من الدكان فوجد عثمان جالساً فوق ملابسهم وعمائمهم ، فقال : ما هذا الذى معك يا عثمان ؟ فقال : ملابس

عرائس ، فقال : هل رجعت فى توبتك ؟ فقال : لا وربك ما رجعت فى توبتى ، ولكنى اشتريتها وليس فى الشراء ظلم ولا حرمة ، واسألهم يجيبوك. فالتفت إليهم وأذهب خوفهم وسألهم ، نقصوا عليه قصتهم ، فقال : ولم فعلت ذلك يا عثمان ؟ فقال : ذلك أقل واجب علينا أن نفعله ، فهؤلاء من مصر ، ولكل منهم صناعة يستمد منها رزقه ورزق عياله ، فلما فتحت لهم أبواب كرمك ، تركوا صناعاتهم ، وأبطلوا استفادة الناس منهم ، وأصبحوا متعطلين كالعضو الأشل فى الجسم السليم ، أربعة أشهر غير منقوصة ، وهم عالة عليك وما يشعرون ، وإن أموالك وإن كثرت فلا بد أن تنفد على كثرة الإنفاق ، فهم بذلك قد أساءوا إلى أنفسهم وبلدهم وإليك ، ولهذا كان ما فعلته بهم قليلا ، وما ينبغى لهم إلا التعذيب والتعذير ، فقال : سامحهم من أجلى وأعطهم ما أخذته منهم . فقال عثمان : خذوا أشياءكم وائتونا غداً لتأكلوا وتشربوا ، فقالوا: إن رأيتنا بعد ذلك فألقنا فى النار ، ثم انصرفوا .

٢

وذات يوم ركب بيبرس جواده وخرج من باب المقابر إلى الخلاء وعثمان معه ، فما أبعد قليلا فى الفضاء حتى أمسك عثمان جواده ، ومنعه أن يسير وقال : أخبرنى قبل أن تخطو بجوادك خطوة واحدة : إلى أين تذهب ؟ وما غرضك من السير فى هذا الخلاء ؟ فقال بيبرس : ولأى شىء تسأل عن ذلك يا عثمان ؟ فقال : لقد فهمت ما فى نفسك وما نويت أن تفعله ، فقد أردت أن تحتال وتخدعنى . لتأخذنى إلى الوزير لتقتلنى وهو الذى كلفك هذا .

فقال : حاشا أن أخون عهداً قطعته لك ، فقال : ألم تعلم بأننا عدوان ، لأننى أسأت إليه فأهدر دمى، ولهذا فلست سائراً معك أبداً . فقال له : لا يخيفنك وزير أو أمير ما دمتُ حيًّا ، ولن أفرط فيك يا عثمان ، فكن آمناً ولا تخش أحداً ، وسر معى إليه ، فقد أردت أن أصلح بينكما ، وما أردتُ إلا الخير . وعسى الله أن يوفق بينك وبينه ، فقال : حينئذ سر يا أمير ، ولا تخف من سلطان أو وزير .

دخل بيبرس بيت الوزير وصعد إليه فى ديوانه، أما عثمان فقد جلس مع سواس الوزير ، فى مكان تطل عليه نافذة الديوان ، فقال عثمان لكبير السواس ، يا غلام ، وأشار إليه بيده أن يأتيه ، فعجب وقال

فى نفسه : ما هذا التكبر الشائن . كيف ينادينى هذا السائس من دون السواس وأنا كبيرهم . وكيف يشير إلى بيده كما يفعل المتغطرس المعجب بنفسه . ومع هذا فلا بأس من تلبية إشارته لأعرف ما يريد ، وبعد ذلك نجازيه على تكبره وغطرسته ، فلما كان أمامه تأمل فيه وعرفه ، فارتمى على يديه لثماً وتقبيلا ، وقال : مرحباً بجدى ، ومن هو أحب إلى من مالى وأهلى ، ورأى الغلمان من كبيرهم ما فعله . فقاموا إلى عثمان وقبلوا يده ،وانتظروا أمره . فقال لهم : خذوا هذا الجواد ليرتاض، فأخذه كبيرهم وساسه وراضه . والغلمان واقفون من حول عثمان يتسابقون إلى تنفيذ ما يريد .

أما الوزير شاهين فإنه فرح بقدوم بيبرس وقال له : لم نرك منذ أربعة أيام . فلأى شيء هذه الغيبة الطويلة ؟ ! فقال : سمعت نصحك ، وقمت بالبحث عن خادم خاص بى فى هذه الأيام حتى وجدته، فقال الوزير : لعله من الطيبين ، فقال بيبرس : ظهر أنه رجل عظيم الخصال ، قليل المثال . فصيح اللسان ، قوى البيان . فقال : شوقتنى إلى رؤيته ، فما اسمه ؟ فقال بيبرس : أخشى إن ذكرت لك اسمه تغير الحال ، فقد أخبرنى بماحصل له ، ووصانى أنى لا أذكر اسمه لأحد، فقال الوزير : أخبرنى فقد يكون هذا الذى خطر الآن ببالى ، فقال : اسمه عثمان بن الحبلة .

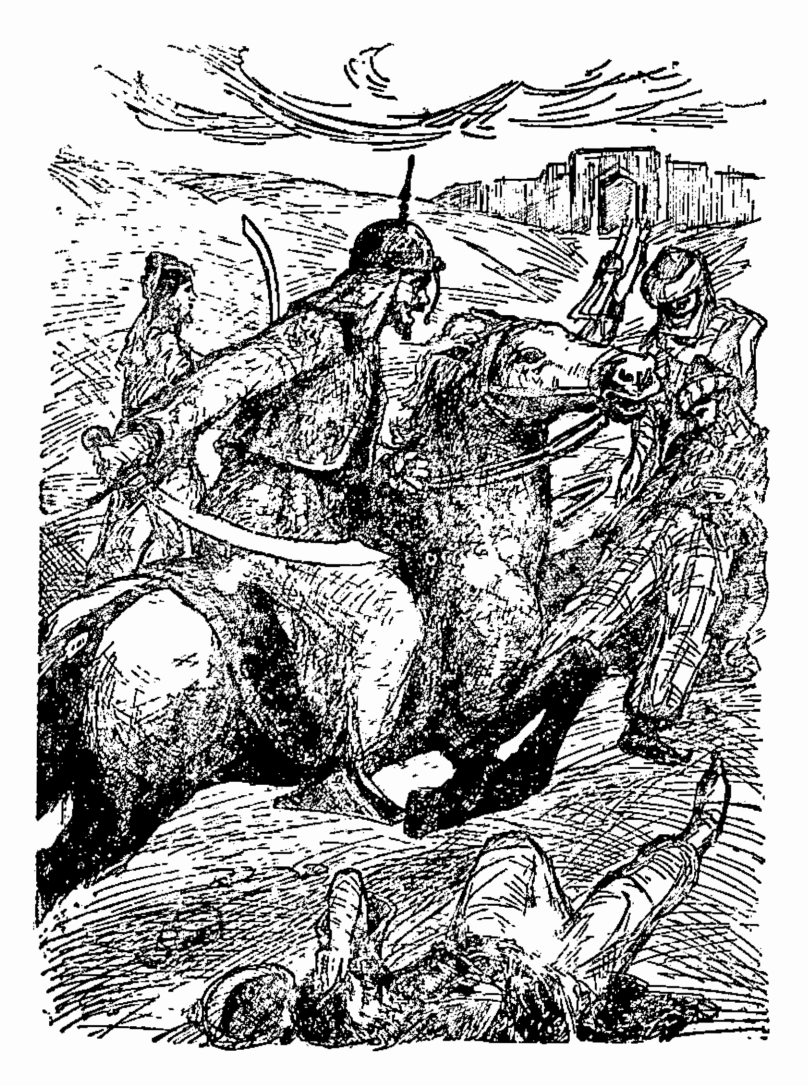
فزع الوزير شاهين وجزع حينما سمع اسم عثمان وقال : هذا فراق بينى وبينك ، ولن أجتمع بك بعد ذلك . هذا رجل جبار لا دين له ،

يقتل الأنفس ، ويؤذى الناس ، فقال بيبرس : كان ذلك فى عهده الأول وأيامه السابقة ، أما هو الآن فقد تاب ، وحكى له قصة توبته ، فقال ، إذا كان الأمر كذلك فادعه إلينا .

وأطل بيبرس من النافذة ، ونادى عثمان ، فجاءه مسرعاً ولما أهل عليهما قام إليه الوزير وسلم عليه ، ثم جلس عثمان بجانبه ، فجعل بيبرس يغمزه ويشير إليه : أن اجلس بعيداً عنه تأدباً ، فقال عثمان : لأى شىء تغمزنى ؟ الأرض أرض الله ، أجلس فيها حيث شئت ، فقال الوزير شاهين : دعه يا بيبرس يجلس حيث يشاء ، وأعلن صفحه عن عثمان ، ونسيان الماضى ، وأخذوا يتحدثون ، ثم حضر الطعام فأكلوا وشربوا ، ثم استأذن بيبرس أن ينصرف ، فأذن له الوزير ووصاه أن يأتى إليه كل يوم ليعلمه فنون القتال وضروب الطعن والنزال ، فوعده بذلك ، وصحب عثمان إلى بيته .

وكان بيبرس يختلف إلى الوزير كل يوم ويعلمه أبواب القتال ، حتى كان له فى الحرب قدم راسخة وقدرة لا تسامى .

حسد مماليك الوزير بيبرس على محبة الوزير له ، فأصروا على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يلبسوا ملابس العرب ، ويكمنوا له فى طريق عودته من بيت الوزير ، وحينئذ يهجمون عليه ليلا وهو راجع إلى بيته ، فيقتلونه ويقتلون عثمان معه ، فركبوا خيلهم واجتمعوا وكمنوا وارتقبوا مجىء بيبرس وعثمان .



بيبرس (فى ملابس المماليك) راكباً جواداً ومن خلفه عثمان بن الحبلة (لابساً ملابس السواس)
وقد هجم عليهم جماعة من المماليك فى ملابس الأعراب ، وقد بدأ بيبرس يتغلب عليهم

وفى تلك الليلة أبقى الوزير بيبرس عنده إلى أن انتصف الليل ثم أذن له بالانصراف ، يريد بذلك أن يروضه على المسير ليلا حتى يقوى قلبه وتعظم جرأته ، وقال عثمان : خذ حذرك يا سيدى فإن قلبي يحدثنى بغدر مبيت ، فقال بيبرس : يا عثمان : نحن قوم نؤمن بالله ، وقد توكلنا عليه ، ونستمد منه العون والحماية .

وفى منتصف الطريق خرج على بيبرس وعثمان جماعة يقولون : إلى أين تذهبون ؟ إنا لكم هنا بالمرصاد ، فقال بيبرس : يا عثمان ، دونك وإياهم . وأنا معك باللت الدمشقى ، والله تعالى معنا ؛ فما لبث هؤلاء المرتقبون أن رأوا الضرب منصباً عليهم انصباب المطر ، والأمير يصيح فيهم : أنا بيبرس ، وسأذيقكم مرارة البأس والنحس ، ووجد هؤلاء الاستسلام محتوماً ، فترجلوا وقالوا صائحين : لا تؤاخذنا يا بيبرس فإنا ما عرفناك ، ولو عرفناك ما طلبناك فسكت عنهم وسألهم وكان قد عرفهم : ما الذى جاء بكم إلى هذا المكان فى هذا الوقت من الليل ؟ وماذا كنتم تريدون ؟ فقالوا : تواترت لدينا الأخبار ، بأن جماعة من الأشرار يأتون ليلا إلى هذا الطريق ، فيقتلون السالكين وينهبون أموالهم ، فاتفقنا على أن نجىء إليهم ونترصدهم ونضرب على أيديهم ، حتى لا يعودوا هم أو غيرهم إلى إزعاج السابلة . وانتظرنا فى هذا المكان ورأينا شخصاً قد ظهر ، فظننا أنه منهم ، فهجمنا عليه وإذا به الأمير بيبرس ، والحمد لله الذى سلمك ونجاك ، فلا تؤاخذنا بما فعلنا ، وكفانا ما نزل بنا من الهوان ،

فظن بيبرس أنهم صادقون وقال : امضوا الآن إلى سبيلكم ولا تعودوا لمثل هذا. فقالوا : جزاك الله كل خير ، ووقاك كل ضير ، والتفت إلى عثمان قائلا : سر بنا واتركهم وشأنهم . فقال عثمان : إننا الآن قد عرفنا أنهم مماليك الوزير شاهين ، وقد تصيبهم مضرة فى طريقهم إن نحن تركناهم يمضون وحدهم ، والرأى عندى أن أرافقهم إلى بيت الوزير ، أما أنت فامض فى سبيلك وسآتيك بعد أن أطمئن عليهم بوصولهم ، فشكره الأمير وتركهم معه ، وهو لا يدرى ما يفعله بهم . .

ولما بعد بيبرس عن عثمان قال للمماليك : انزلوا عن خيولكم ، وانزعوا عنكم ثيابكم وإلا أفنيتكم بهذه « الرزة » وهى عصاه الغليظة التى كان يؤذى بها الناس أيام تمرده وفجوره ، فنزلوا جميعهم على إرادته ، وأخذ عثمان الخيل والثياب وتركهم ، ومضى إلى سيده بيبرس ، ولم يخبره بشىء مما فعله .

وعنّت للوزير شاهين عند مماليكه فى غيبتهم حاجة ، فدعاهم إليه واحداً واحداً فوجد الدار خالية منهم ، فنزل إلى البواب وسأله عنهم ، فقال والخوف باد على وجهه : خرجوا أجمعين لزيارة الإمام الشافعى ، فاغتاظ الوزير وقال : كذبت ، وهل فى هذا الليل زيارة ؟! ورب الكعبة إن لم تصدقنى الخبر قطعت عنقك ، فقال : أعطنى الأمان أيها الوزير ، فقال : لك الأمان منى ومن أى إنسان . فقال : غاظهم صداقتك للأمير بيبرس وحبك إياه، فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، وخرجوا

يترصدونه فى طريقه ليهلكوه ، فعجب الوزير وقال : خاب فألهم ، فإنه كفء لهم ولأمثالهم ، ومعه عثمان الذى لا يفزعه إنس ولا جان . وإن صدق ظنى فإنه سيسلبهم خيلهم وثيابهم ويتركهم عراة فى الفلاة . وإنى لن أغفر لهم خطيئتهم هذه ، وسيلقون منى جزاءهم ، ثم أمر الفراشين أن يشعلوا القناديل فى الفناء ، ثم جلس فيه وأحضر بجواره سوطاً متيناً و « فلقة » وأمر البواب ألا يفتح لهم الباب إلا بعد ساعة من قدومهم ، ولبث الوزير بعد ذلك ينتظرهم ، وكان الوقت وقت الشتاء .

أقبل المماليك نادمين خائفين أن يشعر بهم الوزير ، فيصب عليهم جام غضبه ، فطرقوا الباب طرقاً خفيفاً ، وهم يتهامسون متواصين بالهدوء والسكون ، وبعد ساعة فتح البواب لهم ، فدخلوا مسرعين . وهالهم أن وجدوا الوزير ينتظرهم فى الفناء وقد انتشر فيه ضوء كأنه ضوء النهار ، فنكسوا رؤوسهم خزياً وحسرة ، وجمدوا فى مكانهم . فأغفل الوزير أمرهم ساعة ، ثم سألهم : أين كنتم ؟ ومن فعل بكم هذا ؟ فقالوا : خرجنا على الخيل لزيارة الإمام ، فوقعنا فى الطريق فى يد جماعة من العرب ، فنهبوا خيلنا وثيابنا ، ولولا أننا تركناها لهم ما نجا من القتل واحد منا ، فضحك الوزير ساخراً من قولهم ، وأمر أن توضع أرجلهم فى « الفلقة » واحداً واحداً ، ثم أوجعهم ضرباً بالسوط حتى ذاقوا أليم العذاب ، وأمرهم أن يذهبوا إلى أماكنهم ويلبسوا ملابسهم .

أرسل الوزير أربعة من خدمه إلى بيبرس يدعونه إليه فى الحال ،

فلبي الدعوة لساعته ، وسار هو وعثمان معهم حتى كان فى مجلسه ، فقص عليه الوزير ما فعله عثمان بمماليكه . فقال : ما علمت بشىء من ذلك ولا أخبرنى عثمان بما فعله ، فقال الوزير : وحق ذى الجلال ما فعل عثمان إلا خيراً ، وما هو إلا بطل عظيم ، وباتوا تلك الليلة هانئين ، وفى ظهيرة غدهم رجع بيبرس وعثمان إلى بيت نجم الدين .

٣

وفى يوم سبت رغب بيبرس فى النزهة والترويح عن النفس فركب الجواد ومعه عثمان وسارا حتى كانوا فى سوق السبت ، فوجدوا رجلا فقيهاً جلس يبكى على باب مسجد صغير يسميه الناس «زاوية» فقال بيبرس : انتظر يا عثمان حتى أعرف ما أصاب هذا الفقيه وأبكاه ، فقال عثمان : وما شأنك أنت ؟ وما الذى حملك على ذلك ؟ فقال : سر أنت إليه واعرف حالته ثم أخبرنى ، فقال عثمان : أنت صُدْعُك ملكك ، فسر أنت إليه ، فنزل بيبرس عن جواده ، ولما كان عند الفقيه قال : السلام عليك يا سيدى ، فلم يرد عليه واستمر فى بكائه وشكواه من الملك الصالح ودعواته عليه ، فقال بيبرس : ما الذى أبكاك يا سيدى ؟ أخبرنى فعسى الله أن يكشف الضر عنك ، ويسبغ عليك خيره ، فقال الفقيه : دعنى يا بنى فى همومى وأحزانى ، وما ابتلانى به ربى ، فقال بيبرس : وما بَلْوتُك يا سيدى ؟ فقال : اعلم يا سيدى أنى خادم فى هذه « الزاوية » أكنسها وأملأ حوضها بالماء ، وأؤم الناس فى الصلاة ، ولى فى ذلك كل شهر أربعة قروش ، آخذها من « مطبخة العسل » لأنها موقوفة على هذه « الزاوية » والقائم على إدارة « المطبخة » عزرا اليهودى ولى عنده أجرة أربعة أشهر . وبينما أنا جالس صباح هذا اليوم إذ أقبلت ابنتى وبشرتنى بأن أمها وضعت ابناً لى وسمته محمداً ، وقالت : قم واقض حاجة المنزل وأعط القابلة أجرتها

فذهبت إلى عزرا اليهودى ، ورجوت منه أن يعطيني شيئاً من أجرتى ، لأن زوجتى وضعت ، فقال : وبماذا سميت المولود؟ فقلت : سميناه محمداً ، فلطمنى بكفه على وجهى وقال : وهل ضاقت عليك الدنيا فلم تجد إلا هذا الاسم ؟ قم من أمامى واذهب إلى بيتك وغير اسم ابنك المولود إلى شمعون أو عزرا ، ثم ارجع إلى لأعطيك أجرتك ومعها مائة دينار ، واعلم بأنك إن لم تغير اسم ابنك فلن أعطيك درهماً واحداً ، فتركته إلى باب « الزاوية » وجلست باكياً شاكياً كما ترى ، وهذه بلوتى فإن كنت من ذوى المروءة والنجدة فادفع عنى هذه البلية بقدر ما تستطيع ، والله تعالى يجزيك عنى خير الجزاء ، فقال بيبرس : تعال معى إلى « مطبخة العسل » لأعطيك حقك واقتص ممن ظلمك ، فقال عثمان : دعنى أنا أسير معه ، وأقتص من ظالمه ، فقال بيبرس : لا بد من أن أكون معه ، فقال عثمان : لنذهبْ نحن جميعنا ، وسترى من يقتص من الظالم ؛ أنا أم أنت . وسار جميعهم إلى « المطبخة » ونزل بيبرس عن جواده أمام بابها ، وقال : امسك يا عثمان هذا الجواد حتى آتى إليك ، فقال : عثمان : لا بد من دخولى معك ، وإلا فانتظرنى أنت حتى أعود إليك ، وبينما هما يتحدثان إذ أقبل سائل فعرفه عثمان وكشف عن رأسه وقال : تعال يا ولدى سمعان ، فأقبل مسرعاً إليه وقبل يده قائلا : نعم يا جدى ، فسأل بيبرس : من هذا يا عثمان ؟ فقال : مراوحى ، فقال : ولكنى لم أر معه مراوح ، فقال : إنه لا يبيع مراوح ، ولكنه لص يسرق الأحذية من المساجد ، فعجب بيبرس وقال : وما مرادك ؟ فقال :

مرادى أن يقف سمعان عند الجواد حتى نعود إليه، فقال: ربما أخذ الجواد ومضى لشأنه ، فقال : لن يكون ذلك ، فإنه يخاف منى أكثر مما يخاف من ربه .

ودخلوا المطبخة فوجدوا فيها مصطبة عليها سرير من خشب الساج ، وعليه حشية قماشها من الحرير ، وقد جلس فوقها عزرا اليهودى .

فقال له بيبرس : ألهذا الفقيه أجرة عندك ؟

فقال : نعم . قال بيبرس : إذن ، أعطه أجرته .

فقال عزار : يا سيدى ، هذا الفقيه رجل خبيث ، رزق بولد فسماه محمداً ، وأخذ يتفوه بألفاظ نابية عن النبي صلى الله عليه وسلم ودينه وشريعته ، فرفع بيبرس يده بالالت الدمشقى وضربه فى رأسه فهوى على الأرض ساكتاً لا يتحرك ، وكانت هذه الضربة آخر عهده بالدنيا . ولما رأى ذلك عمال المطبخة أسرع أحدهم شاهراً سيفه يريد قتل بيبرس ، ولكن عثمان ضربه بعصاه على رأسه من خلفه فأرداه قتيلا : وعتب بيبرس على عثمان إذ قتل نفساً بريئة بغير حق ، فقال : لم يكن مؤمناً ولكنه يهودى مثله ، وخرج إذ ذاك رجال المطبخة فشكروا لهما قتل اليهوديين ، وقالوا : كل منهما أفسق من صاحبه وأشد بغضاً للإسلام وأهله ، وكثيراً ما اجترحا الخطايا وارتكبا أشنع الآثام والكبائر . فقال بيبرس : أتشهدون بذلك أمام الملك الصالح؟ فقالوا : نعم ونشهد بأكثر من هذا ، فقال : يا عثمان اذهب إلى محكمة بولاق وائتنى منها بكاتب يكتب وثيقة بشهادة هؤلاء الرجال ، وأنا هنا فى انتظارك .

كان قاضي محكمة بولاق قد ضربه عثمان ثلاث مرات حتى لزم بيته من شدة ما أصابه، ولم يذهب إلى المحكمة إلا فى هذا اليوم ، فلما جلس فيها إلى ضحوة النهار لم تعرض عليه قضية ولم يأته أحد ، فقال لرسله انتشروا فى الحارات ونادوا : يا طالب الرسول ، فلعل الله يسهل لنا بقضية نرزق منها، فقالوا ما فعلنا ذلك قطّ ، فقال : الضرورات تبيح المحظورات ، ونحن لا نملك شيئاً نأكل منه ونطعم عيالنا ، فذهب الرسول وجعل ينادى : يا طالب الرسول ، فنادته امرأة قائلة : يا بياع الغسول ، فقال لها : قبح الله وجهك ، ولا رحم أمواتك ، أنا رسول من بيت القاضى ، فإن كان زوجك ضربك أو أهانك أو طلقك فدليني عليه ، وأنا آخذه إلى القاضى لينصفك ويجزيه بفعله ، فقالت : لاصبحك الله بخير ، أتشير علىّ بطلب زوجى إلى بيت القاضى ؟ لا كنت ولا كان قاضيك ، ثم صرخت فاجتمع إليها نساء الحارة وأوجعنه ضرباً وشتماً ، ثم رجع إلى القاضى ، وقال : رأيت الناس جميعهم فى فرح وسرور ، وكذلك رجع زملاؤه وليس معهم رجل ولا امرأة .

وكان عثمان إذ ذاك واقفاً بباب المحكمة ، فلما رآه القاضى نهض إليه مسرعاً ، وقال أهلا وسهلاً ، اطلب ما شئت فإنى خادمك ، لقد مرضت طويلا ولم أحضر إلى المحكمة إلا فى هذا الصباح ، فقال عثمان : جاءت بى إليك مسألة شرعية ، فقال : هى مقضية بإذن الله على ما تراه ، وكما تريد ، فقال عثمان : تنقل المحكمة برجالها وأثاثها إلى حيث أمضى ، فحزم عثمان

الفرش وأمر واحداً أن يحمله . وجعل كل اثنين يحملان أريكة ، وأمر القاضى أن يحمل الجب «الزير» وفيه ماؤه ، وسارت المحكمة على هذا النحو والناس ينظرون شامتين بالقاضى ، فهذا يقول: لقد طلق منى زوجتى . وذلك يقول : لقد حبسنى عشرة أيام ، وآخر يقول : حكم على بستين فضة ، ولما وصلوا إلى مطبخة العسل ورآهم بيبرس قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، يا عثمان ،لقد أمرتك بإحضار كاتب ،فلم فعلت ذلك ؟ فقال : لا ينبغى إلا هذا . فالفرش والأثاث للجلوس ، والعصى للضرب إذا احتجنا إلى ضرب أحد ، و « الزير » بمائه للشرب منه لأن ماء هذا المكان نجس ، فاعتذر بيبرس إلى القاضى وأجلسه ، فقال : إنى مسرور بما يفعله عثمان ، وأنا له خادم لا أقصر فى تلبية ما يطلب ، وجميع أفعاله كالماء البارد للعطشان ،وهل فى الدنيا من يتألم من عثمان ؟ وفضله على الناس شمل القريب والبعيد ، فضحك الأمير وفهم السر فى هذا المدح والثناء ، ثم أمر القاضى بإحضار الشهود فشهدوا بما قالوه للأمير ، وكتب القاضى وثيقةالشهادة وختمها وناولها للأمير ، فأخذها شاكراً وأرضاهبشىء من المال ، ثم ودعه وأرسل معه من حمل الأثاث إلى المحكمة ، وقال بيبرس للفقيه وكان حاضراً إذ ذاك : لقد انتقم الله لك ، وأذاق خصمك الهلاك . فاذهب إلى شيخ الإسلام وبلغه ما رأيت فقال : سمعاً وطاعة ، ثم ركب الجواد وسار ومعه عثمان إلى بيت الوزير نجم الدين . وقال بيبرس لعثمان وهو سائر : إنى أشير عليك أن تنكر أنك قتلت أحداً ، ولن تجد أحداً

يشهد عليك فى ذلك ، وإذا كانت الدعوى من غير شهود سقطت وكنت بريئاً . فقال عثمان : سيكون ذلك .

ولما كمل ديوان الملك الصالح بالأمراء والأعيان والكبراء ، ذهب إليه وسلم عليهم ، فردوا السلام وهم جلوس، لأنه كان متواضعاً لا يحب أن يقف له أحد ، ثم قرأ الفاتحة للنبى والأولياء والصالحين ثم قال : آمنا وصدقنا فاتصلنا ، سبحان من بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، يا شاهين ، الحق بيد الطير ، والطير الآخر ماهر ومسعود ، لما نظر الطير قد نقر الطير أخذته الغيرة فتغير الطير الآخر ، والله يا شاهين إن الحق بيده ، فقال شاهين : من هؤلاء يا مولانا ، فقال : لا تؤاخذنى بما أقول ، وهذا يوم سعيد ، فقال الوزير : اللهم اكفنا شر هذا اليوم . وبعد لحظة حضر جماعة يحملون اليهودى ورفيقه مقتولين ، فقال الملك : يا حى يا قيوم ، ومن قتلهما ؟ فقالوا : الأمير بيبرس وخادمه عثمان ، فقال : يا شاهين : هل انفلت الزمام لهذين الاثنين يقتلان وينهبان ، لا كان ذلك أبداً ، فانتعش القاضى وابتهج حينما رأى الملك قد غضب ثم قال : لقد قلت مراراً : إن هذا الغلام ما أتى من بلاد العجم إلا ليفسد ملكك ، ولكنكم لم تسمعوا لى قولا ، إن اليهودى لا يقتل إلا إذا امتنع عن دفع الجزية وهذا المقتول لم يتأخر عن دفعها ، وكان زميله المقتول ، ويسمى صالحاً ، من أهل الخير وأنا أعرفه ، ولهذا وجب أن يقتل بيبرس وخادمه عثمان فيهما ، وإن ثقل أمر قتلهما وتعذر ، فإنى أهب لكم من مالى مائة جواد ومائة

مملوك ومائة كيس من الدنانير ، وعليك يا وزير أيبك مثلها ، فاعترض أيبك على تكليفه بدفع المال ، فأصر القاضى على أن يهب من ماله مثله ، فقال الملك : أرضيت يا أيبك ؟ نقال : نعم . فقال أحضروا ما وهبتم بين يدى حتى نحضر الغلام وخادمه . وننظر فى قضيتهما . فلما حضر المال أمر الملك الوزير نجم الدين أن يحضر الغلام ، فقال : سمعاً وطاعة ، وخرج فى الحال إلى بيته فوجد بيبرس جالساً ، فقال له : إن الملك يدعوك لينظر فى قضيتك ، وحدثه بها ، فماذا ترى ؟ فقال : إنى ذاهب إلى الديوان ولن يكون إلا ما أراده الله وقدره .

ولما رآه الملك مقبلا قال : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، اللهم عمر بك الأرض والبلاد ، اللهم أهلك عدوك وأقم سعدك ، قل : آمين ، أيها القاضى ، فقالها مرتين ، ثم قال الملك : يا سيدى بيبرس ، قل الحق ولا تخف ، فإنه سفينة النجاة ، هل قتلت هذين الاثنين ؟ قال لا ، وإنما قتلت اليهودى بسبب ما جرى منه . ثم قص عليه قصته إلى أن قتله ، ثم ناوله وثيقة من القاضى الشرعى ببراءته ، فقال القاضى هذه الوثيقة باطلة ، لأنه لا يمكن أن نجد من يخالف بيبرس ولا ينفذ أمره ، فقال الملك انتظر أيها القاضى حتى ننظر فى أمر القتيل الثانى ، وسأله الملك ! ومن قتل هذا ؟ فقالوا : خادمه عثمان ، فأمر الملك بيبرس أن يحضر خادمه ، فخرج إليه ووجده على باب الديوان ينتظره ، فقال له : أجب يا عثمان دعوة الملك الصالح .

ولا تنس أن تنكر القتل الذى وقع منك ، ولما دخل عثمان الديوان قال الملك : لم قتلت هذا الرجل يا عثمان ؟ فقص عليه قصة القضية كما قصها بيبرس ، ثم قال : ولما قتلت هذا الرجل قال بيبرس : إنه مسلم فلم قتلته ؟ فقلت : إنه يهودى مثل أخيه الذى قتلته ، ولا يمتاز عنه ، ثم وصانى أن أنكر ، وأن أقول : لا رأينا ولا سمعنا ولا قتلنا .

فقال القاضى : قد أقر بلسانه . والقتيل رجل خيّر أعرفه ، فصاح الملك : يا دائم ، ياحق ،أظهر الحق وأعل كلمته ،واخفض الباطل وادحض قيمته ، ثم أشار بيده ، فإذ الفقيه قادم ومعه شيخ الإسلام وأهل مطبخة العسل ، فقال الملك : من هؤلاء؟ فقالوا : نحن صناع مطبخة العسل ، جئنا لنؤدى الشهادة ، ونحن نقول : إن هذين القتيلين كانا أفسد الناس وأخبثهم وأفسقهم ، وهما يهوديان . فقال الملك للقاضى : ما رأيك فيما سمعت ، وما جزاء القتيلين عندك ، فقال : يحرقان بالنار ، ولا حرج على من قتلهما ، فقال الملك : ولأى شىء وهبتما لنا المال؟ ألقتل بيبرس أم لإظهار الحق ؟ فقال : لإظهار الحق ، فقال : حينئذ هذا المال هبة منى للأمير . بيبرس ثم التفت إلى الوزير وقال : قد أمرنا أن يكون بيبرس ملتزماً مطبخة العسل ، وإخراج القصب من أرض بنها ، فاكتب له حجة بأنها له من غير مال . وكانت بنها من قسم زوج خالته نجم الدين البند قدارى ، فلبس ثوب الالتزام ورجع إلى بيت نجم الدين فهنأه وسر بما ناله .

٤

ودخل على نجم الدين فى داره عشرة من فلاحى بنها العسل، فقالوا : معنا كتاب من شيخ العرب سرحان . ونحن من رجاله ، فقال لهم : إن بنها أصبحت تحت يد ابنى بيبرس ، وقال له : خذ منهم الكتاب واقرأه ، فلما قرأه وجد فيه : من المعلم سرحان إلى الوزير نجم الدين ، يحمل إليك كتابى هذا عشرة من رجالى ، ومعهم المعلم السابق ببنها ، وهو رجل فاسق فاجر لا دين له ولا ملة . قتل عشرة من الأشراف ويتم أطفالهم ، يشهد بذلك رجال كثيرون ، منهم العشرة المرسلون إليك ، فاقتله فيمن قتلهم ، ومع رجالى مائة دينارٌ منى إليك والسلام . فسألهم بيبرس عما فى الكتاب فأيدوه . وقال لهم : أين شرف الدين هذا ؟ فأحضروه مكتوف اليدين ، مقيد الرجلين ، ونظر إليه بيبرس فلمح فى وجهه علامات الصلاح والخير ، وسمعه يقول : أسلمت أمرى إلى علام الغيوب ، وسألته أن ينجينى من الزور والبهتان ، كما نجى يونس وإبراهيم ، فأحس بيبرس رحمة به وإشفاقاً عليه ، ولكن المخلص إلى ذلك عسير ، فالشهود كثيرون ، وهم مجمعون على إدانته .

التفت إلى شرف الدين وسأله : هل قتلت عشرة رجال ؟ فقال : لا ، ومن فلق الحب والنوى . فأمر بيبرس عثمان أن يلقيه فى السجن ، وقال للرجال العشرة : ارجعوا إلى صاحبكم وبلغوه أنى سأريحكم من

شرف الدين وأنفذ فيه رأيه . وما أشار علينا به . ثم أحضر عثمان وأخبره بقضية شرف الدين الذى ألقاه فى السجن ، فقال عثمان : إنه برىء مما نسب إليه، وقد ائتمروا به وظلموه، وما شيخ العرب سرحان إلا من أقسى عباد الله وأظلمهم . فتأن فى أمره ولا تعجل ،فأمره أن يذهب إليه ويطلقه من قيوده وسجنه ، فذهب عثمان إليه وقال له : ويحك يا شرف الدين ، إنك مطلوب الآن لضرب عنقك ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، كل نفس ذائقة الموت ، كفانى أن أموت على الإيمان والهدى شهيداً ، لم أجترح خطيئة أو إثماً ، ثم فك قيوده ، وأخذه إلى بيبرس خائفاً مذعوراً ، حزيناً كئيباً ، فقال له : ما بك يا شرف الدين ؟ وما أحزنك وقد أطلقناك ؟ فقال : كل شىء بقضاء وقدر ، وهذه إرادة الله التى لا مرد لها ، فقال بيبرس : ماذا تعنى بقولك هذا وقد أخلينا سبيلك ؟ فقال : أخبرنى خادمك أنك دعوتنى الآن لتضرب عنقى ، فنظر بيبرس إلى عثمان نظرة كلها عتب وأسف ، ثم قال : يا شرف الدين ، أنت آمن ، ولا خوف عليك ، ولا تعول على قول لعثمان،فهو يمزح كثيراً . ثم أحضر له طعاماً وأكرمه ، وقال له: اقصص علىّ قصتك ، فإنك عندى صادق . وأعتقد أنك مظلوم . فقال : سأقصها ولا أقول إلا حقّاً ، والله خير الشاهدين .

كنت معلماً بأرض بنها العسل ، وذات يوم ركبت فرسى قاصداً مصر فمررت فى طريقى برجل يحرث الأرض ، فوجدته يضرب غلاماً ضرباً

مبرحاً ، والغلام يستغيث وهو لا يجد مغيثاً ، فقلت له : اتق الله يا رجل وارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، فما أبه الرجل بقولى ، واستمر يضرب الغلام ، فنزلت إليه وحلت بينه وبين الغلام ، وسألته عن ذنبه الذى أوجب ضربه ، فقال : أنا رجل حراث ، أحرث أنا وهذا الغلام أرض شيخ البلد علام ، ولنا عن كل يوم ثلاثون « بتاوة » وبصلتان يرسلها شيخ البلد فنأكلها أنا وهذا الغلام ، ولما أبطأ الغداء عنا هذا اليوم أرسلت الغلام لإحضاره ، فوجدهم يقومون بعمل خبز جديد ، وأعطوه عشر « بتاوات » أكلها وجاءنى وليس معه شيء من الطعام ، وكان الجوع قد ألهب أحشائى ، فأمسكته وضربته حتى قدمت إلينا ، وهذه قصته ، فتوسلت إليه أن يعفو عن هذا الغلام فما لان قلبه ، وأبى إلا أن يضربه ويعذبه ، فقلت له : أتعطينى هذا الغلام لأقوم بتربيته ابتغاء مرضاة الله ، على أن أعطيك هذا الكيس وفيه خمسمائة دينار ؟ فقال : بعتك إياه ، فأعطنى الكيس ، فناولته إياه ، وأخذت الغلام وأرسلته مع رجل من الفلاحين إلى بيتى ، وهو يدعو لى بالسعادة الدائمة ، ثم مضيت إلى مصر وقضيت بعض أمورى بها ورجعت مسرعاً من أجل هذا الغلام ، واسمه سرحان ، فقمت بتحفيظه القرآن وتعليمه الكتابة والقراءة والحساب ، حتى كان كاتباً حاسباً فطناً لبيباً ، وعرف فى البلدة بابن المعلم ، ثم وثقت به واطمأننت إليه ، وأسلمته أرضى ودارى وعملى ومالى ، يقوم بتصريفها كما يشاء ، على أن أعكف فى المسجد لعبادة الله ، وأن يكفل طعامى وشرابى

وليس لى عنده أكثر من ذلك ، وفى هذا العام أرسل الوزير نجم الدين رسوله صالحاً ،ومعه كاتب يقال له قدوير ليأخذ السكر فأخذهما سرحان إلى مكان أعده ، وأحضر فيه الخمور والنساء الراقصات ، وسهروا فى شرب الخمر ومشاهدة الرقص ومداعبة الراقصات جهراً وعلانية ، فجاءنى فى المسجد أربعة من الفقراء وبلغونى ما فعله سرحان، وقالوا : إنهم لا يزالون فى لهوهم وعبثهم وفجورهم فى ذلك المكان . فنهضت من ساعتى إليه ؛ فوجدت أمرهم قد خرج عن حدود الشريعة والإنسانية ، فلطمته بكفى على وجهه ، وقلت له : لا ينبغى لرجل يحفظ القرآن أن يرتكب أكبر خطيئة ويجاهر بها ، وانصرفت إلى دارى حزيناً آسفاً ، فصعب عليهم زجرى ،واتفقوا على أن ينتقموا منى ، فدبروا لى هذه القضية زوراً وبهتاناً .

بت الليلة ونزلت فى الصباح إلى المسجد كعادتى ، فوجدت فى فناء دارى عشرة رجال قتلى ، فتحيرت فى أمرى ، ماذا أفعل ؟ واستقر رأيى على أن أواريهم التراب ، ثم أخرج إلى المسجد ألبث فيه كعادتى ، وبينما أنا أحفر لمواراتهم هجموا على دارى وقالوا : أنت الذى قتلتهم وتحاول دفنهم حتى لا يعلم بهم أحد . وكتفونى وقيدونى وأرسلونى إليك على نحو ما رأيت وهذه قصتى ، والله على ما أقول شهيد .

فعجب الأمير بيبرس وقال : لك الأمان يا شرف الدين ،ولا خوف عليك ، غير أنك لا تعارضنى فيما أفعل حتى أعرف من دبر لك هذه المصيبة ، ولا تصدق عثمان فيما يقوله لك ،ولا يصبك منى فزع أو خوف ،

فقال الرجل : لك ما تشاء وهداك الله إلى الحق والرشاد وأيدك بنصره ورعايته ، ثم أمر عثمان أن يمضى بشرف الدين إلى السجن ، فألقاه فيه كما كان .

أما الرجال العشرة فإنهم رجعوا إلى سرحان وقالوا : إن الأمير يسلم عليك ، وسينفذ أمرك فى هذا الرجل الذى قتل العشرة ، ففرحوا وأيقنوا أنه مقتول لا محالة ، واستمروا فى لهوهم وعبثهم .

وأمر بيبرس عثمان أن يذهب إلى بولاق ، ويستأجر مركباً صغيراً يتسع لأربعة رجال ليقلهم إلى بنها العسل ، لنتبين الأمر هناك ، ونؤدى ما نقدر عليه من الأعمال . فأخذ « رزته » وذهب إلى نهر النيل ، فوجد فلك الملك الصالح راسية . فقال فى نفسه : لا ينبغى لنا أن نسافر إلى بنها إلا فيها . وذهب إلى رئيسها فرحات ، وكان جالساً فى صدرها ، والخدم والغلمان من حوله ، فعرفوه وخفوا لاستقباله وإكرام لقائه ، والخوف منه يملأ صدورهم ، فقال عثمان لفرحات : أريد أن أسافر إلى بنها فى هذه الفلك . فقال : ذلك أحب شىء إلى نفسى ، ولأجل أن تحمينى من الأذى ، هات لى إذناً من الملك أو وزيره شاهين ، وهذا يسير عليك . فقال : ذلك هو الحق ، ولكن ورب الكعبة لئن هربت بها منى لأذبحنك . فقال فرحات : لو كنت أستطيع الحصول على هذا الإذن لذهبت أنا نفسى . فكيف أهرب ؟! وسأعدها من الآن للسفر حتى نسير بها ساعة قدومك .

ذهب عثمان إلى الوزير فى ديوانه فسلم عليه وقال : أراد سيدى بيبرس أن يسافر إلى بنها العسل ، فذهبت إلى فرحات رئيس فُلْك الملك ليقلنا فيها إلى بنها ، فقال : هات لى إذناً من الوزير أو السلطان ، وقد جئت إليك . لتأذن له ، فكتب الوزير : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . فكن يا فرحات تحت أمر عثمان ، واذهب بالفلك إلى حيث يشاء . وهذا إذن منا لك والسلام ، ثم ختم الكتاب وأخذه عثمان وقال : بقيت لى حاجة أخرى ، فقال : وما هى يا عثمان ؟ فقال : خدم يسافرون مع سيدى ، فأمر الوزير له بمائة مملوك ومائة ركوبة ، وما يحتاجون إليه من الزاد ، ومن يقومون بإعداده من طباخين وفراشين ، وقال له : لك بعد هذا أن تطلب ما تشاء ، فقال عثمان : جزاك الله كل خير ، ولكن هؤلاء المماليك هبة أو إعارة ؟ فقال : إنهم منى هبة كريم لا يرجع فى عطائه .

أخذ عثمان الكتاب والمماليك والزاد إلى فرحات ، فناوله الكتاب وسلمه المماليك والزاد وأمره أن يسبقه بالفلك وينتظره عند شبرا ، وعاد هو إلى بيت الوزير نجم الدين ، وقال لعقيرب : سأسافر أنا وسيدى إلى بنها العسل ، فشيعنا إلى بولاق ثم ارجع بالخيل التى تقلنا ، دون أن يعلم أحد بذلك ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم صعد إلى بيبرس فلما رآه سأله : هل أعددت ما أمرتك به ؟ فقال : استأجرت مركباً صغيراً حسب رغبتك ، فنهض بيبرس وأخذ معه شرف الدين وساروا حتى كانوا على شاطئ النهر ببولاق ، فلم يجدوا مركباً ولا غيره ، فقال بيبرس : وأين المركب يا عثمان ؟

فقال استأجرته وتركته هنا . وربما هرب صاحبه ، فقال : استأجر لنا غيره. فقال : إن ابن آدم يقيد بلسانه ، فسر معى حتى أعثر عليه ، وسار جميعهم حتى كانوا عند شبرا ، أمام الفلك التى تنتظرهم ، فسر منها بيبرس وسأله : ما هذه ؟ فقال عثمان : هذه العروس إذا تجلت ، والدنيا إذا أقبلت . هذه فلك الملك الصالح ، فقال : ما شاء الله ، إن قلوعها من حرير ، فقال عثمان : كان الأجدر به أن يأخذ قلعاً منها يلبسه بدلا من ثيابه الصوفية ، التى برت جسمه وأضعفت قوته ، وكان الأجدر به أن يبيع قلعاً منها ، ويشترى بثمنه لحماً يأكله بدلا من « القراقيش الناشفة» ، التى لا يأكل غيرها . فقال بيبرس : ذلك رجل من أولياء الله ، لا تخدعه زهرة الدنيا ، ولا تلهيه عن طلب الآخرة ، فلا تعترض يا عثمان ، فقال : ألا تحب أن ندخل الفلك لننظر ما فيها ؟ فقال : لا مانع عندى ، فهذا شىء جديد أحب أن أراه ، فلما ركبوا فيها أخذ عقيرب الجياد ورجع ، كما أشار عليه بذلك عثمان .

واستقبله الرئيس فرحات والغلمان على أحسن حال من الحفاوة والإجلال ، وأجلسه على كرسى من خشب الساج الهندى المرصع باللؤلؤ والذهب ، فقال فى نفسه : ربما فعل الرئيس بى ذلك طمعاً فى العطاء ، ولكن كيف أعطيه وهو رئيس فلك السلطان ؟ ! وما لبث أن رأى الفلك أقلعت وسارت فى وسط النهر مسرعة ، ودقت الطبول وغنى الملاحون ، وذبحت الذبائح ، وأوقدت النيران لإنضاج اللحوم ، فعجب

الأمير وسأل عثمان : ما الخبر ؟ !وماذا جرى؟ ! فقال عثمان : اختر لنفسك أحد الأمرين ، إما جلست فى مكانك دون أن تسأل عما يجرى، وإما ألقيتك فى النهر. فضحك بيبرس وقال : أخبرنى بما جرى ، فحكى له عثمان ما دبره وما فعله ،فشكر بيبرس للوزير معروفه، وسأل الله أن يقدره على مكافأته ، فقال عثمان : ما أنت بمجازيه إلا بالشر ، فقال : كيف ذلك يا عثمان ؟ ! وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ! ! فقال عثمان : إنك رجل كالعقرب ، لا تتحرك إلا بالشر والأذى ، ولكن دعنا من هذا اللجاج ، واعلم بأنك قادم إلى رجل أديب لبيب فطن ، قد غرق فى الخطايا إلى ذقنه ، وما فعلت ذلك إلا لأنزل فى صدره المخافة منا والهيبة والاحترام والطاعة : فقال بيبرس ، شكراً لك ، وحسناً فعلت .

وفى وقت العصر وهم سائرون رأوا مركباً مملوءاً سكراً ، وهو قادم من بنها إلى مصر ، فقال شرف الدين : هذا السكر الذى تراه يا سيدى من مالى ومال أمير المؤمنين ، بعث به سرحان إلى رفقائه بمصر ، فأمر بيبرس أن يصيحوا على من فى المركب ويدعوهم إليه،فجعلوا يصيحون وينادون ، فلم يلتفت أحد من المركب إليهم ، فنادى بيبرس نفسه فما عبأ بندائه أحد ، فقال عثمان : سآتيك أنا بالمركب ومن فيها ، ثم وقف فى مقدمة الفلك وكشف عن رأسه ، وأمسك «الرزة» فى يده وصاح : « يا ريس » يا رجال المركب، أنا عثمان بن الحبلة ، إن لم تأتونى بمركبكم ومن فوركم جئتكم وذبحتكم ، ثم استوليت على المركب وما فيه . فما سمعوا

نداءه وعرفوه حتى كان المركب ملاصقاً للفلك .

ولما حضر رئيس المركب أمام بيبرس سأله : كيف أناديك ولا تجيبنى فقال : إن الريح ملأت آذاننا فأصمتنا ، وأبطلت سمعنا ، فقال : وكيف سمعتم عثمان ؟ فقال : كان صوته فى آذاننا كأنه الرعد. فقال عثمان : إن هذا الرجل يسمع دبيب النمل ، وما جاء إلا خوفاً منى ، ثم سأله عثمان عما يحمله المركب ، فخاف أن يكذبه الخبر وقال : عسل وسكر ، كلفنى سرحان أن أعطيهما لرجل خمار بمصر يقال له ناصر ، وأمرنى أن أحضر بدلهما شيئاً آخر من عنده لا أعرفه ، وهو مذكور فى هذا الكتاب الذى أرسله معى إليه ، فأخذ الأمير الكتاب وقرأه فإذا فيه : من المعلم سرحان إلى ناصر الخمار . اعلم أنه قد صفا لنا الجو وقتلنا خصمنا ، وذلك أننا دبرنا جريمة قتل شنيعة ، كان ضحيتها عشرة رجال ، ونسبناها إلى شرف الدين ، وشهد عليه عشرة من الفلاحين ، وقد أرسلناه مع الشهود إلى المشرف الجديد ، وطلبنا منه قتله ، فأجابنا بأنه قاتله ومنفذ كل أمر أطلبه ، وسأنهب أمراله ، وأسبى زوجته ، وقد أرسلت إليك سكراً وعسلا ، لتبعث إلى بدلا منهما خمراً ، وإنى أدعوك إلى الحضور إلينا ليتم لنا بوجودك الاستمتاع بجلسات اللهو والفرح والسلام ، فلما قرأ الأمير الكتاب مزقه ورماه فى النهر . ثم أمر عثمان أن ينقل العسل والسكر إلى الفلك ، فاستخدم عثمان رجال المركب فى نقلهما ، ولما انتهوا قال لهم امضوا إلى سبيلكم فلا ذنب لكم ، فما كادوا يسمعون هذا حتى فروا بمركبهم مسرعين ، بعد أن كانوا قد يئسوا من الحياة .

٥

رست الفلك أمام بنها العسل . وطلع منها عثمان والمماليك والغلمان ، وأيقظت الفلك والمماليك أذهان الناس ولفتت أنظارهم ، فعرفوا من فيها ، وطار الخبر إلى دار الملتزم ، ففتحت وهيئت لقدوم الملتزم الجديد بيبرس ، فذهب هو ورجاله إليها ، ومعه شرف الدين الذى تنكر فى زى الفلاحين الذين معه ، فلم يعرفه أحد ، ولما بلغ سرحان قدوم الأمير أسرع إلى لقائه فى دار الملتزم ، فأحسن بيبرس استقباله ، وأبدى له من الرضاء والاحترام ما أثلج صدره وسره ، وكان هذا من بيبرس مكراً ، ثم راقب بيبرس أعمال سرحان ، فوجدها مطابقة لما قصه عليه الشيخ شرف الدين ، فأمر عثمان أن يحضر أكابر البلد ومشايخها ، فأحضرهم ، فطلب منهم أن يبينوا له الأمر على حقيقته ، فحكوا له القصة كما رواها له شرف الدين ، فكتب ما حكوه وختمه بأختامهم ، وأعاد المعلم شرف الدين إلى وظيفته ، كما كان ، ووكل إليه أمر تعذيب سرحان تحت إشرافه ، ثم قفل راجعاً إلى القاهرة !

أما سرحان فقد طال عليه الأمد فى سجنه وتعذيبه وهو لا يجد له مخلصاً ولا شفيعاً ، وفى يوم من أيام شقائه رأى رجلا من الفلاحين فناداه وقال له : إنك تعلم حالتى وتعرف بليتى ولى عندك حاجة أرجو منك قضاءها وأجرك على الله . فقال : قل حاجتك فإنى سأقضيها وإن خضت

لها البحار ، فقال : أن تذهب إلى عكرمة وتسأل عن شيخ العرب عجوة وأخيه أبى ناب ، وتشرح لهما حالتى وتبلغهما أننى مستغيث بهما ، وأننى لا أرجو العون إلا منهما ، وأنهما إن نجيانى مما أنا فيه من الكرب والشدة ، وقتلا شرف الدين وبيبرس، فلهما عندى ما يطلبان ، ثم ترجع إلىّ بما يقولان ، فذهب الفلاح وبلغ الرسالة على وجهها ، فقالا له : اذهب أنت لشأنك ، وسنعد عدتنا ونذهب إلى بنها العسل فلا نبقى فيها من يكره سرحان ، ونكشف عنه ضره ، ونعيد إليه شخصيته وقوة نفوذه على أحسن حال ، ففرح الرجل ورجع مسرعاً كأنه الريح وبلغ سرحان ما سمعه ، ففرح فرحاً عظيماً،وانفتح أمامه باب أمل واسع كان عنده فى قوة اليقين .

وبينما كان بيبرس جالساً فى داره جاءه رجل من أكابر شيوخ العرب وقال له : جئتك ناصحاً محذراً ، فخذ حذرك من أعداء أقوياء لا يرقبون فيك ديناً ولا إنسانية ، فقال له : وكيف يكون ذلك يا شيخ العرب ؟ فقال: اعلم يا بنى أنى إبراهيم شيخ عرب الغربية، وبنتى بدرية الوحيدة التى لم أرزق غيرها فى حياتى ، وقد منحها خالقها جمالا رائعاً ، فسمع بها أبو ناب وهو أخو عجوة شيخ العرب بالقليوبية ، وهما رجلان لا يحجزهما عن الخطايا دين ولا خُلق، فلما أرسل إلى فى طلب الزواج من ابنتى أبيت أن أزوجها منه ، وتلطفت فى الرد على رسوله فقلت : لو كان عندى رغبة فى زواج ابنتى ما قعدت عن تلبية أبى ناب فيما رغب،

ولكن الضرورة عندى قضت علىّ ألا أزوجها من أحد ، فلما بلغه ذلك ثارت ثائرته وجن جنونه واستكبر واستعلى وقال : كنت أطلبها لنفسى فأبى ، وحق الشعاب والهضاب لأجعلنها ضجيعة لعبدى سعيد ، لتأكل معه لحم الكلاب ، وعبده سعيد هذا لقيط لا يعرف له أب ولا أم . ولا يعرف هو ديناً ولا شريعة ، وارتقب أبو ناب الليل وظلامه ، وهجم علىّ بالأشرار من رجاله ، فنهب مالى وساق ابنتى إلى داره ، وأغراه جمالها ، فراودها عن نفسها ، فاعتصمت بالإباء والعفة ، وسبته وسبت أجداده ، فحبسها ، ولولا جمالها وطمعه فى أن تنزل على رغبته لقتلها . فأخذت فى تدبير أمرى ، عسى أن أجد فرصة أسترد فيها ابنتى ، وأزيل عنى بلوتى ، وبعثت أربعة رجال من العرب إلى داره ، ليتجسسوا ويقفوا على أخباره وأسراره ، وبينما أنا جالس هذا النهار ، إذ أقبل رجالى الأربعة ، وأخبرونى أن سرحان استغاث بعجوة وأخيه ليقتلوك ، وهم قادمون الليلة إليك ، وقد أخبرتك وحذرتك .

استمع الأمير كلام إبراهيم ووعاه ، ومنحه خلعة قيمة ، وخمسمائة دينار ، وقال : أبشرك بفوزى عليهم ، ومنحى إياك ورجالك أموالهم ، ونجاة ابنتك من أيديهم ، ولكن إذا جاء الليل فكن أنت ورجالك فى دارى مختبئين ، وألبس رجالك الملابس البيضاء ليكونوا كعرب القليوبية ، والتفت إلى عثمان قائلا : وأنت يا عثمان وجميع الرجال والمماليك تكونون خارج الدار ، بحيث لا يعرف الأعداء أمكنتكم وهم مقبلون ، ثم انصرف

إبراهيم فأعلم رجاله ودبر أمره .

ولما جاء الليل كان كل رجل من المدافعين فى مكانه ، وفتح بيبرس باب داره وأطفأ مصابيحها ، وصعد إلى حجرته ، وجلس فيها يرتقب حضور أعدائه .

وفى منتصف الليل دخل دار بيبرس ثلاثة من عرب القليوبية ، وهم أبو ناب ، وعجوة ، والعبد سعيد ، فصاح أبو ناب : أين المال يا جندى ، انزل إلينا عاجلا وإلا صعدنا إليك وأعدمناك ، فأمسك بيبرس قوسه وأرسل منها إلى أبى ناب نبلة نفذت فى قلبه ، فخر صريعاً على وجهه ، وقال أدركنى يا عجوة ، فمال على أخيه ميلة وإذا بالسيف من خلفه يقطع عنقه ، فانكب على أخيه لوجهه ، وأراد العبد سعيد أن يهرب فضربه عثمان برزته فوقع يتخبط فى دمه ، وجاء أنصارهم من العرب فانحصروا بين إبراهيم ورجاله ، وعثمان وأتباعه ، وأخذوا يحصدونهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ثم أمر بيبرس أن يحضر إليه سرحان ، فلما حضر قال له : انظر بعينيك أيها الفاجر الغادر ، هؤلاء العرب الذين استعديتهم علينا ، وأطمعتهم فى أموالنا وأنفسنا ، ثم أمر عثمان أن يضربه ، فجعل يضربه حتى أغمى عليه ، ثم أمر أن يلقى فى السجن وأن يرمى القتلى فى الفلاة .

وركب الأمير لساعته فى جمع من إبراهيم ورجاله ، وعثمان وأتباعه ، ليفى بوعده ، وسار إلى ديار هؤلاء العرب الأعداء، وانقض عليهم

بمن معه انقضاض الصاعقة ، وما جاءت ضحوة النهار حتى ملك الديار ومن فيها ، واستخلص بدرية استخلاصاً كريماً ، وسلمها إلى أبيها وقال له : لك هذه الأموال والمغانم منحة منا لك ، وأمرهم أن يعفوا عن التعرض لنساء الأعداء ، ثم رجعوا وقد أيدهم الله بنصره .

لم يجد سرحان وسيلة له إلا أن يرسل إلى دياب فى مصر ويستنجد به ، وهو الحراث الذى كان يضربه ، واستخلصه شرف الدين من يده ، وكان سبب إقامته بمصر أن سرحان حينما أصبح معلماً ببنها زار الحراث فى بيته ، فوجد حفاوة وإكراماً وقال الحراث له: ما كنت قاسياً عليك فى صغرك إلا لتكون فى هذه المنزلة ، فأعطاه سرحان حمل مركب من السكر ، وقال له : خذ لك بمصر دكاناً واتجر بهذا السكر ، على أن أرسل إليك منه ما تحتاج إليه ، وأن ترسل إلى ما أحتاج إليه من مصر ، فشكره الحراث ، وأخذ السكر واتجر فيه فى دكان بالسكرية ، ونفقت سوق تجارته . وأقام بمصر سعيداً بتجارته وغناه .

بعث سرحان كتابه إلى الحراث مع رجل من أتباعه ، وشرح له فيه ما حصل له ولشرف الدين ولجماعة العرب إلى آخر حالة هو فيها ، فلما قرأه غضب وقال للرسول : سلم لى عليه ، وأخبره أن أباك دياباً قد حزن كثيراً ، وهو مصر على أن يخرجك من هذا العذاب الذى تقاسيه ، فودعه الرسول ورجع .

أما دياب فإنه ذهب بالليل إلى الشيخ صلاح الدين قاضى الإسلام

بحارة الروم ، فلما جلس شرح له حالة سرحان، وطلب منه أن يدله على وسيلة ينجيه بها فقال القاضى : أمره سهل ، وذلك أن تذهب الآن إلى الرميلة، وفيها كثير يشهدون الزور طمعاً فى المال ، فاختر لك منهم أربعة شهوديشهدونبطيبة ابنك سرحان ، وفسق بيبرس وشرف الدين، وأعطهم من المال ما يرضيهم ثم ارفع قضية سرحان إلىديوان الملك الصالح وبذلك أستطيع أن أساعدك ، فينجو سرحان ، ويقع فى الشر خصومه . فشكره ، وقبل يده ، وانصرف .

ذهب دياب إلى الرميلة ، فوجد جماعة من أهلها جالسين،فسلم وجلس معهم وقال : أريد أربعة رجال منكم يشهدون فى ديوان الملك أن سرحان رجل مسلم يحافظ على الصلوات ويقيم شعائر الدين ويعامل الناس بالحسنى ، وأن بيبرس وشرف الدين من الخائنين وقطاع الطرق والمنتهكين لحرمات الإسلام ، فقالوا : هات أجرة الشهادة ونحن نشهد بما يرضيك ، فقال : وماذا تطلبون ؟ فقالوا : ما تراه أنت لائقاً بشهادتنا هذه ، فأعطى كلا منهم مائة دينار ، وقال: إذا سألكم القاضى : أين تقيمون ؟ فقولوا : نحن فلاحون من بنها العسل ، ثم بات عندهم تلك الليلة ، وهو عاكف على تحفيظهم الشهادة التى ترضيه .

جلس الملك الصالح فى ديوانه وقال: آمنا وصدقنا فاتصلنا . ياشاهين ،الحق بيده، الرجل دبر الرجل،الرجل « عمّال » يوصيه الرجل، ولكن يا شاهين ، اسأل الله ألا ينطقهم إلا بالحق ، وأن يتوب عليهم .

ويلبسهم ثياب الولاية ، قولوا : « آمين » يا رجال ، فأمنوا جميعهم ، وقال شاهين : من هؤلاء يا مولاى ؟ فقال : ما عليك من كلامى .

وبعد هذا كان دياب أمام الملك يقول : يا مولانا السلطان . فقال الملك : أهلا بالحراث ، دياب بن عمران بن أبى طبلة بن رشوان ، ما اسمك يا هذا ؟ فقال : اسمى دياب ، وقد جئت لأشكو إليك ، وأشرح ظلامتى ، فقال القاضى : وهل كتبتها أو ستتحدث إلينا بها ؟ فقال الملك : اسكت أيها القاضى حتى أستمع لشكواه ، وأعرف مَنْ ظلمه ؟ فقال دياب : يا مولاى، سرحان ابنى رجل تقى صالح ، وهو معلم بينها العسل ، ونزل بها هذا العام الأمير بيبرس وصاحب رجلا يقال له شرف الدين ، وقد أخذا يظلمان ، ويقتلان ، وينهبان ، حتى ضج الناس منهما ، فنهاهما ابنى عن هذه المحرمات ، فغاظهما ذلك وقبض عليه بيبرس وسجنه ولا يزال يعذبه ، فلما بلغنى ذلك أتيت إليك لترفع الظلم وتقتص من الظالم . فتنحنح القاضى ورفع رأسه وقال : قلت لكم كثيراً : إن هذا الغلام قد جاء من بلاد العجم ليفسد الملك فلم تصدقونى ، وما دام هذا الرجل صالحاً وابنه سرحان نقيًّا ، وبيبرس ظالمًا قاتلًا، فإنى أشير بقتله ، وقد تبرعت بخمسين جواداً وخمسين مملوكاً ، وخمسين كيساً من المال ، وتبرع الوزير أيبك بمثلها لتنفيذ حكم الشريعة فيه . ثم أحضرا المال الذى تبرعا به بين يدى الملك . فقال الملك : يا دياب، هل عندك شهود ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال : ائتنى بهم ، والتفت

إلى القاضى قائلا : ما تقول فى هذا الإجراء ؟ فقال : إجراء سليم لا غبار عليه .

خرج دياب فوجد الشهود الأربعة فى ساحة الديوان ، قد جلسوا فى الشمس ، ورؤوسهم مائلة على أكتافهم ، وهم لا يعرفون يومهم من أمسهم ، فقال لهم : سيروا معى الآن ، فقالوا إلى أين يا عم ؟ فقال : لقد طلبكم الملك للشهادة ، فقالوا : أية شهادة ؟ وأخذوا يتساءلون : هل تعرف شهادة ؟ هل تعرف شهادة ؟ فقال : الشهادة التى حفظتموها منى الليلة الماضية ، فقالوا : لا نذكر شيئاً ، حدثنا بها الآن ، فذكرها لهم فقالوا : تريد أن نشهد أنك ظالم وابنك ظالم وأن بيبرس وشرف الدين صالحان ؟ فقال : اقلبوا هذه الشهادة وقولوا : إنى صالح وابنى صالح . أما بيبرس وشرف الدين فإنهما ظالمان ، وجعل يكررها عليهم أكثر من سبع مرات ، ثم كانوا أمام الملك . فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن جماعة من أصحاب المزاج فقال : ومن أى البلاد ؟ فقالوا : من قصر المائدة ، فقال الملك ، ما هذا أيها القاضى ؟ فقال : يا مولانا الملك ، إن الفلاحين يسمون بنها العسل قصر المائدة ، فقال الملك : وبماذا تشهدون ؟ فقالوا : نشهد أن هذا الرجل ظالم وابنه أظلم منه ، وأن بيبرس صالح وشرف الدين أصلح منه ، وأن هذا الرجل بات عندنا الليلة الماضية ، وأعطانا مائة دينار وجعل يحرضنا على أن نشهد بالباطل أمامك فجئناك ، وقد أنطقنا الله بالحق ، وهو الذى أنطق كل شىء ، فقال الملك : اذهبوا

رزقكم الله الولاية أنتم الأربعة ، فتقبل الله دعاءه ، وأمر بحبس دياب حتى يتم نظر الدعوة .

وأمر الملك الوزير شاهين أن يبعث رسولا يأتيه ببيبرس وشرف الدين وسرحان لينظر فى أمرهم . فأرسل فى الحال « الأغا » بلالا الصالحى ومعه سائسه ، فلما وصل دار بيبرس نزل من دابته ، فوقف بها سائسه ينتظره ، ودخل بلال فسلم على بيبرس وقال له : إن الملك الصالح يدعوك إليه ، فقال سمعاً وطاعة ، اجلس قليلاً ، فجلس وأخذا يتحادثان مقدار ساعة .

وجد عثمان سائس بلال من أولاد هيضم ، وليس من أولاد الشيخ الذى هو منهم ، فقال : من جاء بك هذه الدار ، يا وجه الحمار ؟ فقال السائس : ومالك والناس ، يأيها الخناس ؟ ثم أخرج من حزامه خنجراً وتقدم به إلى عثمان مهدداً ثم رجع ، فقال عثمان : عد بخنجرك يا جبان ، ثم تقدم إليه برزته وضربه ضربة أفقدته النطق والحياة ، ثم حمله إلى ساقية مهجورة ورماه فيها ، ثم أخرجه منها وربطه فى حبل وجعل يرميه فيها ويخرجه منها ، كل أولائك وبلال وبيبرس يتحدثان ، فحانت من بلال التفاتة فرأى جواده مطلقاً فى الخلاء ورأى ما يفعله عثمان بسائسه ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، انظر ، هذا عثمان قد قتل سائسى ، وهو يعذبه بعد موته ، فقال : صبراً حتى أنظر فى الأمر . وذهب بيبرس إلى عثمان وقال : ما هذا التعدى يا عثمان؟ فقال إنه سائس

هيضمى، فقال : وليس فى ذلك ذنب ولا خطيئة، فقال : قلت لك إنه من أولاد هيضم ، فقال : يبدو لى أنك نقضت توبتك ورجعت إلى سجيتك ، وانطلقت تعتدى على الأبرياء ، ثم أمر بحبسه ، فى الأغلال والقيود ، فحبس فيها ، ثم سافر جميعهم إلى مصر تلبية لدعوة الملك الصالح .

وجاء الملك إلى الديوان فقال : الحق أحق أن يتبع ، الحق بيد الطير والله يتولى السرائر ، لأن الرجل قد قتل امرأة ظلماً وعدواناً، فسلط الله عليه من اقتص منه وقتله ، ولا يعلم بهذا الأمر إلا صاحب الأمر .

كان السائس عويس هذا قد أرسله سيده إلى المنصورة لقضاء حاجة له ، فلقى امرأة فى الطريق أعجبه جمالها ، فراودها عن نفسها ، فأبت فقتلها بغير حق ، وكان أن سلط الله عليه عثمان فقتله ، لأنه من أهل الأسرار .

ومثل أمام الملك بيبرس وعثمان فى قيوده وأغلاله، وسرحان وبلال، فقال : سبحان الفتاح العليم ، تعالَ يا بيبرس، ماذا فعلت فى بنها العسل؟ وماذا اجترحت من السيئات ؟ فقال : سل مملوك نجم الدين الذى أرسله إليه عثمان ونحن فى بنها فهو شاهد رؤية ، فأحضره الملك وسأله فقص القصة كما هى ، فسر منه الملك ومنحه خلعة وألف دينار ، وقال له اذهب وعليك العبادة فى المساجد ، فخرج إليها ولزمها ولم يذهب إلى سيده . ثم ناول بيبرس الملك حجّة كتبها أعيان بنها وكبراؤها ،فناولها

الملك للقاضى وكانت مطابقة لما قاله المملوك وشهد به ، فألجم القاضى بلجام من الحق والبرهان الحاسم ، إلا أنه مغيظ محنق .

وتقدم الأغا إلى الملك فقال : أرسلنى الوزير إلى بيبرس فأكرمنى ، ولكن عثمان قتل السائس الذى كان معى من غير ذنب ، فأتى بعثمان وهو مقيد بالحديد ، فسأله الملك : كيف حالك يا عثمان ؟ فقال : كما ترى ، فقال الملك : لا أنظر له قضية حتى يفك من قيوده ، وما يفكه إلا الأغا شاهين نفسه ، فنهض الوزير وحل وثاقه ، وسأله الملك : ماذا جرى يا عثمان ؟ فقال : يا أيها الملك : أقبل علينا فى بنها العسل هذا الرجل وسائسه الذى تعرفه ، فقال الملك : يا عثمان : إن ربك سريع العقاب ، فقال الملك : خذوا هذا القتيل وادفنوه ، ثم التفت الملك إلى شرف الدين وسرحان ودياب ، وقال : اللهم تب عليهم ، اللهم حبب بعضهم فى بعض ، اللهم وفق بينهم . اذهبوا لشأنكم ، وعليكم بتقوى الله ربى وربكم ، فنزلوا وقد عمرت قلوبهم بالمحبة ، كما حبب الله إليهم بيبرس ، وعادوا إلى بنها العسل متآلفين متحابين .

وقال الملك للقاضى : ما تبرعت به أنت والوزير أيبك لقتل بيبرس على أى وجه ، أو لإظهار الحق ، وحماية المظلوم ، وأخذ حقه من الظالم ؟ فقال : هو لإظهار الحق ، حتى لا يعمه الظالم فى ظلمه ، فقال الملك : وقد ظهر الحق ، فالمال لمن ؟ فقال : لك ، فقال الملك : وقد وهبته لبيبرس . ثم قال : ولّ على بنها أحداً من عندك ، والزم أنت محلك ، حتى يظهر

لك منصب غير ذلك ، فخرج بيبرس وأغدق على الفقراء كثيراً من أمواله ، ولزم بيت نجم الدين ، وكان القاضى فى غيظ عظيم .

وذات يوم دخل بيبرس على نجم الدين البندقدارى فوجده فى معجنة من الطين ، فقال فى نفسه : ما أبخله ! ! كيف يضن بماله ويعجن الطين بنفسه ، ولا يؤجر عاملاً يقوم بعجنه ، وكشف الله لنجم الدين عما فى نفس بيبرس ، فقال : لا تحسبنه طيناً للبناء، ولكن ما تراه عجينة من الطين الحلو ومسحوق الزعفران وقشر العنبر ، أضنع منها حبوباً وأجففها ثم أوزعها هدايا على الملك والوزراء وأهل الدولة ، فإذا ملأت وعاء منها وأرسلته إلى أحد، أخذ الحبوب وأعاد لى الوعاء مملوءاً ذهباً ، وعلى هذا العمل يجرى رزقى كل عام، ولهذا دعيت بالبندقدارى ، فقال بيبرس : وما فائدة هذه الحبوب ؟ فقال : فى الجيزة قبر صحابى جليل اسمه أبو هريرة ، يفد الملك وأرباب الدولة إلى ساحته كل عام فى فصل الربيع ويوم الخميس وليلة الجمعة ، فإذا كان هناك واجتمعت إليه الناس من كل جهة، وقف وقال: يا دائم، ياكريم، فتأتى إليه الطيور من كل ناحية على اختلاف أشكالها وأجناسها ، ثم يقول : أى طير تريدون أن أرميه بهذا الحب ليهوى إلى الأرض ، فيقولون : الطير الفلانى ، فيرميه فيقع بين يديه ، ثم يمسكه ويعرضه على الناس ثم يخلى سبيله ، ومن أراد منهم أن يرمى طيراً بعد ذلك فله ما يشاء ، ولكن لا يقدر أحد أن يرمى طائراً قبل أن يرمى الملك، وهذا دليل على دوام ملكه .

رغب بيبرس أن يذهب إلى ساحة هذا الصحابى الجليل فى الموعد المضروب ، ليشاهد ما سمعه من الوزير نجم الدين . والتفت إلى عثمان ، وقال : ساعد الوزير فى صنع الحبوب ، فجعل عثمان يصنع الحبوب وأخذ منها كثيراً وأخفاه . ولما جاء الموعد ، قال لعثمان : خذ لنا خيمة تتسع لى ولك وانصبها فى مكان من الساحة لنشاهد ما يكون فى هذا اليوم من حشد الناس والطير ، فقال : سمعاً وطاعة .

ذهب عثمان إلى عقيرب فقال له : ألم يحضر بيبرس معه عند قدومه من الشام خيمة أو صواناً ؟ فقال : أحضر كثيراً وهو محفوظ عندى ، فقال أرنيه ، فقام معه وفتح المخازن ورأى عثمان فيما رآه صوان سرجويل المهرى ، وهو يقام على ثلثمائة وستين عموداً من الذهب ، فى رأس كل عمود رمانة ذهبية ، وفيه ثلثمائة وستون ساعة ، وكان إذا أقيم على الأرض بان كأنه مدينة . فأخذه عثمان ونقله إلى ساحة الصحابى فى الجيزة ، وهناك أقامه وفرشه وأناره بالقناديل ، فكان أعجوبة الزمان .

٦

وفى صباح الخميس أقبل بيبرس إلى الجيزة ، فلما رأى الصوان غضب وقال : يا عثمان : من أمرك أن تقيم هذا الصوان ؟ إن الملك إذا رآه أخذه منا ، ثم أمر بيبرس الفراشين أن يهدموه ، فسبقهم عثمان وانتظرهم فيه ، وهناك قال لهم : إن وضع أحدكم يده على وتد من أوتاده فقد حياته ،فرجعوا سراعاً إلى بيبرس وأخبروه . فغضب وأمسك اللت بيده وهجم على عثمان فجرى أمامه وفر ، وكان الملك قد قدم هذه الساعة فارتمى بين يديه وقال : إن بيبرس طردنى وقال : لا أقبلك خادماً عندى إلا إذا دعوت الملك إلى صوانى وجلس فيه وأكل من طعامى ، وقد جئت إليك ، فقال : أمرك يسير ، فامض يا عثمان إلى الصوان ونحن معك .

ولما دخل الملك الصوان مشى إلى اليمين ومعه شاهين وأيدمر البهلوان ، والقاضى العز بن عبد السلام ، وجماعة الأكراد ، ومضى إلى الشمال الوزير آيبك ، والقاضى صلاح الدين ، وقلاوون الألمعى ، ومن يبغض بيبرس ويكرهه ، فقال عثمان : هذه قسمة طيبة ، أهل اليمين فى اليمين ، وأهل الشمال فى الشمال . ولما جلس الملك خرج بيبرس من الصوان ونادى يا عثمان. فأجابه، فقال : من أمرك بدعوة الملك وأرباب دولته ؟ وأنى لنا طعامهم ؟ فقال : الأمر سهل ، أنا أذهب إلى الملك وأقول : إن بيبرس يرجو منك أن تقوم من مكانك وتذهب إلى سبيلك أنت وأرباب دولتك،

فغضب بيبرس أشد الغضب وقال : ومن نكون حتى نطرد الملك وأرباب دولته ؟ ! فدبر الأمر برأيك يا عثمان لنخلص من هذه الضائقة . فقال عثمان : دبرته الآن ، فلا يضق صدرك ، ودعنى أنفذ ما دبرت ، ثم ذهب إلى طباخى الملك والوزراء والأمراء ، وأمرهم أن يأتوا بما عندهم من طعام إلى الصوان ، فقالوا سمعاً وطاعة ، ثم ذهب إلى كبير الطباخين وقال له : دبر حيلة يكون الغرض منها ألا يأكل من طعامنا أهل الشمال ، وهم الوزير أيبك وجماعته ، وإن لم تنجح فيها قصمت ظهرك ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم أمر الطباخ غلامه أن يأتيه بمقدار كبير من ملح الطعام، فلما أتاه به وضعه فى طعام أيبك وجماعته ، فأصبح لا يقدر أحد أن يتذوقه .

وضعت الموائد أمام الملك وجماعته فسموا وأكلوا وشبعوا ، ولما أوشكوا أن ينتهوا صفت الموائد أمام أيبك وجماعته فأخذوا لقمة فما استطاعوا أن يسيغوها ، فقاموا إلى موائد الملك ليأكلوا منها فوجدوها قد فرغت وأمر بحملها وهو يقول : اللهم اجعل البركة فى أصحابه ، وانصرهم على أعدائهم . ثم قرأوا فاتحة الكتاب وانتهت جلسة الطعام .

وكان القاضى يخفى غيظه ويبدى جلده ، فقال : أيها الملك ، إن بيبرس ما أقام هذا الصوان إلا ليشعل نار فتنة ، وإن الله لا يرضى عن هذا ، كما أنه أراد بذلك أن يقول : إن الملك لا يملك صواناً مثل هذا ، وإن هذا الصوان غنيمة ، والغنائم مرجعها بيت مال المسلمين ، فقال

الوزير شاهين : إن بيبرس قد قال لى : إن هذا الصوان لا يصلح إلا لمولانا الملك وأنا أريد أن أقدمه إليه ، فأشرت عليه أن يكون ذلك ليلة الصحابى الجليل أبى هريرة ، وهذا الصوان بين يديك فهو لك ، فقال الملك : مثلك من يكون وزيراً ، وبالأمور خبيراً ، والآن أصبح هذا الصوان ملكى ، وقد وهبته لولدى بيبرس هبة كريم لا يرجع فى عطائه . وأسأل الله العظيم ألا يقام هذا الصوان على رأسه إلا وهو ملك وسلطان ، وأسأله جل شأنه ألا يقام فى وجه كفار إلا وهزموا واندحروا . ثم بدءوا فى ذكر الله حتى الصباح .

انفض هذا الحفل السنوى ، وهدمت الخيام والصواوين ، ورحل كل إلى بلده وداره ، وعاد الملك إلى ديوانه بقلعة الجبل ، وبيبرس إلى دار نجم البندقدارى زوج خالته .

وفى اليوم التالى جعل الملك بيبرس « سلاح دار » ومنحه قاعة فى قلعة الجبل وأمره الوزير أن ينتقل إليها ويقيم فيها ، وأراد بيبرس أن يراها فدخلها هو وعثمان ، وجاسوا خلالها ، فأعجب عثمان بها وقال : هذه قاعة عظيمة ، ولكنها مظلمة ، ولهذا وجب أن نفتح فى هذا المكان منها شباكاً ، فقال بيبرس : افعل ما شئت يا عثمان . فأمسك « رزته » وضرب الحائط بها فسقطت قشرة منها وبان من تحتها اوح من الرخام الأسود ، وبجانبه لولب نحاسى ففركه عثمان بيده ، فانفتح اللوح كما ينفتح الباب ، وظهر من خلفه باب مغلق ، وبه أقفال محكمة الإغلاق ، وكان بين

ألواح هذا الباب فتحات ، فنظر عثمان منها إلى ما وراءه فوجد قاعة فسيحة بها ثلاثة شبابيك من النحاس متقاربة ، وعلى كل شباك صندوق طوله ثلاث أذرع وعرضه نصف طوله ، وعليها أقفالها ومفاتيحها ، وعلى صدر ذلك المكان ثلاثة أسطر ، فقال عثمان : انظر يا بيبرس ما خلف هذا الباب واقرأ الأسطر المكتوبة ، فنظر وقرأ : « لا يصل إلى هذا المكان إلا رجل من المجاهدين فى سبيل الله ، وقد منحته هذا المكان ، وهو محرم على غيره من بنى الإنسان ، وذلك الرجل هو بيبرس » .

ولما قرأ بيبرس الأسطر الثلاثة فتح الباب ودخل القاعة هو وعثمان ، وفتح الصناديق الثلاثة فوجدها مملوءة بالذهب والجواهر والمعادن الكريمة . ففرح بيبرس وقال : يا عثمان ، اللقيا للملك ، وإن هو علم بها أخذها منا ، فوجب أن نكتم أمرها عن سائر البشر . فقال عثمان : هذا هو الحق الذى لا ريب فيه . فاطمأن بيبرس وظن أن عثمان أمين على الأسرار .

فرش عثمان القاعة وجلس بيبرس فيها ، وتركه إلى الإصطبل ومعه شىء من الذهب ، ومضت تلك الليلة ، وفى صباحها وقف عثمان بباب الديوان فلما أقبل القاضى وأيبك وحاشيتهما اعترضهم عثمان ، وأراهم الذهب الذى معه ، وقال هذا من الخير الجزيل الذى أسبغه الله علينا ، وقص عليهم قصة الصناديق والأسطر الثلاثة كاملة لا نقص فيها ، فأنزل عليهم حسرة أشعلت النار فى صدورهم وتركهم على هذه الحالة الأليمة .

جلس الملك فى ديوانه بعد أن كمل بجلسائه ، من الوزراء والأمراء

وغيرهم ، فذكر الله وقرأ الفاتحة وقال : آمنا وصدقنا فاتصلنا : يا شاهين من أعطاه خالقه ، فمن يخانقه ، سبحان المعطى المانع ، صاحب الفضل الواسع ، أعطاه مولاه ، وأراد أن يكتم ما آتاه، فرزقه الله بمن أظهر ما أخفاه ، نظره الرجل ، فأباح الرجل للرجل ، وكاد الرجل يقتل من الغم نفسه . فتحير الوزير شاهين وقال : ما معنى هذا الكلام ؟ فقال : كلما وصيت الرجل بأن يأتيني بالخوص من نخلة مستقيمة، أتانى به من نخلة معوجة ، فقال الوزير : سبحانك ربى ابتليتنى بعظام الرجال الذين لا أفهم لهم قولاً اللهم احفظ على نعمتى ، وحياتى مع سادتى .

كان بيبرس قد حضر ووقف فى مكان وظيفته الجديدة من الديوان، فقام القاضى وقال : يا ملك ، إن ولدك المجلود بيبرس ، وجد فى المكان الذى وهبته له ثلاثة صناديق من الذهب والجواهر ، وهذا حق لبيت مال المسلمين ، فقال الملك : يا بيبرس ، أحق ما يقوله القاضى ؟ فقال : لا أدرى من هذا الأمر شيئاً ولكن عثمان الذى فتحه ، وهو الذى يعرفه ويعرف ما وجده ، فقال الملك : أحضر عثمان إلى ، فذهب بيبرس إليه وهو لا يدرى ما يقول من الغم الذى نزل به ، فوجده جالساً والسائسون معه ، فسلم عليهم ، فردوا السلام ، ثم قال : ادن منى يا عثمان لأكلمك فى أذنك ، فقال عثمان : إن كنت تحمل شيئاً على كتفك فألقه على الأرض فقال : إنى أحمل سراً وأريد أن أطلعك عليه ، فقال أنت تحكى وأنا أسمع ، فقال : هل أخبرت القاضى بما رأيناه أمس ؟ فقال : أريته

ورفيقه أيبك شيئاً مما وجدناه ، وأخبرتهما بكل شيء .

فنهض عثمان وسار مع بيبرس ، فقال له : يا عثمان ، لقد سألنى الملك عن هذه اللقيا فأنكرت معرفتها ، وقلت سل عثمان عنها فربما عرفها ولم يخبرنى ، فماذا أنت قائل إذا سألك؟ فقال عثمان : أقول ما يرضيك ، فقال : أرى أن تكون إجابتك مثل إجابتى فتقول : ما رأينا وما علمنا ، فقال : سمعاً وطاعة .

دخل عثمان على الملك وقال : سلام الله عليكم .

ثم أخذ يقص حكاية القاعة والصناديق ، والاتفاق على كتمان سرها ، وإفشائه للقاضى ، وإخبار هذا القاضى للملك ، وإنكار بيبرس ، ثم قال : قد أحضرتنى وأخبرتك بما كان ، وبعد ذلك لا رأينا ولا علمنا ، فقال القاضى : لقد أقر بلسانه ، ولا عذر لمن أقر ، وقال الملك : يا شاهين ، لمن اللقيا الآن ؟ فقال : لمولانا الملك ، فقال : وهى هبة منى للأمير بيبرس هبة كريم لا يرجع فى عطائه ، فهى الآن حلّ له ، ودعوا الكيد يأكل ذويه . وخرج بيبرس هو وعثمان وقد فرحا بما أوتيا، وبما أصاب أعداءهما من خزى وهوان. أما القاضى وأيبك فقد أصابهما غم عظيم وأخذا يدبران المكايد والمكاره .

وبعد أيام نقل الملك بيبرس إلى مكان آخر بجوار مكانه داخل القلعة. وكان المكان الجديد كامل الأثاث والأدوات ، وانتقل إليه بيبرس وسكن فيه غير متعب ولا قلق ، وبات مطمئناً هادئاً ، فلما جن الليل نهض

الملك من فراشه ، ودخل على زوجته السيدة فاطمة وأخبرها بقصة بيبرس وخادمه ، فقالت : إن هذا الغلام قد امتلأ قلبي بحبه ، فقال : وإن حظه من حبي إياه لأكثر وأعظم ، فقالت : وما دمنا لم نعقب إلى الآن فإنى أود أن نتخذه لنا ولداً ، فهو أحق بما ملكت أيدينا فهو تقى بطل همام ، فقال : كأنك تقرئين ما فى نفسى ، فقالت : قم إليه الآن وهاته إلينا .

فنهض الملك وطرق باب بيبرس فقال بيبرس : من الطارق ، فقال : افتح يا بيبرس أنا الفقير إلى الله الملك الصالح .

فنهض إليه مسرعاً وفتح الباب وقبل يده وأجلسه ووقف بين يديه ، وقال : لعل خيراً جاء بك فى هذا الوقت من الليل ؟ ! فقال : جئت لأبرم موثقاً بينى وبينك ، أن تكون ابنى وأنا والدك ، ثم قبض على يد بيبرس وقال : هذا عهد الله بينى وبينك أن تكون ابنى وأنا والدك فى الله ، وعلى ما يرضى الله ، والله وملائكته ورسله علينا من الشاهدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم قعدا يتحدثان حتى انتصف الليل ، فقام الملك مودعاً ودخل على زوجته وقد فهمت من رجوعه وحده أنه اتخذه ولداً له من دونها فهاجت وقالت : كيف تتخذه ابناً لك من دونى ، فلا كان ذلك أبداً ، وإن سقيت كأس الردى ، فتركها ورجع إلى قاعة بيبرس ، وطرق الباب ، فنهض بيبرس وفتح الباب وقبل يد الملك ، فقال له الملك : تعال معى

إلى زوجتى السيدة فاطمة شجرة الدر ، فقال : سمعاً وطاعة .

وذهب معه إليها وأبرم بينهما عهداً أن تكون أمه وهو ابنها فى الله وعلى ما يرضى الله ، ثم رجع وترك الملك وزوجته .

وفى الصباح جلس الملك فى ديوانه وقال : يا شاهين ، أريد أن يكون بيبرس على صلة دائمة بى ، فقال : ليكن أمير القصص ، يعنى أن كل من كانت له قصة أو دعوى يأخذها منه بيبرس ويعرضها عليك ، فقال : وقد أمرنا بذلك . فزاد ذلك من غيظ القاضى وقلاوون وعلاء الدين ومن معهم ممن يبغضون بيبرس ويحقدون عليه .

٧

كادت تنفطر مرارة القاضى لأنه لم يبلغ مرامه من بيبرس ، فلجأ إلى المكر والاحتيال للإيقاع به وبلوغ أمنيته فيه ، ولبث كاظماً غيظه حتّى انفض المجلس ، وسلك كل من فيه طريقه إلى داره .

ولما وصل إلى حارة الروم التّى فيها بيته ، التفت إلى غلامه وقال : كاد أستاذك ياجوان يقضى نحبه من هذا الغلام الذى كلما دبرت له تهلكة فإنها تعلو به إلى منصب أرفع وأعلى ، ولكن سأعطيك كتاباً تسير به إلى قلعة « بوارش » وتسلمه إلى عزقول البوارشى ، وتبلغه أن يعمل بما فيه ، وكان عزقول هذا نصرانيًّا ماكراً شديد المحال ، يقتل القتيل ويمشى فى جنازته .

كتب القاضى كتابه فى داره وأخذه غلامه وطار به إلى عزقول . فقرأه ووجد فيه : من الكاهن جوان إلى عزقول .

اعلم يا ولدى أن السيد المسيح أعلمنى أن قتل هذا الغلام على يديك ، فإذا قرأت هذا فقم إلى ديوان مصر وأنت فى ملابس التجار ، وستجد غلاماً قد وقف على باب الديوان يتلقّى القصص والدعاوى من أصحابها ، فإذا سألك : ما معك ؟ فاعلم أنه الغلام المطلوب ، فأعطه ورقة بيضاء داخل ظرف مقفل ، فإذا أخذها وانصرف وأدار إليك ظهره ، فاضربه بالحسام

ضربة قاتلة ، فإن فعلت ذلك وقلت : « سيمون يا سيمون » خطفك حوارى طيار من الحواريين وأتى بك عندى . وبذلك تكون قد نجوت وليس لأحد عليك سبيل . وقد وهبت لك مائة سنة زيادة فى عمرك ، وعشرة أفدنة فى الجنة ، وقل يا بركة عالم الملة جوان .

فرح عزقول لأن عالم الملة كاتبه ، فبعث إليه مع رسول أنه قائم من فوره إلى مصر لتنفيذ ما أشار به فى كتابه ، وفرح القاضى حينما قرأ إجابة عزقول ، ولبث ينتظر قدومه .

أما عزقول فإنه لبس ملابس التجار المسلمين وأسرع إلى الديوان ، وهناك أخذ بيبرس منه ورقة قصته ، ولما أدبر عنه رفع يده بالحسام وهم أن يضربه ،ولكن سيفاً من خلفه أسرع إلى عنقه وقطعه ، فارتمى على الأرض قتيلا ، وكان القاضى يرى ذلك فصاح من فوره وقال : قتل بيبرس رجلا بغير حق أمام باب الديوان ، ولا بد من قتله فيه ، وقد وهبت لقتله مائة جواد ، ومائة مملوك ، ومائة ألف دينار من مالى ،ابتغاء مرضاة الله،ومثلها من مال الوزير أيبك ، فقال الملك : أحضر المال حتى ننظر فى القضية ، ولما حضر المال سأل الملك : أأنت قتلت يا بيبرس هذا الإنسان فقال : ورب الكعبة ما قتلته ، فقال القاضى : كذبت وما قتله أحد غيرك ، وفى هذا الوقت دخل الديوان اثنان أخوان من أولاد إسماعيل أحدهما اسمه صقر الاولبى ، والثانى اسمه صقر الهجان ، فوقفا بين يدى الملك وقالا : نحن اللذان قتلنا هذا الرجل ، وبيبرس برىء من دمه ،

ولا ذنب له ، ولا يدرى شيئاً عنه ، وهذا الرجل اسمه عزقول البوارشى ، وهو نصرانى خبيث ماكر ، وقد تبعناه حينما عبر طريقنا ، وسرنا من خلفه إلى الديوان ، ولما هم أن يقتل بيبرس أسرعنا نحن وقتلناه ، ونجينا بيبرس من سيفه ، فأمر القاضى أن يتبين دين القتل وملته ، ولما فحصه قال : إنه نصرانى يا مولاى ، فقال : وما جزاؤه عندك ؟ فقال القاضى : جزاؤه أن يحرق، فقال : افعلوا ما أشار به القاضى ، ثم قال : هل وهبت المال لقتل بيبرس أو لإظهار الحق ؟ فقال لإظهار الحق ، وقد ظهر واضحاً كالشمس، ولهذا فهو هبة منى لك يا مولاى ، فقال الملك وقد وهبته لبيبرس هبة كريم لا يرجع فى عطائه . وأمر بيبرس أن يضيف الأخوين عنده ويكرمهما .

أخذ بيبرس الأخوين إلى بيت نجم الدين وأكرمهما إكراماً جميلاً سابغاً ، وبينما هم يتحدثون فى الليل قالا له : إنك ذو منزلة رفيعة فى الديوان وللناس عندك مصالح وضيافات يأتونك فيها ، ولهذا كان من اللائق بك أن تشترى داراً خاصة بك تقيم فيها وتستقبل زائريك والوافدين عليك ، فقال : إنى مملوك يا إخوانى والمملوك لا يملك، فقالا : ما أنت إلا من أكابر الملوك، وهذا ما وجدناه لك فى جفر الإمام على كرم الله وجهه، وذلك تقدير العزيز العليم، فقال : ذلك شيء لايكون إلا بعد العتق، فقالا : سنتحدث غدًا إلى الملك فى هذا الأمر، فقال : افعلا مابدا لكما ولن يكون إلا ما أراد ربى وربكما. ثم ذهب كل إلى مكان نومه.



الملك الصالح أيوب فى الديوان على يمينه القضاة والعلماء وعلى شماله الوزراء
وقد وقف بيبرس بجانب وبجواره رجل فى ثياب المماليك يهم بقتله — قد قطعت رأسه

وفى الصباح أخذ الملك مجلسه من ديوانه كعادته ، وذكر الله وسبحه وصلى على نبيه ، ثم دخل الضيفان الأخوان ، فاحتفى بهما الملك وأجلسهما ثم قال : يا شاهين ، تكلم الناس بالحق ، ونطقوا بالصدق ، والله إن الحق معهم ثم نادى : يا بيبرس، فقال نعم يا ملك ، فقال : ألم أقل لك يوم كنا فى أرض الجيزة « أنت حر لوجه الله تعالى » ؟ والمؤمن يا ولدى إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإنى أشهدكم يا معشر الحاضرين أن بيبرس هذا حر لوجه الله الكريم ، ومن أجله جميع المماليك الذين أتوا معه أحرار لوجه الله الكريم ، ثم قال : اكتبوا لكل واحد حجة بذلك ، وأعطوا كلاً حجته . وسمع هذا الضيفان فاعتقدوا ولايته ، لأنه سبقهم وأجابهم عما كانوا يريدون أن يسألوا عنه ، ثم قالوا : أيها الملك الصالح إن بيبرس مكتوب عندنا فى جفر الإمام على أنه من أكابر الملوك ، فقال : صدقتم ، وأحب أن نستمع لحديثكم عن أصل بيبرس ما دام مكتوباً عندكم فى جفر الإمام على ، ليفرح به محبوه ، ويحزن مبغضوه ، فقالوا : سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين : ثم أخذوا يقولون :

كان للشاه جملك أخوان ، أحدهما اسمه شاه طلعة ، والثانى اسمه شاه لمعة ، فأراد أبوهما أن يختبرهما ليعرف من منهما يصلح للملك من بعده ، فأناب عنه فى الحكم الشاه طلعة وأجلسه مكانه يوماً . وفى الليل سأله : كيف رأيت نفسك وأنت ملك ؟ فقال : رأيت نفسى سبعاً كاسراً والرعية أمامى غنم ، فقال له : إنهم يرونك كما تراهم ، ثم أجلس أخاه الثانى وهو

الشاه لمعة يوماً أيضاً ، وفى الليل سأله : كيف رأيت نفسك وأنت ملك ؟ قال : رأيت نفسى مثل الصقر الجارح والرعية أمامى طير ضعيف ، فقال : إنهم يرونك كما تراهم ، فلما كان اليوم الثالث أجلس ابنه الصغير ، وهو شاه جمك يوماً ، ثم سأله فى الليل : كيف رأيت نفسك وأنت ملك ؟ فقال : رأيت نفسى مثل عصفور ضعيف بين صقور جارحة ، وخيل إلىّ أنى إذا نظرت إليهم أكلونى ، فقال : إنهم رأوك كما رأيتهم ، ولا يصلح للملك إلا أنت ، فولاه ملكه وتنازل عنه له ، فحسده أخواه ، وقالا : كيف يكون أصغرنا وأحق بالملك منا ؟ ! ! ثم اتفقا على تدبير حيلة لقتله والخلاص منه ، فأظهرا فرحهما بأخيهما ، وأخذا فى السعى لقتله قبل أن يموت أبوهم ، حتى يكون الملك لهما من دونه ، ولكن أجل أبيهم كان قريباً ، فما لبث أن مات ودفنوه ، وتولى شاه جمك ملكه من بعده واتخذ أخويه وزيرين له ، وقال أنتما أخوى ووزيرىّ وأمر الدولة فى أيديكما وإنى مطيع لكما . وأسبغ عليهما نعماً كثيرة ، وسوى بينه وبينهما ، وظن أن هذا يمحو ما فى نفوسهما من حقد وحسد .

وذات يوم دخل عليه أحد أحبائه وأسر فى أذنه : إن أخويك قد ائتمرا بك واتفقا على قتلك بمعونة رجال أشداء سيسخرونهما فى غرضهما هذا ، وأرى أن تنجو بنفسك وتهاجر فى أرض الله ، فإنه لا أمان لك منهما ما دمت معهما ، والله يتولاك حيثما كنت ، وكان شاه جمك يثق بهذا الرجل كل الثقة ، فاستمع لنصيحته ، ورحل من خراسان فى غسق

الليل تاركاً ملكه وأهله ووطنه ، وجعل يسير فى القفار إلى أن وصل إلى خوارزم ، وبينما هو سائر فى طريقه وجد أسداً كأنه الثور فى حجمه ، اعترض سبيل رجل كبير السن وهو راكب جواده ، ويستغيث ولا مغيث ، وليس لديه قوة يدفع بها هذا الخطر الجسيم ، فاتجه بقلبه إلى الله وقال : اللهم لا تكلنى إلى نفسى ، وسخر لى من ينجينى ، فأنت الرحمن الرحيم . أقبل الشاه جملك ، وأدرك الخطر الذى نزل بهذا الرجل العجوز ، فقال فى نفسه : فرج كربة هذا الرجل ، فعسى الله أن يفرج كربتك ، فنزل عن جواده ، وتقدم نحو الأسد قائلاً : إلى أين يا كاب البر ، فاطمأن الشيخ العجوز وأيقن بنجاته ، أما الأسد فإنه التفت إلى الشاه جملك وأقبل نحوه يبغى افتراسه ، فبادره شاه جملك بضربة قوية من سيفه بين عينيه فشقت رأسه نصفين ، ووقع على الأرض لا حراك به ، ثم أقبل على الشيخ وقال له لا تخف فإنى أفتديك بنفسى ، فقال : لا شلت يداك ، ولا كان من يبغضك ، وصحبه الشيخ إلى خوارزم العجم ، وسأله الشاه جملك : لم خرجت من غير غلمان وخدم ؟ فقال : كان معى سبعون رجلاً ، وكنا قد خرجنا للصيد والقنص ، فوقعت بيننا غزالة أحطنا بها وقلت : من تفلت منه الغزالة فهو خصيمى ، فلم تقدر أن تفلت من بينهم ، ولكنها وثبت من فوق رأسى وثبة عالية وطارت فى الخلاء ، فنظر بعضهم إلى بعض يتغامزون، فقلت لهم : امضوا إلى سبيلكم ،وأما أنا فسأتبع الغزالة حتى أصيدها ، ولن أرجع إلا بها ، ثم جريت خلف الغزالة وهى تجرى

حتى وصلت إلى هذا المكان، وطلع على فيه الأسد على نحو ما رأيت ، ولولا قدومك لكنت من الهالكين . فهنأه بسلامته ، وما زال سائراً به حتى دخلا خوارزم وكان هذا ملكها واسمه عبد الله، فجلس الملك وأجلسه بجانبه، وبالغ فى إكرامه والحفاوة به وزوجه ابنته أبق ، وبعد أن استقر به المقام مع زوجته، سأله الملك عبد الله عن ماله وبلده ومقصده ، فسرد له ما جرى له من أوله إلى وقت حديثه معه هذا، فرثى لحاله وأشفق عليه وكتب له بملكه من بعده ، ووصى به كبار دولته وأعيانها كما وصاه بابنته ، ثم أدركته الوفاة، وواروه فى التراب ، وجلس على عرش ملكه ، فأصلح وعدل ، وأشفق ورحم ، وعامل الناس بالحسنى فأحبوه والتفوا حوله وكانوا له أعظم قوة وأشد سندًا، ورزقه الله خمسة أبناء ، وكان محمود أصغرهم وأكرمهم عند والده، وهو الذى تبنته فاطمة القوسية وسمته «بيبرس».

وذات يوم خرج شاه جملك إلى صلاة الجمعة وأولاده من حوله ، فرأى أخويه اللذين كانا يسعيان فى قتله ، واللذين كانا السبب فى هربه وتركه ملكه — رآهما — على حالة شنيعة من البؤس والفقر ، وعرفهما ، ولكنه تركهما فى المسجد ولم يسأل عنهما ، أمر بعض خدمه أن يأخذوهما ويكرموهما ويلبسوهما أفخر الثياب ثم يأتوه بهما ، ففعلوا ما أمر به الملك . ولما دخلا عليه فى ديوانه قام إليهما وضمهما إلى صدره وأجلسهما بجانبه .

وسألهما عن حالهما وما جرى من بعد فراقه لهما ، وعن سبب قدومهما

فقالا : لقد تركتنا على غير علم منا ، فضاقت علينا الدنيا بعد فراقك ، وما استطعنا أن نعيش بدونك ، فخرجنا نبحث عنك فى أرض الله الواسعة ، وقد ضاعت الدنيا من أيدينا ، وساءت حالنا، ونحمد الله الذى أرانا وجهك فى خير وسلامة ، وقد نسى ما كان منهما واتخذهما وزيرين، ولكن الشر لا يزال متقداً فى نفسيهما ،والحسد لا يزال يأكل فى صدريهما ورأيا محبته لابنه الصغير محمود فقالا : لا بد أن نفجعه فيه ، ونسيا فضله عليهما ، ونعمه التى يتفيــآن ظلالها ، بعد فقرهما ، وطردهما من أرضهما .

وكانا قد توليا الملك معاً بعد أخيهما الهارب منهما ، لكل منهما يوم يتولى فيه الحكم ، وقد ظلما وبغيا ، وأساءا إلى الناس فى أموالهم وحرياتهم حتى اضطرب حبل الأمن وسدت أبواب الرزق فى وجوه الناس ، ولم يستطيعوا صبراً على هذه الحال فثاروا عليهما فطردوهما ،واختاروا لهم ملكاً من أنفسهم معروفاً بالعدل والاستقامة وحسن التدبير والسياسة ، ومشى الأخوان فى أرض الله حتى وجدهما أخوهما فى المسجد وأخذهما وأكرم مثواهما . وكان لا يظن أنهما كذبا عليه فى ادعائهما ترك الملك والبلاد من أجله ، كما لا يدرى أنهما لا يزالان يضمران له الحقد والعداوة .

وذات يوم عرضا عليه أن يخرجا للصيد والقنص ، وأن يكون ابنه محمود معهما ، فقال : لا بأس فى ذلك ، ولكن لا أحب أن يغيب عنى محمود كثيراً ، فقالا : لا تزيد مدة غيبتنا عن سبعة أيام أو عشرة .

سار الأخوان ومحمود ومعهم خمسون فارساً، ولما أوغلوا فى الوادى وأبعدوا

نصبوا خيامهم ليبيتوا تلك الليلة فى مكانهم هذا ، وفى منتصف الليل والفرسان غارقون فى نومهم نهض الأخوان الوزيران وربطا محموداً على جواد وركبا وسارا خفية مسرعين ، وتركا الفرسان نائمين ، ولما استيقظ الفرسان فى الصباح لم يجدوا محموداً ولا الوزيرين ، فظنوا أنهم بكروا للصيد وانتشروا فى الوادى هنا وهناك يبحثون عنهم فلم يجدوا أحداً،فرجعوا إلى أبيه آسفين وأخبروه ما حصل فندم واشتد حزنه على فراق ابنه ، وكان حزن أمه أشد وأوجع .

استمر الأخوان الوزيران سائرين فى سرعة حتى أمنا أن يلحقهما أحد من الفرسان ، فدخلا به مغارة على بابها عين ماء ، وأراد أحدهما أن يقتله فمنعه الآخر وقال : نحن فى غربة ولا ندرى ما يصيبنا فيها ، فقال : وماذا نحن فاعلان بهذا الغلام فقال : نحفر له حفرة ونلقيه فيها وهو مكتوف اليدين والرجلين ثم نضع فوقه حجراً ونتركه ، فإن عاش فذلك حظه ، وإن مات فذلك أجله، فاستحسن هذا الرأى وألقياه فى الحفرة ، وقالا : هذا قبرك الذى ستلقى فيه ربك ، فاغرورقت عيناه ، بالدموع وقال : هل فعلت شيئاً معكما يستوجب رمي على هذه الصورة؟! فقالا : هذا جزاؤك وجزاء أبيك ، ثم تركاه ومضيا .

أما محمود فإنه أناب إلى الله وأسلم له وقال : أسأل الله العظيم أن يخلصنى مما أنا فيه ، وأن يجزى الظالم بظلمه ، فتقبل الله دعاءه ، وبقى فى حفرته بقية يومه وليلته ، وهو يدعو الله أن ينجيه ، وفى اليوم الثانى مر به

رجل من دراويش الأعجام يظهر الإسلام ، ولكنه رافضي يعبد الشيطان ولا يعصيه ، واسمه محمود العجمى ، فقال : ومالى لا آخذ هذا الغلام وأبيعه فى الشام ؟ ! فإن ثمنه أحسن منه ، وأسرع ففك وثاقه وسار به حتى كان فى دمشق ، فرض لحكمة يعلمها الله ، فألقاه العجمى فى الحمام ، وكان يزوره من حين إلى حين ويقول فى نفسه : إن شفى بعته وانتفعت بثمنه ، وإن مات دفنته واسترحت منه ، ولما آن الأوان أرسلتَ يا ملك على بن الوراقة من مصر فاشتراه بالصرة المجهولة وجاء به إليك ، وهذا أصل محمود بيبرس ، كما هو مرسوم فى الجفر ، ففرح الملك وشاهين وأحباؤه ، كما زاد غيظ القاضى ومن على شاكلته ممن يحسدونه ويبغضونه . وقال الملك : يا بيبرس : اذهب الآن واشتر لك بيتاً خاصاً بك بشرط أن تصلى الجمعة غداً فى مسجد ابن طولون : أما الضيفان فإنهما باتا تلك الليلة ثم رجعا إلى قلعتهما فى الصباح .

٨

ركب بيبرس جواده وعثمان من خلفه إلى جامع ابن طولون ، ولما كان عندالمسجدنزل وتركا الحصان فى مكان حريز ودخلا المسجدلصلاة الجمعة.

ولما خرجا من المسجد وأراد الأمير أن يركب جواده سمع نداءً من دلال يعلن بيع البيوت ، ويعرفُ الناسَ بأماكنها وأصحابها : بيت فلان وهو فى حارة كذا ، وبيت فلان وهو فى حارة كذا ، حتى قال : عندنا بيت أحمد بن أباديس السبكى ، أوله خضرة الجنة ، وآخره سويقة الصباغين له أربعة أبواب ، وأربعة أفنية ، وبه ثلثمائة حجرة وبستان به أربع وعشرون ساقية ،

أمر بيبرس عثمان أن يدعو إليه الدلال ، فلما أحضره سأله بيبرس : وهل عرضت هذا البيت للبيع من قبل ؟ فقال : عرضته للبيع مرات عدة ، وكلما ذهب إليه جماعة وأعجبهم ، أبت سيدات السبكى الأربع أن يبعنه لهم . فقال بيبرس : تعالَ معى إليه ، فإذا أعجبنى اشتريته ، ومضى الدلال وبيبرس وعثمان حتى كانوا أمام الباب الكبير ، ففتح الدلال باباً صغيراً فيه ، وقال ادخلا : فقال بيبرس : افتح الباب الكبير حتى ندخل ، فقال : إن هذا الباب لن يفتح ، وقد أوصتنى السيدات أن أحضر إليهن الرجل الذى يفتحه ، فقال : بيبرس : هات مفتاحه ، فناوله إياه ،

وعالج بيبرس فتحه مستعيناً بالله فانفتح الباب من غير مشقة ولا تعب ، فقال الدلال : سر بنا حينئذ إلى السيدات ، وكان أحمد السبكى قد جعل لهن منزلا فى غير هذا المكان يقمن فيه ، فدخل الدلال عليهن وقال : جئتكن بمن فتح الباب الكبير ويريد أن يشترى البيت ، فقلن : هاته ، فدخل بيبرس وعثمان ، فلما رأينهما قلن : مَن يريد شراء البيت من هذين الرجلين ؟ أهذا الرجل الذى يخطف العمائم ، أم هذا الغلام المملوك ؟ فقال : هذا الغلام ، فقلن له : أحق ما يقوله الدلال ؟ فقال : نعم . فقلن : وما اسمك يا فتى : فقال اسمى بيبرس ، واسمى الأصلى محمود ، فنظر بعضهن إلى بعض ، وأمرنه بالجلوس فجلس ، وقلن له : عسى أن يكون البيت من نصيبك ؟ ! فقال : ذلك ما يعلمه علام الغيوب ، فقلن : اقصص علينا حديث نسبك وحسبك وأصلك ، فذكر أصله وتاريخ نشأته ، وفصل ذلك تفصيلاً يطابق الواقع والوارد فى جفر الإمام على ، فتبادلن الحديث بلغة يعرفنها ولا يعرفها ، وكنّ يقلن : لقد ظهرت فيه بعض العلامات ، فمن منكن يقدر أن يظهر العلامات الباقية ؟ فتقدمت واحدة وقالت : وهل تملك ثمن هذا البيت ؟ فقال : نعم ، ومعى ثمن عشرين بيتاً مثله . فقالت : إنك تدعى القدرة والغنى ، وإن ما عليك من الملابس لا تبلغ قيمتها درهما واحداً . فلا بد أن تكون كاذباً محتالا . فغضب الأمير وظهرت النقط السوداء فى وجهه وشعرة الأسد بين عينيه وسبع اللحم بين حاجبيه ، فعرفن فيه هذه العلامات ، وقلن له :

لا تغضب فما سمعت منا إلا مزاحاً ، وقد عرفنا أنك صاحب هذا البيت وأنه لن يشتريه أحد غيرك ، ومع هذا فقد بعناه لك ، ولن نبيعه لك بمال أبداً ، ولكن بحاجتين اثنتين ، الأولى أن تلعب بهذه «القنطارية » التى لأحمد السبكى ، وكانت زنتها مائة رطل سبكى ، وهى مطلسة محبوسة إلى بيبرس ، فأخذها ولعب بها فى مهارة فائقة ، فقلن : وهذه من علاماتك أيضاً ، والحاجة الثانية أن تبنى لكل واحدة منا بيتاً فى حارة وبه مسجد تدفن فيه وتسمى باسمها فقال : سمعاً وطاعة ، وما أسماؤكن ؟ فقلن : غمرة ، ومسكة، ولاله ، والحويدرية . ثم سلموه حجج البيت ، وكان فرحه بالقنطارية وبشراء البيت عظيماً ، فأمر عثمان أن يحضر القاضى ليكتب حجة البيع والشراء ، فأحضره سريعاً وكتبت حجة البيت وشهد القاضى وختمها ، ثم سلمها إلى الأمير بيبرس ، وأصبح البيت ملكه لا ينازعه فيه أحد .

أمر بيبرس عثمان أن يأتيه بجماعة من المهندسين ، ليبينوا له مزايا مافيه ونظامه وحجراته وغيرها ، فلما جاءوا مشى قليلاً فيه معهم فوجدهم لا يعرفون عنه شيئاً ، فأرجأ النظر إلى وقت آخر ورأى رجلاً فقيراً عليه ثياب رثة وقد انتحى ناحية وجلس فيها بعيداً عن المهندسين فسألهم عنه فقالوا : إنه رجل فقير مسكين سائل يتبعنا عسى أن يناله من ورائنا بعض الإحسان ، فذهب إليه وجلس بجانبه وقال : ما صناعتك يا سيدى ؟ فقال : أنا مهندس ولست بسائل ، وهؤلاء المهندسون أتباعى ، وكانوا يعرفون قدرى ،

فلما عافنى الزمن وركبتنى نوائب الحدثان، اشمأزوا منى واحتقرونى ، ولما اشتدت بى الضائقة ، ذهبت إلى السيدة نفيسة وصليت فيها الصبح وجلست بجوار المقام أستغفر الله وأسأله تفريج كربتى ، وأخذتنى وأنا جالس سنة من النوم، فرأيت السيدة فى أبهى حلل الجنة وهى تقول لى : يا علىّ ، زال عنك الفقر بإذن الله ، فاذهب إلى ولدى بيبرس فى بيت أحمد بن أباديس السبكى تجده قد جمع المهندسين ، وسيسألك عما يريده فأجبه وحدثه بما فى البيت من الأمور العظيمة ، وانتبهت من منامى وجئت فوجدت المهندسين عندك ، وسألتهم عنى فأنكرونى وقالوا : لا نعرفه . واعلم أن هذا البيت ما بناه إلا علىّ الذى يحدثك الآن ، ولا يعرف فيه شيئاً أحد غيرى ، فامنح المهندسين بعضاً من المال على سبيل الإكرام والإحسان، واصرفهم إلى شأنهم، وسأخبرك أنا بكل ما تريد ، وفعل بيبرس ما دله عليه علىّ ، ثم منحه خلعة قيمة وألف دينار وقال له : امض إلى بيتك واستحم والبس الخلعة التى أخذتها ثم ائتنى غداً ، فقال سمعاً وطاعة .

وفى الصباح أتاه المهندس فوجد عثمان معه ، فسلم وجلس ، ثم رجا منه أن يكشف له عن غوامض هذا المكان ، فقال : إن شاء الله ، ولن أترك غامضاً حتى يتضح لك ، وأخذ يطوف به هنا وهناك حتى كانوا أمام دعامة سوداء تبتدئ من أسفل البناء إلى أعلاه ، فسأله عنها ، فقال : إنها دعامة ، وأنا أعرف ما فيها ، وأعرف كيف أفكها وأعيد تركيبها فى ساعتى هذه ، ولكن قبل أن أخبرك بشىء عنها حقق لى

شرطين ، فيهما بشرى عظيمة لى ولك .

أما الشرط الأول ، فإن السيدة نفيسة أخبرتنى أنك ستكون ملكاً مطاعاً مسموع الكلمة نافذ الإرادة،وإنى أتمنى أن تجعلنى حينذاك مهندس السلطنة وأبنائى من بعدى ، فماذا أنت قائل ؟ فقال بيبرس : لك ذلك إن شاء الله ،وما الشرط الثانى ؟ فقال : مر خادمك أن يتركنا وحدنا قليلا ثم يعود،فالتفت بيبرس إلى عثمان وقال : اتركنا قليلا ثم ارجع ، فقال : لن أفارقكما أبداً ، فقال بيبرس : وما يضيرنا بقاؤه معنا ؟ فقال : ذلك سر لايطلع عليه أحد غيرك ، فقال عثمان : وأنا كتوم للأسرار ، فقال المهندس : إن من الأسرار ما لا يجوز إظهاره بأى حال . فهل تستطيع دفنها فى صدرك فلا تبوح بشىء منها ؟ فقال : اطمئنّا، ووصيا أنتما أنفسكما . فأخرج المهندس من جيبه شيئاً يشبه « الإزميل » ونقر به الجدار ثلاثاً ، ثم نقر فى مكان آخر ، وهكذا ،حتى عرف الباب ، وكان باباً صغيراً من النحاس الأصفر المطلسم . ولكنه متين مصمت لا يعمل فيه « الأزميل» فأحضر ماء الانحلال ،وجعل يصب منه على الباب حتى أذابه، ثم دخلوا واتجهوا نحو اليمين ، فوجدوا قاعة بها أربعة أواوين على كل إيوان شبكة من اللؤلؤ الأبيض المنظوم بأسلاك من ذهب وفضة ، وفرشت أرضها بالزعفران المخلوط بالعنبر ، وبها فرش مطرزة بالحرير ، وشىء كثير من الحلى والحلل على أسرة من خشب الساج الهندى المصفح بالمذهب ، وبكل إيوان شخص من النحاس الأصفر ، ومعه مكنسة من الرصاص ،

وفى كل أربع وعشرين ساعة تدبُّ فيه روح فيكنس ، والأنهار تشق تلك القاعة من عيون الأسرة والشخوص . وكانت هذه قاعة الوزير أحمد ابن أباديس السبكى زمن الربيع والصيف ، وكان يسميها الجنة الصغرى ، وكان إذا جلس فيها أمر بإدارة السواقى ،فيصل الماء إلى الأشخاص فتدور اللوالب بحركة جريه،وتهب الرياح وتمايل الأشجار ويطيب المقام فيها ثم كشفوا الستار الأول فوجدوا من خلفه أربعة صناديق كبيرة، وعليها أقفالها ومفاتيحها ، وكتب على كل صندوق : « أيها الواصل إلى هذا المكان ، اعلم أن هذا وقف لله تعالى على الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله ، وقد وهبته لملك المسلمين بيبرس ، وقد أعددته له لا لغيره ، ورصدته بعلوم النجوم والفلك ، يفعل به كل ما يريد ، وكل من عارضه تصرفت فيه قدرة الله تعالى ، وصار هذا المكان قبره إلى أن يلقى ربه » ، فلما قرأ الأمير هذه الكتابة خر ساجداً لله شكراً وحمداً .

ثم فتحوا الصناديق فوجدوا فيها قطعاً كبيرة من المعادن ، وكان عثمان يختلس من كل صندوق شيئاً ويخبئه فى جيبه خفية، ثم ذهبوا إلى الإيوان الثانى فوجدوه مثل الأول وأكثر : ثم ذهبوا إلى الإيوان الثالث فوجدوا فيه الياقوت والدر واللؤلؤ ، ووجدوا فى الإيوان الرابع أربعة صناديق مملوءة بحجج بيوت وخانات وحواصل ومطابخ وقهوات ودكاكين وحارات وحمامات من مصر القديمة إلى أسوان ، ومن مصر إلى الفيوم ، هذا وعثمان يأخذ من كل شىء ويخفيه ، ووجدوا بالفسقية أربعة وعشرين

سراجاً من الذهب المرصع بالجواهر ، ووجدوا ثمانية وأربعين « بشتا » من الزرد النضيد ، ومثلها من السيوف الهندية . ومثلها من « الشواكر » اليمانية المحلاة بالذهب والفضة ، ومثلها أترامس ، فحمدوا الله كثيراً وانتقلوا إلى جهة اليسار فوجدوا القاعة الثانية ، وبها أربعة أواوين كالأولى كلها أوان من الياقوت والمرجان ، وهذه القاعة كان يجلس فيها أحمد بن أباديس السبكى زمن الشتاء ، ويسميها النار الحمراء ، ويقال إنه كتب على كل آنية « دواء للداء الفلانى » . وكل آنية مكتوب عليها طريقة استعمالها للعلاج من المرض ، فقال الأمير : ما هى بنار حمراء ، ولكنها شفاء من كل داء ، فرحم الله من صنعها وأعدها ، ثم خرجوا وقد أعطى الأمير المهندس من كل شىء فأصبح غنيًّا لا يعرف الفقر له سبيلا ، ثم أمره الأمير بهندسة المكان وتصليحه ، فقال : سمعاً وطاعة .

التفت الأمير إلى عثمان وقال : لا تخبر أحداً بما رأينا ووجدنا ، فقال : أوص نفسك أنت . وأعطنى من ذلك شيئاً ، فقال : خذ ما شئت ، فأخذ عثمان ما أراد ، ثم أغلق الأبواب ، وأعطى المهندس المفاتيح ، ووصى عثمان بالكتمان .

وقف عثمان أمام باب الديوان ، فلما جاء أيبك والقاضى قال لهما : فقئت عينك أنت والقاضى ، انظروا إلى ما أعطانا الله من متاع الدنيا ، وعرض عليهما ما معه من جميع الأصناف ، فعظمت عليهما واحتدم غيظهما فى صدرهما وقالا : حدثنا يا عثمان عن هذا المكان الذى وجدتم

فيه ما وجدتم ، فحدثهما عثمان بكل ما رأوا ووجدوا . وتركهما عثمان يتمزعان من الحقد والحسد ، والتفت أيبك إلى القاضى قائلا : لقد كنت السبب فى ضياع مالى ، وبيبرس هذا رجل مسعود ، تحفظه عناية ربه . واذكر أنك كلما دبرت له مكيدة تضيعه ، علت به الأقدار إلى أسمى المناصب والرتب ، وقد ملك بيت أحمد بن أباديس السبكى ، وما فيه من المال والحجج ، فقال القاضى : اصبر وما صبرك إلا بالله ، فقد قرب موعد هلاكه ، وسوف ترى قريباً ، وإنى أبشرك بأن هذا البيت سيكون لك ، ولا ينازعك فيه أحد ، فقال أيبك : إذا كنت لم تيأس فدبر لنا مكيدة شاملة ، فقال : إن شاء الله ، وسترى ما يسرك ويرضيك .

جلس الملك الصالح فى ديوانه وقال : سبحان المالك المعطى الوهاب ، يا شاهين ، أنا عبد الله ، وأنت عبد الله وقد أعطانى ربى فلأى شيء تحسدنى وتنازعنى ؟ ! والذى أعطاه أوجد له من يدافع عنه ، فارجع يا شاهين عن الحسد ، وأبعد الطير عن الطير ، والطير نهب الطير ، والطير أصبح طيراً من طير ، وكبرت حوصلته ، فقال شاهين : ماذا جرى يا مولاى ؟ فقال : لا تؤاخذنى ، أسبل الله عليك ستره ، وجعلك عزيزاً مهيباً فى الدارين . فقال شاهين : اللهم تقبل ، اللهم لا تحرمنى من سادتى .

وبعد ذلك وقف القاضى بين يدى الملك وقال : يا مولاى ، إن ابنك المسعود بيبرس قد اشترى بيت أحمد بن أباديس السبكى ، ووجد فيه شيئاً

كثيراً من الذهب والفضة والجواهر وحجج العقار ، فقال الملك : إن بيبرس لم يحضر اليوم إلى الديوان ؛ إنه بسبب ما وجد من المال تكبر على الوزير والملك ؛ إن بيبرس أصله من الكفار ، والفرع من أصله ، إن هذا كله دليل على صحة قول القاضى ، فقال الوزير : إن بيبرس لم يتكبر علينا ، ولكن مولاى أمره ألا يحضر إلى الديوان إلا بعد أن يشترى له بيتاً ، فقال الملك : وقد اشتراه فما الذى أقعده وأخره ، فظن القاضى وأيبك أن الملك غضب على بيبرس ،ولكن بيبرس حضر إذ ذاك وتقدم إلى الملك داعياً له بالعزة والسعادة ، معترفاً بأنه عبد الملك وخادمه ، فقال الملك : الله الله يا شاهين عمر الله بك الأرض ، وجعلك ملكاً ، وأقام سعدك ، وأهلك ضدك ، هل اشتريت يا بيبرس دار أحمد السبكى ؟ فقال : نعم . فقال : أخبرنى القاضى أنك وجدت أموالا كثيرة لا تحصى فقال بيبرس : ما رأيت شيئاً . فقال القاضى لقد أخبرنى عثمان بذلك ، وشهد على قوله الوزير أيبك ، فقال الملك : احضروا لنا عثمان نسأله .

فخرج بيبرس إلى عثمان ليأتى به ، فنادى : يا عثمان . فقال : ثعبان يلدغك ، نعم ، ماذا تريد ؟ فقال : هل أخبرت القاضى وأيبك بما وجدنا فى دار أحمد السبكى ؟ فقال : أخبرتهم بكل شىء وعرضت عليهم ما وجدناه ، فغضب الأمير وقال : يا عثمان لقد سألنى فأنكرت ، وقد طلبك الملك يا عثمان ليسألك . فتعال معى إلى السلطان . فقال : سر معى وسأخبره بكل شىء فقال بيبرس : إذا سألك فأنكر يا عثمان وكذب القاضى

وأبيك ، فقال : سمعاً وطاعة .

ودخل عثمان وحياهم جميعهم تحيته المعروفة الساخرة ، كل على حدة ثم أمره القاضى أن يحكى عما رأوا ووجدوا . فقص عليهم قصة الدار كاملة وأعلمهم بكل شيء ، ثم التفت إلى القاضى وقال : لمن هذه الأشياء والأموال التى وجدوها فى دار السبكى ؟ فقال : للملك ، فقال وقد وهبّها للأمير بيبرس هبة كريم لا يرجع فى عطائه ، فماذا تقول أيها القاضى ؟ فأجاب إن هذا البيت كبير . وأعرف أنه يزيد عن خمسة وسبعين بيتاً ، والحق أن يأخذ كل منا جزءاً منه يكون بيتاً له ، فقال الملك : يا بيبرس بكم اشتريت هذا البيت ؟ فقال اشتريته بهذه « القنطارية » فقد أوصى صاحبه أن من رفعها ولعب بها كان ذلك ثمناً للبيت ، فقال الملك : ضعها أمامى لأفصل فى القضية ، فوضعها بيبرس أمام الملك .

أعلن الملك حينذاك : أن من استطاع من الحاضرين أن يلعب بهذه « القنطارية » كان له جزء من البيت ، وقال : وسأبدأ بنفسى لأنى أحب أن آخذ قطعة أرض من تلك الدار . ثم نهض الملك ووضع يده عليها وقرأ عليها ما قرأ ليثبتّها فى مكانها ، فلا تتزحزح ، ولا يقدر أحد أن يرفعها ، ثم حاول هو أن يرفعها من مكانها فلم يقدر ، فتركها وجلس ، وتنادى الوزراء والأمراء والكبراء على رفعها . فما استطاعوا ، فقام القاضى فى نشاط وهمة وقال أنا أرفعها وألعب بها ولى نصف البيت ، فقال الملك : إن أنت نقلتها من مكانها فلك نصفه ، فأمسكها القاضى ونهض بها فلم

تتحرك، وانطلق منه صوت مدفع السلامة. فضحك الحاضرون وعاد القاضى إلى مكانه غارقاً فى خزيه وفشله وغيظه . ثم قال الملك : سأجرب نفسى مرة ثانية ، فعسى أن أرفعها أو أنقلها ، ثم نهض الملك إليها وأمسكها وقرأ عليها ما قرأ فزال ثباتها وثقلها ، ثم جلس وقال : تقدم أنت يا بيبرس وأرنا كيف قدرت أن ترفعها ؟ فأمسكها بيبرس بيده ورفعها فارتفعت وكانت فى يده كالعصا ، وقد لعب بها أمامهم عشرين باباً ، فقال الملك حينئذ : يا بيبرس هنئت بما أعطاك ربك ، والله يا شاهين إنه جدير بما منحه الكريم .

وطلب عثمان من الملك أن يصدر أمراً بأن ينشئ بيبرس « قيسارية » باسمه ، يباع فيها كل شىء يحتاج إليه الناس ، من ملابس وأطعمة وغيرها ولا يكون لسلطة الحكومة عليها سبيل ، فقال الملك : ذلك ما أحبه . وأصدر أمره بتنفيذه .

٩

ركب الملك وحاشيته وفيهم بيبرس وساروا حتى كانوا عند السيدة زينب فوجد على الخليج جسراً من الخشب وهو مخلخل لا يأمن عابره من أن يقع فى الخليج، فقال الملك : أصلحوا هذا الجسر حتى يتسع لعبور الناس ودوابهم وهم آمنون ، فقال أيبك ، ولم لا يقوم بيبرس بهذا من ماله ، فقال الملك : وما أجمل أن يقوم به ! يا بيبرس ، أنشئ على هذا الخليج جسوراً فى أماكن متباعدة ، ليعبر الناس عليها ، ويدعوا لك بخير ، فقال سمعاً وطاعة .

أمر عثمان أن يحضر المهندسين فلما حضروا كلفهم ببناء الجسور ، والدكاكين والربوع فصدعوا بأمره وبنوا ما كلفوا به فى أقرب وقت . وتم لبيبرس ما أراد ، ثم أمر عثمان أن يحضر له تجاراً وصناعاً ، فجاءه بطائفة منهم ، ومنح بيبرس كلاً منهم ثلثمائة دينار يتخذها رأس مال لتجارته وصناعته ، ووزعهم على الدكاكين التى بناها فى « قيساريته » ووصاهم أن يزنوا ويكيلوا بالقسطاس المستقيم ، وأن يجانبوا الغش والشراهة فى الأرباح وأن يحسنوا المعاملة ، ويلينوا للناس جانبهم ، ويعملوا مايرضيهم ويريحهم . ويحرصوا على نظافة « القيسارية » وعرف الناس ذلك فأقبلوا عليها من كل صوب ليشتروا ما يريدون ، وامتلأت الربوع التى بناها

بالسكان . وأنشأ بيبرس عدا ذلك أربع حارات غصت بالساكنين وهى عمرشاه ، ولاله ، ومسكه ، والجودرية .

ومرت الأيام ، ومات والى مصر ، فقال الملك للقاضى : من يصلح للولاية ، فقال القاضى : لا يصلح للولاية إلا ابنك بيبرس .

فقال الملك : وهل ترضى أيها القاضى أن يكون بيبرس والياً ؟ فقال : نعم ، وستصلح الأحوال بيديه ، وقال الوزير : إن بيبرس فقير . فقال القاضى : سأعينه بخمسين كيساً ، وثمن خمسين مملوكاً وخمسين جواداً ، ومثلها معها من الوزير أيبك ، فقال الوزير أيبك ، وما شأنى بهذا ؟ وماذا أفيد من ذلك المال الذى أعطيه ؟ وقال له بصوت خافت لايسمعه غيره : نحن نطلب موته أو نجعله والياً ؟ فقال القاضى : إذا كان والياً سهل على تدبير موته ، وعليك أن تساعدنى بالمال ، وانتظر منى تدبيراً يقضى عليه. وطلب الملك المال من القاضى والوزير ، فلما حضر قال : يا بيبرس ، هذه مائة كيس وثمن مائة مملوك ، وثمن مائة جواد ، فخذها لك ، وقد جعلتك والياً على مصر ، وقد سألت الله رب العرش العظيم ، أن يموت كل من يبغضك ميتة الكلاب ، ويحرق إحراق الحطب ، وقد سبق بهذا علم الكتاب . ولبس بيبرس حلة الولاية ، وأمر الملك الخازن أن يعطيه المال ووصى بيبرس بالعدل والاعتصام بكتاب اللهوما جاء به النبى الكريم ، ثم سلم بيبرس واستأذن وخرج ، ولقيه عثمان لابساً قباء الولاية فقال له : مبارك ، لعلك أصبحت حمال تراب ، أو سائس كلاب ! ! فقال بيبرس

اخرس يا عثمان ، فقد جعلنى الملك والياً على مصر ، وهذا قباء الولاية ، فقال عثمان : وان أخدمك من الآن ، لأنى أراك كل ساعة تعلو وتسمو وتفور ، بينما عثمان ينخفض وينزل ويغور ، فإن أردت أن أكون على عهدى معك ، فاجعلنى والى مصر الصغير ، وأنت والى مصر الكبير ، وألبسنى هذا القباء ، وبغير ذلك فلن تجدنى معك ، وأنت من طريق ، وأنا من طريق ، فقال بيبرس : قد جعلتك يا عثمان والى مصر الصغير ، وهذا قبائى فالبسه ، وافعل ما تشاء .

لبس عثمان قباء الولاية ، ودعا بعقيرب ورجاله الثمانين وحرحش فحضروا بين يديه فقال لهم : أصبحت والى مصر الصغير ، فليكن عقيرب عن يمينى ، وحرحش عن شمالى ، ورجال عقيرب الثمانون أمامى ، وليسر هذا الموكب من الديوان بالقلعة إلى بيت الأمير بيبرس ، ويصبح الرجال معلنين نبأ تولية بيبرس الولاية .

أما بيبرس فإنه ركب جواده ، وسار وحده حتى وصل إلى داره ، فألفى عثمان وجماعته لاهين فى فرحهم ، فلم يشأ أن يعكر عليهم صفوهم فدخل سراً وصعد إلى حجرته وجلس ، وبعد فترة من جلوسه جاءه رجال فسلموا عليه ثم سألهم عن شأنهم فقالوا : نحن خدم الوالى السابق ورجاله ولما مات جئناك لنكون خدمك وأتباعك ، لأننا قصرنا أنفسنا على خدمة كل والٍ لمصر ، وأنت أصبحت والياً لمصر . فأصبحنا لك خدماً وأتباعاً ، وهذا عملنا الذى نقتات منه ونحصل على أرزاقنا من ورائه ، وليس لنا عمل

غيره ،فقال : إن عندى من يكفينى من الخدم ، ولا حاجة بى إليكم ولا إلى غيركم ، فقالوا : وإذا كنت لا تقبلنا فمن أين نأكل ونحصل على أرزاقنا ؟ وهذا عمل عشنا فيه ، وورثناه عن آبائنا ، فلا تغلق بطردنا أبواب أرزاقنا .

فقال : وهل كان لكم على الوالى السابق مرتب شهرى من المال تأخذونه؟ فقالوا : لم يكن لناعليه شيء من ذلك، ولكن كان علينا نحن أن نحضر له الطعام كل يوم من اللحم والخضر والسمن والملح والحطب والفلفل، فقال: ومن أين تأتونه بهذا كله ؟ فقالوا : نأتى به من اللصوص والناهبين الناس ،ولاعبي القمار والميسر ،وبائعى الخمور والخدر من الحشيش والأفيون ، وشاهدى الزور ، وسماسرة الربا ، وأمثال هؤلاء من المغتالين والمغتصبين ، والحاصلين على الأموال من طرق يحرمها الدين . فقال : وكيف تعرفون هؤلاء جميعهم ؟ فقال : كل صنعة لها رئيس ، ورأسهم جميعهم المقدم مقلد حارس « البوابة » فقال لهم : هذا حرام كله ، لا يرضى به رب العالمين ، وما رأيكم إذا جعلت لكل منكم كل يوم خمسة دراهم من الفضة ، وعشرة أرغفة ، ويأكل فى الصباح مع الخدم على سماطى ، ويملأ عند الغروب صفحة من الطعام الذى يحبه ويعجبه ، وفى رمضان له حلتان ، ولزوجته حلتان ، وفى العيد الأكبر له حلة ، ولزوجته حلة ، تأخذون منى كل هذا فى موعده هبة لكم ومنحة ، من غير أن ألزمكم بما كنتم تلتزمون به لولاة مصر السابقين ؟ فقالوا : ذلك خير لنا

وأحسن ، فقال : ولكن بشرط أن تتوبوا إلى الله ، وتقيموا الصلاة، وتلتزموا أحكام الدين كما فعل حرحش ، وعلى أن تساعدوا فى الضرب على أيدى المخالفين لأوامر الدين ونواهيه .

دعا بيبرس عثمان وحكى له ما كان بينه وبينهم ، فقال : يدخلون الإصطبل تحت طاعتى ، فقال : أنفذ فيهم ما شئت ، ثم قال له : ما رأيك فى هؤلاء العصاة الذين ذكرهم لنا خدم الوالى السابق ، وفى أعمالهم السيئة التى تغضب الله ورسوله، فقال عثمان : إن أردت معرفتهم فلا سبيل لك إلا المقدم مقلد، وذلك أن تصانعه ، وتريه أنك راض عنه وعن طوائفه وأنك تود مساعدته ومساعدتهم على أحسن حال كان عليه الولاة السابقون إلى أن تعرف منه كل شىء ، وإذا سألك عنى فقل : إنه سائس ، ولا عمل له إلا خدمة حصانى وإن شاء الله تبلغ المراد .

وبعد العشاء أخذ بيبرس عثمان وحرحشاً وجعلوا يطوفون بالمدينة حتى جاء الثلث الأخير من الليل ، فرأوا جماعة من العصاة الظالمين جالسين وفيهم المقدم مقلد ، قد لبس أفخر الثياب ، وجلس متكبراً كأنه فرعون ينهى ويأمر ، وكلهم مطيعون خاضعون . وقد استمر جالساً ، لم يعبأ بقدوم الوالى بيبرس ، ولم يتهيأ للقائه ، فقال بيبرس : من هذا يا عثمان ؟ فقال المقدم مقلد كبير الطوائف الفاسدة ، الذى لا يجرى شىء من سرقة فى المدينة إلا علمه وعرفه ، وجميع الأشقياء فى طاعته ، يأمرهم بما يشاء من العبث والفساد .

فزاد غضب بيبرس ، ولكنه أخفاه فى صدره وأضمر له الموت والهلاك وأقبل عليه مشرق الوجه فقال : السلام عليكم ، فقال مقلد : لا نعرف سلاماً فقل ما عندك ، أأنت الوالى الجديد ؟ فقال بيبرس : نعم يا أبى ، فقال : وأنت الذى كنت السبب فى توبة حرحش وجماعته وعثمان وجماعته فقال : نعم ، يا أبى ، فقال مقلد : جاءتك داهية ، وأصابتك مصيبة ، وما أفدت منهما ؟ ! وماذا أفاداه منك ؟ ! لقد خسرا معونتى بانقطاع صلتهما بى ، ولكن الزمن دار دورته ، وسيكونان قريباً تحت يدى ، وإن أردت أن تكون معهما نفعتك بالمال ولم أكلفك ثمناً لطعامكم وما يحتاجه بيتك ، فقال بيبرس وهو كاظم غيظه : ما جئت الآن إلا لزيارتك والتعرف بك ، ولتقبلنى رجلا من رجالك إن أنت رضيت ، وما جنيت من عثمان إلا الخيبة وسوء الحال وضيق ذات اليد ، وإذا أنت قبلتنى فلا يغرنك أنى وال على مصر ولى جنود وأتباع ، فإنى لن أخرج عن طاعتك ، ولن أفعل شيئاً يغضبك ، فعرفنى بما تحب أن أفعله ، لأرضيك بتنفيذه . فقال مقلد : اسمع يا ولدى ، ما دمت قد جئتنى فى بيتى فإنى أرحب بك وإذا عثرت على رجل من رجالى وهو متلبس بمخالفة فخذه إلى بيتك أمام الناس ، ليفهموا أنك ستعاقبه ، وتدفع الريبة عن نفسك ، وإذا خلوت به فاتركه وشأنه ، فقال بيبرس : ولكن المخالفين كثيرون ، فيهم رجالك وفيهم غيرهم ، وأخشى أن أمسك رجلا من أتباعك فأظنه من الآخرين فأعاقبه ، وحينئذ تحزنك عقوبته ، كما أخشى أن يكون من

غير أتباعك فأظنه من رجالك فأخلى سبيله ولا أعاقبه ، وحينئذ يكون قد انتفع هو بسببك ومن أجلك ، ولا نكون أنا وأنت قد انتفعنا منه ، فماذا ترى ؟

فقال مقلد : انتظر خمسة أيام ، حتى أجمع الطوائف التى تحت يدى وسأجىء بهم إلى بيتك ، لتعرفهم ويعرفوك ، وبعد ذلك من وقع منهم فى يدك فأطلق سراحه ولا تعاقبه ، ومن وقع فى يدك من غيرهم فأرسله لى ، فقال بيبرس : اتفقنا على ذلك ، وإنى فى انتظاركم ، ثم نهض وسلم ورجع إلى داره ، ودعا إليه عثمان وقال له : لا أريد أن يفر واحد ممن يأتى بهم مقلد إلا أن يتوب إلى الله ، فإن لم يتب قتلته ، وسأتمارض يوم مجيئهم وألزم فراشى فى حجرتى ، وعليك أنت أن تقابلهم ، فقال عثمان : ذلك ما سيكون ، ولن أفعل إلا ما يرضيك .

وفى الموعد المضروب عكف بيبرس فى حجرته متمارضاً ، واستعد عثمان للقاء الحاضرين واستقبالهم ، وإذا بخمسين امرأة مقبلات لابسات حبرات ، راكبات حميراً ، ومع كل امرأة خادمها ، فأمر أن تربط الحمير فى الإصطبلات ، وأجلس النساء فى غرفة فسيحة من غرف الدار ومعهن خدمهن .

وجاء بعدهن سبعون امرأة راكبات حميراً مرتديات بملاءات ومعهن خدمهن ، فأجلسهن فى غرفة ثانية ، وقال للخدم : خذوا حميركم واذهبوا إلى شأنكم .

وجاءت بعدهن طائفة أخرى مؤتزرات بمآزر بيض . فأجلسهن فى غرفة ثالثة .

وتوالى بعد ذلك طوائف أخرى . وعثمان يجلس كل طائفة فى غرفة ، فطائفة من شبان مرد ، وطوائف من رجال ، وشيوخ ، ونساء عجائز ، حتى غصت بهم أماكن الدار .

ثم حضر بعد ذلك مقلد على بغلته . فقال له عثمان : إن الوالى مريض ، وقد لزم فراشه فى حجرته . فلا تدخل عليه بسلاح ، فقال : إنى لا يفارقنى سلاحى أبداً ، فمشى معه عثمان ومعه سلاحه ، ودخل به على سيده فى حجرته ، فلم يقم له بيبرس واعتذر بأن مرضه أقعده . فجلس مقلد أمامه جلسة المتكبر الذى لا يحفل بأحد ، ثم سأله بيبرس : هل حضرت طوائفك جميعها ؟ فقال مقلد : حضرت طوائف مصر ، أما طوائف البلاد فلم يحضروا ، فقال : أحضرهم إلينا ، فقال مقلد : هاتهم يا عثمان طائفة طائفة ، فأحضر طائفة النساء ذوات الحبرات ، وسأل بيبرس : من هؤلاء ؟ فقال مقلد : هؤلاء يسمين بقر الوحش ، فقال : وما معنى ذلك ؟ فقال مقلد : لهن بيوت مدفونة فى حارات منزوية فتخرج الواحدة منهن وتطوف فى الشوارع حتى تقع عينها على رجل غنى فتستهويه بجمالها وتقوده إلى بيتها وتجلس معه تحادثه وتسقيه خمراً حتى يغيب وعيه ، فيأتى خادمها ويخنقه . فإذا مات جردته مما معه من مال وملابس ، ثم تأمر خادمها أن يدفنه فى قبر أعدته لذلك . فقال عثمان :

خذهن يا عثمان وهات غيرهن ، فجاءه بذوات الملاءات ، فقال بيبرس : ما شاء الله ، ومن هؤلاء يا مقلد ؟ فقال : هؤلاء يسمّيْن البقر السارح ، فتخرج الواحدة لتذهب مع من يستميلها إلى بيته . ليحظى بها وهناك تقول له : لن يتيسر لك قضاء ما تبغيه منى حتّى تسقينى خمراً ، فإذا أحضر الخمر جعلت تسقيه حتّى يعميه السكر ، وحينئذ تحمل ما تقدر عليه من البيت وتخرج ،وتتركه مُلقًى فى بيته لا يدرى من أمره شيئاً . فقال بيبرس : هذا جميل ، خذهن يا عثمان وائتنى بغيرهن ، فأتاه بذوات المآزر البيض ، وسأل مقلداً عنهن ، فقال : هؤلاء يُدعوْن البقر الحلوب ، ويخرجن إلى أماكن الازدحام ، ويختلطن عامدات بالرجال والنساء ويسرقن من الجيوب ما يقدرن عليه ، ويذهبن إلى « الخواجات » فى محال تجارتهم فى هيئة مشتريات ، فتعرض عليهن البضاعة ، ويعكفن على تقليبها والنظر إليها لاختيار ما يروقهن منها ، وفى هذه الأثناء يسرقن ما يقدرن عليه ويخرجن . فقال بيبرس : وهذا جميل أيضاً ، هات غيرهن يا عثمان ، فعرض عليه بقية الطوائف طائفة طائفة ، والمقدم مقلد يبين عمل كل طائفة ، وهو يدور حول نهب المال وسرقته ، وكان عجب بيبرس من طائفتين : طائفة الأولاد الصغار ، وهؤلاء يخرج الواحد منهم مع رجل كأنه أبوه . فإذا رأى غنياًّ ضربه الرجل ففر الولد إلى هذا الغنى واحتضنه مستغيثاً به ، ولا يزال الرجل الذى هو كأبيه يطلب ضربه ويقول : كلفته قضاء حاجة فتكاسل ولم يقضها ، والغنى يحمى

الولد ويجيره من أبيه، فإذا انتهى الولد من سرقته قال : سأقضيها حالا يا والدى ، فيقول له : اذهب الآن، فيجرى الولد أمامه وأبوه من خلفه حتى يختفيا عن الأعين ، والرجل الغنى لا يعرف أنه سرق ، والطائفة الثانية طائفة النساء العجائز ، وهن يدخلن البيوت فى هيئة عابدات صالحات ذوات بركات ودعوات مستجابة ، فيتغفلن ربات البيوت الآمنات ويسرقنهن ، ثم يخرجن وهن آمنات من أية ريبة تنسب إليهن .

أمر بيبرس عثمان أن يعرض على الطوائف جميعها التوبة إلى الله، فمن تاب منهم فاتركه آمناً ، ومن لم يتب فسلسله فى الأغلال والقيود حتى أنزل وأقضى فيه بما أرى ، فعرض التوبة عليهم أجمعين ، فقالوا : كيف نتوب ونحن ملزمون بأن يعطى كل منا المقدم مقلداً خمسة دنانير كل شهر ، فقال لهم : إن هذا قد رفع عنكم ولستم ملزمين بإعطاء أحد درهماً ، فلما سمعوا تابوا جميعهم إلى الله ، وأمر عثمان أن تختار كل امرأة زوجاً لها من الحاضرين، وأعطى كل زوج وزوجته مائة دينار وأخلى سبيلهم أجمعين بعد أن ترك علامة بالمكواة على يد كل منهم ، حتى إذا ما قبض على واحد منهم وقد رجع فى توبته كانت عقوبته الموت .

والتفت بيبرس إلى مقلد وقال : كم عمرك ؟ فقال : مائة سنة ، فقال بيبرس : وكم سنة منها قضيتها فى عبادة الله ؟ فقال : قضيتها جميعها وما دخلت مسجداً ولا أقمت شعيرة من شعائر الإسلام ، ولبثت ستين

سنة منها أقطع الطريق ، وأخون الرفيق ، وأنقض العهود والمواثيق ، وقضيت البقية زعيماً لهؤلاء الطوائف التى عرضت عليك ، وما اعترض سبيلى أحد من ولاة مصر السابقين ، ولكنك أنت أول والٍ حرم نفسه من المال الذى كنت سأؤديه إليه كل شهر من الأموال التى آخذها من هذه الطوائف ، فقال بيبرس : ألا ترى معى أن الخير فى أن تتوب إلى الله وتكف عن محارمه ومعاصيه ، وهو الذى يرزقك من حيث لا تحتسب فقال مقلد : أتهزأ بى أيها الأحمق ؟! أتطمع فى أن أستمع لقولك ؟ ومن أنت أيها الضعيف العاجز حتى أتبعك وأطيعك ، وما بقى لك عندى إلا ضربة بسيفى هذا تقضى عليك ، فتلقى بيبرس الضربة « باللت» الدمشقى فكسره ، ثم نهض بيبرس وضربه « باللات » فوقع على الأرض مضطرباً فى آلامه وأوجاعه ، وصاح بيبرس بعثمان فكان فى الحال عنده ، وهوى على مقلد فكتفه ، وقال بيبرس : يا شيبة الخزى والعار ، مائة سنة تقضيها فى طاعة الهوى ، تائهاً فى معامى الضلال ، فإذا ما قيض الله لك من ينقذك تأبى إلا إصراراً وعناداً ، وكفراً وجحوداً ؟! خذه يا عثمان واحبسه وقم أنت على تعذيبه ، فحبسه عثمان ، وأذاقه لباس الهوان .

وفى الليلة التالية أراد بيبرس أن يطوف بالبلدة ويجول فيها فمنعه عثمان وقال : ينبغى أن تصبر حتى يهدأ من كانوا عندك ، وتجف جروحهم . وبعد ليلتين من ليلتهم هذه أحضر عثمان جواده ، وقال : هيا بنا إلى الطواف الذى كنت قد أردته ، فقال اجعلوا معكم نوراً لتروا به أهل

الشر والفساد بحيث يضىء وينطفى عند الحاجة ، وضعوا على جوادى سرجاً أخرس ، لا يسمع له صوت ، واجعلوا فى سنابك الخيل قطعاً من نسيج لين سميك بحيث لا تجعل لوقع أقدامها على الأرض صوتاً ، وبذلك نبغت الأشرار من الناس ، ويعجزون عن الهرب منا .

وركب بيبرس وعثمان وسارا يجوسان خلال المدينة ، حتى كانا فى درب الجماميز ، وكان فى ذلك المكان أربعة لصوص ، سرقوا من بيت فيه ، ووقفوا يقولون ، وبيبرس وعثمان يستمعان لهما : لا نبرح مكاننا هذا حتى يمر الوالى وجنوده ، فإن مشوا نحو اليمين مشينا نحن نحو اليسار وإن مشوا إلى اليسار ، مشينا نحن إلى اليمين . وما انتهوا من كلامهم هذا حتى أضىء المكان فجأة ، فرأوهم أمامهم فذهلوا ووجموا وارتبكوا ، وسألهم بيبرس : من أنتم ؟ وعجبوا بتلك المشاعل ، التى تضىء هى وحدها عند الحاجة ، فقال عثمان : إنهم لصوص ، فسألهم بيبرس : أأنتم من أتباع مقلد وطوائفه ؟ فقالوا : نعم . وأمر عثمان أن يرى فيهم العلامة ، فوجد أثر الكى فى أيديهم ، فقال بيبرس : لو لم نجد العلامة فى أيديكم لكان لكم العذر ، لأنكم لم تسمعوا إنذارنا بالموت ، وما دامت العلامة فى أيديكم فلا عذر لكم ، وأمر عثمان بقتلهم فقتلهم ، وكتب بيبرس فى قرطاس : هذا جزاء السارق الذى يسلب الناس أموالهم ، ووضع ما سرقوه بجوارهم ، ووكل حراستهم إلى جنود الحرس بدرب الجماميز ، ثم تركهم إلى باب الخلق ، فوجد عشرة فقهاء يتحادثون : فقال أحدهم :

لقد تعب الشيخ سليمان هذه الليلة ، وقال آخر كان فى صوتى الليلة شىء من النقص والضعف ، وقال آخر : الأجر بمقدار العمل ، فأضاء عثمان المكان وأحضرهم أمام بيبرس وسألهم : هل أنتم من جماعة مقلد ؟ قالوا : نعم ، وهذه العلامة فى أيدينا ، فأمر بيبرس عثمان أن يفتشهم ، فوجد معهم أدوات السرقة ، وأشياء مسروقة ، ففعل بهم بيبرس ما فعله بلصوص درب الجماميز وتركهم إلى الرميلة ، فوجد جماعة من أتباع مقلد ، ففعل بهم ما فعله فى جماعة درب الجماميز ، ثم رجع إلى داره .

وفى الصباح استيقظ الناس وعرف الذين سُرقوا أنهم سرقت أمتعتهم هذه الليلة ، وعلا صياحهم ، فأحضرهم الجنود وردوا إليهم أمتعتهم أمام رئيس الخط .

١٠

وبينما الوزير أيبك سائر إلى الديوان وجد عند باب الخلق ، ودرب الجماميز ، والرميلة قتلى . ففزع واضطرب ، وإذا بالقاضي يلتقي به فوجده يرتعد خوفاً ، فسأله القاضي عما به فقال : الحالة طين ، إن بيبرس ملأ أرض المدينة بالقتلى من أجل السرقة ، وما استطعت أن تحتال وتقتله ، وما جنيت من ورائك إلا ضياع مالي ، فقال القاضي : سأشكوه إلى السلطان ، وهو في هذه المرة لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، والدين يقضي بقتل الجماعة في الواحد ، فما بالك إذا كان قد قتل جماعات بغير حق ؟ !

ودخل الملك الصالح الديوان بعد أن استكمل جلساءه ، وقال : آمنا وأطعنا فاتصلنا . يا شاهين ، جزاؤهم عند الله ، لا بد أن يظهر الحق . ولما استقرت الجلسة وقف القاضي وقال : يا ملك ، هل جعلت بيبرس والياً على مصر ليسفك الدماء ويقتل الناس بغير حق ؟ فقال : جعلته والياً ليحق الحق ويبطل الباطل كما أمر الإسلام ، فقال : إنه قتل الليلة كثيراً من الناس بغير حق ، وقال الوزير أيبك : لقد رأيت القتلى ، وإن ادعى أنهم قد سرقوا ، فجزاؤهم في الدين قطع أيديهم لا قتل أنفسهم .

وأنت أيها الملك إن أهملت هذا الأمر كنت شريكه فى الخطيئة والإثم ، فما أنت إلا راع ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فقال : ليحضر بيبرس حتى نسأله . فلما حضر بين يديه قال الملك : أهلا وسهلا بالرجل الساهر على نظافة المدينة وتطهيرها من العابثين بالأمن والمفسدين الأشرار ، والرجل الحافظ لحدود الله ، والمعاقب من انتهك حرمة الدين ، يا بيبرس لقد مكنت سيفك من رقاب الناس الليلة ، ألم تخف من عقاب الله يوم القيامة ؟ ! فقال بيبرس : إنى أخاف الله رب العالمين ، وما قتلت إلا بالحق . واسمع قصتى ، وحكى له اتفاق مقلد والولاة السابقين ، وحمايتهم للأشرار ، ثم ما فعله بمقلد وهؤلاء الأشرار ، ثم توبتهم ، ورجوعهم فيها ، وأنه رسمهم بالكى على أيديهم ؛ وأما مقلد فإنه عندى فإن تاب فقد عصم نفسه ، وإن لم يتب كان مثلهم وقتلته ، فأمر الملك عز الدين أن يتبين العلامات فى أيدى القتلى ، فوجدهم جميعهم على أيديهم آثار الكى ، وكان معه أربعة من الأكراد شهدوا بذلك معه ، وقالوا إن الأمتعة المسروقة ردت إلى أصحابها ، فقال الملك للقاضى : أترى الآن أن بيبرس طغى وبغى وقتل الناس ظلماً ؟ فقال القاضى : ما قتلهم ظلماً ، والفضل لله العلى العظيم ، ثم التفت إلى الوزير أيبك وأسر له : لو علمنا بهذه العلامات لقتلنا جماعة ليس فيهم علامات واتهمنا بيبرس بقتلهم ، فقال الوزير : هذه فى أيدينا ، وسنقوم بها فى المرة القادمة ، وعسى أن تكون فيها نهايته ، حتى نستريح من ظله ورؤيته .

فأدرك الملك ما عزم القاضى والوزير عليه من الافتراء على بيبرس والكيد له ابتغاء قتله ، فقال : يا بيبرس أنشىء جبًّا فى كل حىٍّ، لتلقى فيه القتلى عقب قتلهم ، حتى تختفى جثثهم ، فذلك أقرب إلى الستر وعدم الفضيحة .

ولما خرج بيبرس من الديوان لقيه الأغا ريحان ، فقبل يده وقال : إنى رسول أمك السيدة فاطمة شجرة الدر وهى تدعوك إليها ، فقال : سمعاً وطاعة . ولما وصل إلى قصرها أمرته أن يصعد إليها ، فلما لقيها قبل يدها ثم أجلسته وقالت : خذ هذا الكيس ، وفيه ألفا دينار ، لتبنى بها قبوراً للفقراء والغرباء ، ولتنشىء جبًّا فى كل مفرق للطرق كما أمرك الملك الصالح . وأجرى وأجرك عند الله، بلغك ربك ما تريد،وأيدك بنصره ومعونته ، فقال : سمعاً وطاعة، ونزل من عندها . وأخبر الملك الصالح، ففرح بتلك المعونة ودعا له ، وأنشأ القبور كما أنشأ فى كل مفرق للطرق جبًّا .

ولما انفرط عقد المجلس انتظر الوزير أيبك على باب الديوان حتى لحقه القاضى فسار معه وقال : أنت أيها القاضى السبب فى ضياع مالى من غير فائدة ، فما رأيت منك حيلة أثمرت فى وفاة بيبرس وهلاكه ، ورب العالمين إن لم تدبر حيلة لقتل بيبرس ضربتك وفقأت عينك ، فقال القاضى : اصبر ولا تعجل ، فعن قريب سترى بعينك مصرعه وموته ، وانصرف كل إلى داره .

كتب القاضى إلى المقدم زغوير الأرمنى كتاباً قال فيه : اعلم أنه ظهر فى بلاد الإسلام غلام اسمه بيبرس . يخرب الكنائس والصوامع والديور . ويبنى المدارس والمساجد والقصور ، بغضاً فى النصرانية وإضعافاً لها ، وقد حاولت أن أقتله غيرة عليها ودفاعاً عنها ، ولكنى لم أوفق ، وقرأت فى كتاب اليونان وحكمة الزمان أن قتله على يديك ، فإذا جاءك كتابى هذا فاجمع أعوانك وتعالوا إلى مصر ، لتنفذ ما كتب عليك من قتله ، ولك عندى إن قتلته قطعة من الحرير بها مائة عقدة ، وكل عقدة منها سنة فى عمرك ، فكلما قضيت سنة حلات عقدة ، حتى تبقى عقدة واحدة ، فإن أردت مائة سنة أخرى فى عمرك ،فأعِد العقد مرة ثانية ، وهكذا يصير عمرك فى يدك تمده كما تشاء ، وقد وهبت لك اثنى عشر فداناً فى الجنة . وهذا ما عندى والشكر للمسيح ، ثم ناول الكتاب إلى غلامه ، سيف الروم وقال : أعط كتابى هذا زغوير بن لوقا الأرمنى وبلغه أن يعمل بما فيه .

أخذ الغلام سيف الروم الكتاب وخرج ليلا، وجدّ فى قطع البرارى والقفار حتى وصل حيث يقيم زغوير بن لوقا ، فلما رآه عرفه وسأله عن سبب قدومه فقال : إن سيدى جوان قد اطلع على كتاب اليونان فرأى فيه أن إظهار دين النصرانية على يديك ، فكتب إليك هذا الكتاب ، وناوله إياه .فقال : إن أبى جوان فى الأرض أو فى السماء ؟ فقال : إنه لا يصعد إلى السماء إلا إذا كانت له حاجة عند المسيح ، فإذا قضاها نزل وعاد إلى

الأرض ، فلما قرأ الكتاب قال : سمعاً وطاعة . وكتب إليه كتاباً بأنه سيقوم بما فى الكتاب على عجل ، فلما قرأه القاضى فرح واطمأن وانتظر ما يكون .

جعل بيبرس يجول فى المدينة ليلا ونهاراً فلم يجد أحداً من هذه الطوائف الضالة الباغية ، ولم يسمع عن حادثة سرقة أو غيرها ، ونشر السلام أجنحته على المدينة فشكر الله وحمده ، واستمرت الحال فى المدينة هادئة آمنة سالمة مدة من الزمان .

وذات يوم مر بيبرس بخان السبيل ، فى الصرة والبساتين « مكان الغورية الآن » فوجد غلاماً وشيخاً كبيراً يتشاجران فالغلام يسبه ويشتمه ، والشيخ يصبر ويحلم ويلين جانبه ، والغلام يقول : أعطنى حقى ، والشيخ يقول : لن أعطيك شيئاً إلا أمام الوالى ، وبعد أن يفصل بينى وبينك . فاندهش بيبرس ، وجلس على باب دكان فى دهليز الخان وقال للشيخ : يا أبى ، إذا كان لهذا الغلام مال عندك يريد أخذه ، فلأى شىء تمتنع وتقول : لن أعطيك شيئاً إلا أمام الوالى ؟ والتفت إلى الغلام وقال : ولم هذه السفاهة وأنت تعلم أن الأدب واجب ؟ وأن أمة النبى بخير ما دام صغيرهم يوقر كبيرهم . وكبيرهم يرحم صغيرهم ؟ فقال الغلام : إنى طالب حق ، وطالب الحق لا جناح عليه ، فقال بيبرس للشيخ : وما هذا الحق الذى يطلبه ؟ إن كنت عاجزاً فإنى أقوم عنك بإعطائه ، ابتغاء وجه الله ومرضاته ، فقال الشيخ : حكايتى غريبة ، تزهق الأرواح وتذيب

المهج ، وأود أن تصغى إليها ، لتقف على ما فيها من مواعظ وعبر .

كنت شيخ هذا الخان وكبير تجاره ، وصاحب الأمر فيهم ، وأراد الله أن أفتقر بعد الغنى ، لحكمة يعلمها ربى ، وذات يوم جلست على باب الخان، فرأيت سائلاً يقول : ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، هنيئاً لك يا فاعل الخير ، فدعوته لأتصدق عليه بما تيسر لى ، ولكن الرجل فهق فهقة . ومات لساعته ، فقال التجار : اجعل صدقتك عليه تكفينه وتجهيزه ودفنه ، وخذ ابنه هذا – وكان معه – فاكفله ، وقم بتربيته فصدعت بأمرهم ، وشيعت الرجل إلى قبره مكرماً ، واتخذت ولده ابناً لى وهو يشب ويترعرع . والتجار يكرمونه ويحترمونه ، وهو معى أينما حللت ، فى الدكان أو فى البيت ، وبينما أنا جالس فى الدكان يوماً ، رأيت خنفسة تمشى على الأرض ، فدست عليها برجلى وقلت : هل نقص ملك الله حتى خلقك ، فماتت ورجعت إلى مكانى وجلست ، وبعد برهة حككت رأسى فظهر فيه دمل أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شغل جزءاً كبيراً من رأسى وألزمنى بيتى ، وتركت الخان وما فيه للغلام ، ولما أغفلنى ولم يسأل عنى ، أرسلت إليه أن يعطينى شيئاً من مالى الذى تحت يده ، فأجاب : ليس لك فى الخان شىء ، فصبرت وجعلت أبيع أثاث بيتى شيئاً فشيئاً حتى أتيت عليه ، وكان لى بيت بعته وأنفقت ثمنه ، ولما ضاقت بى الدنيا دعوت الله أن يكشف كربتى ويشفى رأسى ويسبغ علىّ من رزقه ما يغنينى ، فسمعت هاتفاً وأنا فى إغفاءة بين النوم واليقظة يقول : احتقرت الخنفسة

وهى من خلق الله ، تسبح بحمده ، واعترضت على الله أن خلقها وما عرفت منفعتها ، فتب إلى الله ، وارجع إلى بيتك فخذ سبع خنافس ، وانضج طبخها فى زيت الزيتون ، ثم أحرقها واسحقها ، وضع مسحوقها على رأسك ، فإنك تبرأ من علتك بإذن الله . قال الشيخ : ففعلت ذلك وبرئت بفضل الله من علتى . ثم ذهبت إلى الخان ، فأقبل التجار إلىّ وهنئونى ما عدا هذا الغلام ، وقد أخبرنى بعضهم أنهم جعلوا هذا الغلام رئيساً لهم مدة غيبتى ، فقلت : عسى أن يكون خيراً . وعند الظهر من ذلك اليوم ، جاء تاجر أعجمى ومعه تجارة ، وكانت بينى وبينه معاملة ، فلقيه التجار وأخبروه أنى افتقرت ، وطلبوا إليه أن يبيعوا له تجارته بدلا منى ، ولكنه أتانى وجلس بجانبي وقال : زال عنك كل هم وغم ، فقلت : الحمد لله على كل حال ، فأعطانى عشرة أثواب من « المقصب » الغالى الثمن وقال : تبيع الثوب بمائة دينار ، لى تسعون ولك عشرة ، فأخذتها وبعتها ، ولما أتيته بثمنها قال لى : الثمن والربح هبة منى لك ، فأصلح بهما حالك ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ففرحت وحمدت الله ، وعلمت أن الله قبل توبتى ، وسيبدلنى بالضيق سعة وفرجاً ، وبينما أنا كذلك إذا بالغلام مقبل يقول : هات نصف المال الذى أخذته من التاجر الأعجمى ، فقلت : إن المال مالى ، ولو كان مالك كله ما عققتنى ولا طلبت منه شيئاً ، فقد كفلتك بعد أبيك ، وربيتك ، فجعل يسبنى ويشتمنى على نحو ما رأيت وسمعت ،

وهذه حكايتى . والحمد لله الذى جاء بك إلينا ، فاحكم بيننا بما يرضى الله . وما أنت بواجد فى صدرى حرجاً مما تقضى ، فغضب بيبرس ، والتفت إلى التجار — وكانوا يسمعون — قال : أحق ما قاله الشيخ ؟ فقالوا : نعم ، ما قاله حق لا شك فيه ، فالتفت إلى الغلام وقال : كيف تنسى إحسانه إليك برعايتك وتربيتك ؟ ! فتبيح لنفسك أن تعقه وتشتمه وتظلمه ؟ ! فقال الغلام : وما شأنك أنت بنا ؟ نحن تجار يفصل القانون فى مشاكلنا وقضايانا ، وأما أنت فليس لك إلا أن تضرب على أيدى اللصوص ، وقطاع الطرق ، فدعنا وما نحن فيه وقم إلى سبيلك ، فقال بيبرس وقد بدا على وجهه الغضب وظهرت أماراته ، إن التجار قد شهدوا أن المال الذى فى الخان ماله ، وما أنت إلا غاصب له ، فقال : لا شأن لك ، فصاح بيبرس فيه صيحة عالية ، وقال : أعطه المال ، ثم أمر أن يلقى على الأرض ويضرب بالسوط ، وأن يعزله التجار من رئاستهم ، فكان ذلك كله فى لمح البصر ، ورجع إلى الشيخ ماله ، ورئاسته واحترامه .

كان زعيم التجار فى خان السبيل وغيره السيد عبد اللطيف الدمشقى ، وكان ماراً بخان السبيل والغلام يضرب بالسوط ، فأخبره العامة بما فعله بيبرس من عزل الغلام وضربه ، فدخل الخان وهو غاضب ، وجلس فى مكان رفيع جلسة المعتز بنفسه دون أن يحيى بيبرس ، ثم قال له : ما كان لك أن تدخل الخان وأنت من شأنك أن يكون وراءك شرذمة من الأشرار

واللصوص ، وإذ ذاك يتعرفون أمكنتها وسبل اختلاسها وسرقتها ، فاعتصم بيبرس بالحلم وقال : وجدت اثنين مختصمين ، فحكمت بينهما بالعدل ، وحسمت الخلاف ، فقال الدمشقى : سأشكوك إلى الملك ، ولتعلم أنه إذا فقد شيء من الخان فأنت المسئول عنه ، فقال بيبرس : أنا المسئول عن كل شيء يفقد من الخان وغيره فى أنحاء المدينة ، وإن أردت أن أكتب إليك حجة بذلك فعلت ، وهم أن يكتبها ، فتصدى له عثمان وقال له : لا تكتب لهذا الرجل شيئاً. ولولا أنى أخشى أن تخزينى لقطعت لسان هذا الرجل وما جعلته يعترض عليك، ولكن بيبرس أصر على رأيه وكتب له حجة أنه مسئول عن فقد كل شيء من الخان وناوله إياها ، ثم انصرف .

وفى صبيحة اليوم التالى أقبل التجار كعادتهم إلى الخان ، ليفتح كل منهم دكانه ، يدير حركة البيع والشراء ، فوجدوا باب الخان مغلقاً ، فنادوا البوابين ، وجعلوا يطرقون الباب طرقاً عنيفاً ، فما أجابهم أحد ، وفى ضحوة هذا اليوم حضر السيد عبد اللطيف الدمشقى ، فرأى جمهرة من التجار واقفين ، فسألهم عن وقوفهم هذا ، فقالوا : نحن وقوف من الصباح ، نطرق الباب وننادى البوابين ، فلا يجيبنا أحد ، ونحن كما ترانا فى حيرة من أمرنا ، ومر حينئذ بالخان بيبرس ، فأمسكه السيد عبد اللطيف ، والتف حوله التجار وشكوا إليه وقوفهم من الصباح وعدم فتح الباب ، فجلس بيبرس وهو فى حيرة من ذلك ، ولا يدرى ما جرى به القدر.

وكان صقر اللولبي ، وصقر الهجان من أولاد اسماعيل وأتباع بيبرس قداشتاقا لرؤيته وتعرف أحواله ، واتفقا على زيارته بمصر ، وسارا حتى دخلا مصر ، وسألا عنه فى القلعة ، فقيل إنه بالمدينة يجوس خلالها ، فجعلا يبحثان عنه فيها حتى التقيا به جالساً أمام الخان، والتجار مجتمعون من حوله ، فسلما عليه ، وفرح هو بلقائهما وهنأهما بسلامة وصولهما ، ثم سألاه عما اجتمع التجار من أجله ، فأخبرهما بالخبر فقالا : إن أمرتنا بالصعود على سور الخان صعدنا ، وإن أمرتنا بفتح الباب فتحناه ، فقال : وأكون شاكراً لكما إن أنتما فتحتما الباب . لنتبين سر إغلاقه ، ونعرف ما جرى فى الخان ، وكان مع كل منهما حبل ثبت فى طرفه كلاب ، فرمى كل منهما كلابه ، فعلق بالسور ، وتشبث به ، فصعدا فى حبله ، حتى كانا فوق السور ، ثم دلى كل منهما حبله من داخله ، ونزلا عليه ، وفتحا باب الخان .

وكان هذا العمل مثار عجب عند الناس ، وجعلوا يقولون : لقد طلعا وتسلقا سور الخان كأنهما جرذان. إنهما من رجال الوالى يسرحان ويمرحان فى المدينة فى حمايته وتحت أمره ، إن الوالى كبير اللصوص والأشرار .

فتح الخان ، ودخل التجار فوجدوا البوابين غرقى فى نومهم ، ووجدوا الخان خالياً من البضاعة ، فدهش التجار وسألوا البوابين ، فقالوا : نحن نمنا وما صحونا إلا الآن ، ولا ندرى من أمر الخان ولا من أمر نومنا شيئاً .

حتى رأيناكم معنا . فقال السيد عبد اللطيف : الآن لا نطلب هذه البضاعة التي سرقت إلا منك أيها الوالى ، ومعنا حجة منك بذلك ، وغداً سيحكم الملك بيننا وبينك ، فقال بيبرس : ما قلت إلا الحق ، والأمر لله رب العالمين . وقال صقر اللولبي وصقر الهجان : يا بيبرس ما هذا فعل سارق ، ولكنه فعل « عياق » ؟ فقال : يفعل الله ما يشاء، ورجع بيبرس إلى داره ومعه صاحباه ، وأما السيد عبد اللطيف فإنه أخذ التجار ومضوا إلى الملك فى ديوانه ، ليبثوا إليه شكواهم .

وفى هذا اليوم جلس الملك فى ديوانه وقال : يا دائم ، الجزاء من جنس العمل ، جزاء الخلق على رب الخلق ، اللهم أظهر الحق ، وأعل كلمته ، واطمس الباطل واخذل كلمته ، يا شاهين ، الرجل جار للسيدة زينب والجار بالجار وإن جار ، يا شاهين ، العاقبة سليمة .

وحضر إذ ذاك السيد عبد اللطيف الدمشقى والتجار فقال : أيها الملك أجِرْنا ، وردّ أموالنا علينا ، فقال الملك : أهلا بعبد اللطيف الدمشقى وتجار خان السبيل ، ما حاجتكم ؟ فقال : نحن تجار خان السبيل دهتنا داهية فى الليلة الماضية ، لم تصبنا نحن ولا آباءنا من قبل ، فقد سرقت بضاعتنا جميعها من خان السبيل ، وما ترك السارقون منها قليلا ولا كثيراً ، وما سرقت إلا بتدبير أو رضا من والى مصر بيبرس ، فقد زار الخان أمس وجلس فيه مدة طويلة ، ونبهته إلى أن دخوله الخان يمهد لرجاله الأشرار سرقة شىء منه ، فقال : إنى مسئول وضامن وكتب لى هذه الحجة ، وسلمها

إلى الملك — ثم قال : اليوم وجدنا الخان مغلقاً، وما فتحه إلا رجلان من رجاله الأشرار الذين يعبثون بالأمن ، ويعيثون الفساد فى الأرض ، ولما دخلنا الخان وجدنا البوابين فى نوم كأنه الموت ، ولم نجد من بضائعنا شيئاً، فقال القاضى : إن بيبرس ملزم بالبضاعة ، لأنه مسئول عنها بحكم وظيفته وعمله ، ولأنه ضامن لها بما كتبه على نفسه ، ولأن الأشرار من رجاله هم الذين سرقوها ، بدليل أن الباب لم يفتح إلا برجاله الذين تسلقوا الأسوار وفتحوا الأبواب وما أتلفوا شيئاً ، ولا كسروا باباً ، ولا شقوا جداراً ، ونخشى أن نسكت عنهم ، فيشتد خطرهم ، وتعظم بليتهم ، فقال الملك: أحضر يا وزير بيبرس حتى نسمع قوله فيما نسب إليه ، فأرسل الوزير من يحضره من داره .

وكان بيبرس بعد عودته إلى داره ، قد أحضر مقلداً أمامه، وقال له: لقد حبستك وعذبتك، وجعلت توبتك إلى الله سبيلا إلى نجاتك والصفح عنك ، ولكنك أبيت أن تتوب إلى الله ، ورضيت بالعذاب الذى أنت فيه ، ولا بد أن يكون لك رجال من الأشرار ينتقمون لك ظلماً ، وهم الذين سرقوا بضائع خان السبيل ، فإن أنت دللتنى عليهم ، فككت يديك بعدها ، فقال مقلد : وحق السيدة زينب ، ما علمت عن حادثة خان السبيل شيئاً ، ومالى بمن سرق بضائعه من علم ، ولو كنت أعلم شيئاً ما تأخرت عن إخبارك به فأنت تكلفنى الآن شططاً من أمرى .

وجاءه إذ ذاك رسول الملك يدعوه إليه ، فذهب لساعته إلى ديوانه ،

وحيا وسلم ، ودعا للملك بدوام العز والنعمة ، فأعاد عليه الملك القضية ، وقال : إنك ملزم ببضائع خان السبيل . فقال : إنى ملزم بها حتمًا ، ومسئول عنها وعن غيرها ، وإن أمرتنى بدفع ثمنها للتجار دفعته امتثالاً لأمرك . ولكننى أرجو أن تمهلنى حتى أعرف الجانى لينال جزاءه ، وترد البضائع إلى أصحابها . فقال القاضى : إن الشرع لا يمهلك أكثر من ثلاثة أيام ، على شرط أن يضمنك أحد . فقال الوزير أنا أضمن الوالى بيبرس ، فقال القاضى ، وأنت أيضاً لا بد لك من ضامن ، فقال الملك : قد ضمنت الاثنين ، الضامن والمضمون ، الوالى والوزير . ثم قال : يا عبد اللطيف : انصرف أنت وزملاؤك التجار ، على أن تأتونى بعد ثلاثة أيام لتأخذوا أموالكم إن شاء الله ، وأنت يا بيبرس : اذهب وابحث عن الجانى وأرجو من الله أن يوقعه فى يدك . ثم قال : وأين عثمان ؟ فلما جىء به إليه قال له : ساعد الأمير بيبرس ، فقال : إنه لا يطيعنى ، فقال الملك : أطعه يا بيبرس ولا تخالفه ، وقبل أن يخرج بيبرس قال له الملك : إن مقلدًا والغلام الذى عندك لا يعرفان شيئاً عن هذه الحادثة ، ولم تكن إلا من صنع الحجرة الزرقاء . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، أطع يا بيبرس عثمان ولا تعصه ، فأجابه : السمع والطاعة .

وبينما هما سائران قال بيبرس : يا عثمان : قد أمرت أن أطيعك ، ولا أعصيك ، فمر بما تشاء ، فقال : هات لى صاحبيك وهما صقر اللولبى ، وصقر الهجان ، وهما ينتظرانك فى دارك ، فقال : وإلى أين

تذهب بنا ؟ فقال : إلى خان السبيل ، فمضى بيبرس إلى داره ، وعثمان معه ، فوجد صاحبيه فى انتظار عودته ، فقال لهما : هيا بنا نسير فى المدينة ، فسار جميعهم ، ومعهم بعض من الخدم ، ولما وصلوا إلى خان السبيل أمر عثمان أن ينزلوا ، فنزلوا ، وجلس بيبرس على باب الخان ، وصقر اللولبى عن يمينه ، وصقر الهجان عن يساره ، والخدم وقوف أمامه، والناس يدخلون الخان ويخرجون ، وهم آسفون على ما فعله بيبرس ، لأنهم يعتقدون أن سرقة الخان بيده ، أو بيد أحد من رجاله الأشرار .

وإذا بشيخ مقبل يخب فى جبته وقبائه ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وفى يده مسبحة طويلة ، وهو يحرك بالتسبيح شفتيه ، فقال عثمان : يا بيبرس . أمسك هذا الفقيه ، إنه قريب القاضى ، وهو الذى سرق الخان ، فنهض بيبرس ووقف قدامه وقال : يا شيخ ، فقال له : نعم ، قال بيبرس : لم لا تحيينا بالسلام وأنت مار بنا ؟ أما تعلم أن السلام سنة ورده فرض ، وإذا كنت من علماء الإسلام ولم تفش السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، فماذا يفعل الجاهل ؟ فقال الشيخ : الحق بيدك يا ولدى ، ولكنى كما ترانى شغلت عن السلام بذكر الله وتلاوة القرآن الكريم ، فلا تؤاخذنى ، فقال بيبرس : ما تركت السلام إلا استكباراً وعتوًّا . كيف أكون والى مصر ولا تقرئنى السلام ؟ لا بد أن تكون من غير أصحاب السلام . والتفت إلى رجاله وأمرهم أن يمسكوه ، فانقضوا عليه وكتفوه ، فقال بعض التجار : لا ينبغى أن نفعل هذا بشيخ

لا ذنب له إلا أنه لم يقرئك السلام ، فقال : لا شأن لكم ، فإنى أعتقد أنه هو الذى سرق بضائع الخان ، فأمسكته حتى أتبين الأمر وأقضى فيه بحكم الله ، وخاض الناس فى لغط من القول .

أخذ بيبرس الشيخ وسار به إلى داره هو وجماعته ، وهناك أحضره بين يديه وسأله : أين مال الخان ؛ فقال : يا بنى ، اتق الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهل ينبغى أن تجعل من مثلى لصاً يسرق ، إن لم يمنعنى عن السرقة كبر سنى وضعف جسمى منعنى دينى ومعرفتى بربى ، أترضى يا بنى أن أتعلق برقبتك يوم الجزاء ، يوم تشهد على الناس ألسنتهم وأجسادهم بما كانوا يعملون ؟ لا يا بنى . لا أستطيع أن أقول لك الآن إلا قول الله تعالى « حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال بيبرس : وماذا ترى يا عثمان ؟ فقال : يُطرح أرضًا ، ويضرب حتى يعترف ويبين ، فألقوه على الأرض وجعلوا يضربونه بالسياط وهو لا ينفك يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأمر بيبرس أن يلقى فى السجن إلى اليوم الثانى. وفى اليوم الثانى واليوم الذى يليه فعلوا به ما فعلوه فى اليوم الأول ، والشيخ دائب على قوله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وأنكر معرفته بالبضائع إنكاراً عميقاً حاداً ، فضاق صدر عثمان ، وخشى أن يطاقه سيده قبل أن يبلغ منه مراده ، فتقدم إلى بيبرس وقال : ربما كان هذا الشيخ مظلوماً ، فدعه لى حتى أتبين الحق من الباطل ، فقال : خذه عندك وافعل ما شئت ، على أن يبقى سجيناً حتى تنتهى من أمره .

دخل عثمان على الشيخ فى سجنه وقال له : إنك مظلوم يا شيخ ، وقد ظلمك بيبرس بضربك وتعذيبك ، وأريد أن أقدم لك معروفاً ، وأدخر ثوابه عند ربى ، بإخلاء سبيلك . فقال الشيخ : جزاك الله خيراً يا سيدى . وليس أعظم عند الله من تنفيس كربة عن مسلم ، فقال له : قم معى يا شيخ . وأخذه إلى الإصطبل وقال : جزاؤك عند الله أيها الوالى ، فقد أهنت العلماء. وعذبت الأبرياء ، ولكنى سأكرمك يا سيدى الشيخ فقال : إكرامى أن تخلى سبيلى ، فقال : سأطلقك ولكن بعد أن تأكل طعامنا ، فإذا جاء المساء ونام الوالى أخليت سبيلك ، ثم نادى : يا عقيرب ، هات الطعام . فأحضر خمسة أرغفة ، وعشرين بيضة و « فسيخة » كبيرة . و « بطارخ » ووعاء به زيت وخل ، وقال عثمان : هذا طعامنا فكل مريئاً حتى تشبع . ثم اضطجع ونم إلى أن يأتى المساء ، وكان الشيخ قد اشتد به الجوع فأكل حتى شبع ثم شرب ، وجعل يفرط فى شرب الماء . لأن خصائص الطعام الذى أكله تستوجب هذا الإفراط .

أحس الشيخ لكثرة ما شرب أنه فى ضرورة إلى أن يبول ، فطلب ذلك من عثمان . فقال له : إن ذهبت بك إلى المراحيض فقد يراك الوالى . وإذ ذاك يسألنى : لماذا أخرجته من سجنه ؟ وحينئذ يعسر على إطلاقك . فهل من الجائز أن تبول على روث الخيل ؟ فقال الشيخ : لا مانع . ما دامت الضرورة تقضى بذلك .

ولما وقف الشيخ وأعد نفسه إلى أن يبول ربط مجرى بوله ربطاً متيناً

فانحبس بوله ، وصرخ الرجل صرخة من الألم الذى أنساه تنكره واحتياله وقال كلمة لا يستغيث بها إلا من كان نصرانيًّا . وجعل يصرخ قائلاً : أغثنى يا عثمان ، فقال : هل أنت نصرانى ؟ فقال الشيخ : نعم ، أنا يا سيدى نصرانى ، واسمى زغوير ، فقال : وأين أموال خان السبيل يا زغوير ؟ فقال : الأموال جميعها عندى يا سيدى ، وأرجوك أن تمكنى من التبول، فقال : تعال معى ، فليس هذا مكان التبول ، ثم أخذه وصعد به إلى بيبرس فوجده جالساً يفكر فى الأمر ، وأمارات التفكير بادية على وجهه ، فلما دخل عليه انتبه من تفكيره وسأله ما هذا يا عثمان ؟ فقال : هذا الشيخ التقى المسلم هوزغوير النصرانى ، وأموال الخان جميعها عنده . فقال بيبرس : أنت يا شيخ زغوير النصرانى ؟ فقال : نعم ياسيدى أنا زغوير النصرانى ، وأموال الخان عندى ، أحضرها لكم من فورى ، ولكن اسمحوا لى ومكنونى من التبول ، فقال : ومن أى البلاد يا زغوير؟ فقال : من بحيرة « الغيرة » قال : وما الذى أتى بك إلى مصر ، ودفعك إلى سرقة أموال الخان ؟ ولماذا رجعت ثانياً بعد أن سرقت الأموال وفررت ؟ أخبرنى لآمر عثمان أن يمكنك من التبول . فقال زغوير :

أرسل إلىّ عالم النصرانية «جوان» بمصر كتاباً أن أحضر و معى أربعون « عايقا » لقتل بيبرس ، على أن يزيدنى فى عمرى مائة سنة ، وأمثالها إن أردتُ ، فجئت برجالى ، ومررت بالخان، وقت أن كنت وعبد اللطيف الدمشقى فى جدال ، وقد تنكر رجالى فى زى المسلمين وتنكرت

فى هيئة شيخ عالم ورع مسلم ، فلما رأيناه قد كتب عليك حجة يجعلك مسئولا عن الأموال ، وضامناً لها ، اتفقت أنا ورجالى أن نسرق الخان ، وحينئذ تكون مسئولا عند الملك ، فإن قتلك فذلك ما جئنا من أجله ، وإن استبقاك ولم يقتلك اجتهدنا فى قتلك ، أما أموال الخان فقد كانت كثيرة لا نقدر على نقلها وكان بالخان سبيل قديم أهمل استعماله ، وهو فسيح الجنبات ، يتسع لبضائع الخان ، فلما جاء الليل اقتحم اتباعى سور الخان ، ونقلوا جميع الأموال إلى ذلك السبيل ، وأمرتهم أن يقيموا فى السبيل مع الأموال ، حتى ينقطع طلبنا ، ويسكت البحث عنا ، ولبثت خارج السبيل أنا وغلام لى اسمه صابور ، وكنا نقضى للرجال ما يحتاجون إليه ، وكنت أجىء إلى الخان كل يوم من أجل ذلك متنكراً ، إلى أن أمسكتنى وجئت بى إلى دارك ، وجرى علىّ من التعذيب ما تعرفه ، حتى وقفت الآن بين يديك ، وقصصت ما سمعته عليك ، فسجد بيبرس لله شكراً ، ونهض قائماً وأخذ النصرانى معه إلى الخان بعد أن مكنه من التبول ومعه صاحباه وخدمه ، وهناك دلهم زغوير على السبيل ، فأحضروا « مبخرة » بها نار ، ووضعوا عليها جزءاً من البنج ، ووضعوها فى السبيل ، فخدر الأربعون رجلا وأغمى عليهم ، ثم أخرجوهم واحداً واحداً ، وربطوهم بالحبال ، ثم أخرجوا البضائع جميعها ، وقال بيبرس للسيد عبد اللطيف الدمشقى : هات تجارك لتأخذ أنت ويأخذوا هم أموالهم وبضائعهم وليكتب كل تاجر حجة عليه بأنه أخذ أمواله كاملة لم يفقد منها شىء ، ففرح السيد

عبد اللطيف حينما رأى كل ذلك يجرى ، وقال : مثلك من يصلح لولاية مصر ، ووجد كل تاجر بضاعته لا نقص فيها ، فقال لهم بيبرس : لتذهبوا غداً إلى الملك وتبلغوه أن أموالكم ردّت اليكم وأنكم أعطيتمونى حجة بذلك عليكم . فقالوا : سمعاً وطاعة ، ولك منا جزيل الشكر ، وأخذ بيبرس زغوير ورجاله ، ومضى إلى داره ، فأمر بإلقائهم فى السجن حتى يفصل فى أمرهم .

وفى الغد جلس الملك فى ديوانه فقال : يا شاهين : حامت جوارح العقبان على الغربان ، وماذا ربحوا ؟ لكن الآجال قد انتهت . والتفت القاضى إلى الملك وقال : هذا موعد دفع الأموال إلى تجار الخان من ابنك بيبرس . فقال : نعم ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم بالسرائر . فقال القاضى : لقد بلغ فى الشر مداه ، وفى الاحتيال منتهاه ، إذ أن رجاله تتسلق الجدران على الحبال ، وكأنهم يصعدون فى سلم إلى سطح الدار ، وما كاد القاضى ينتهى من قوله ، حتى أطل عليهم بيبرس ومعه السيد عبد اللطيف الدمشقى وتجار الخان ، فقال الملك : ما شأنكم ؟ فقال القاضى : جاءوا يطلبون أموالهم وبضائعهم من ابنك بيبرس . فقال الملك : أعتق ذمتى من الضمانة يا بيبرس . فقال : أعتقها الله أيها الملك ، كما أعتق رقبة الوزير ورقبتى ، فقد أخذوا أموالهم واسألهم تجدنى صادقاً ، فقال الملك : يا عبد اللطيف ، هل ما قاله بيبرس حق لا ريب فيه ؟ قال : نعم ، أخذوا أموالهم كاملة سليمة ، وقد جاءوا معى شاكرين لبيبرس

همته وقدرته ، إذ استطاع فى هذه المدة الوجيزة أن يرد الأموال إلى أصحابها فقال الملك : يا بيبرس ، أكنت أخذت الأموال ثم رددتها ، أم وجدتها عند أحد كان قد سرقها ؟ فقال بيبرس : ما كان لوال مثلى وكل الناس إليه حراسة أموالهم وأنفسهم أن يزعج أمنهم ويسرقهم ، ولكنى وجدتها عند « عايق » نصرانى اسمه « زغوير » سطا على الخان ليلا ، هو ورجاله النصارى الأربعون ، فسرقوا الأموال وخبئوها ، ثم قص عليه قصتهم ثم قال : وجميعهم ألقيتهم فى السجن ، فقال الملك : هاتهم يا بيبرس ، فأمر عثمان فأحضرهم بين يديه فسألهم : من أمركم أن تفعلوا بالخان ما فعلتم ؟ فقال كبيرهم زغوير : حرضنا على ذلك عالم الملة المسيحية بمصر واسمه جوان . فاصفر لون القاضى واضطرب ، وجمد لسانه فى فمه ، والتفت الملك إلى القاضى وقال : هات لنا جوان هذا ، فقال فى صوت متهدج : وأنى لى بجوان هذا ، لو كنت أعرفه ما تأخرت عن إحضاره ، فقال الملك : قم أيها القاضى وهات الكتاب من تحت إبط « زغوير » لتقرأه ، ولتعلم أن من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ولتأخذ فى الدنيا كتابك بيمينك ، فقام إليه وأحضر كتابه الذى كان قد أرسله وقرأه ، ثم بهت وسكت ، فقال الملك : ماذا رجوت ؟ فقال : إنى لا أعرف هذا الملعون ، ولا بد أن يكون هذا الكتاب من صنع أيديهم ، ونسبوه إلى ظلماً وزوراً ، ليتعللوا به إذا ما فشلوا وأخفقوا وأمسكوا وقدموا للحساب فقال الملك : سيظهر الأمر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وإنى أسأل الله

الكريم أن يميت صاحب هذا الاسم ميتة شنيعة ، فيقطع لحمه ويحرق في الرميلة بروث الكلاب ، قل : آمين ، فقال القاضي : آمين ، آمين

ثم قال : أين جوان يا عثمان ؟ فقال: هو القاضي يا سيدى ، فقال بيبرس : اخرس يا عثمان ، ولا تزد في الكلام ، فقال عثمان : إنك ممن لا يصدقون حتى يروا بأعينهم ، ثم أخذ بيبرس زغوير وأتباعه وأمر عثمان بقتلهم جميعهم فقتلوا وذهبت ريحهم،وكان لزغوير غلام اسمه صابور وقف مع النظارة الذين جاءوا ليشاهدوا موتهم، فنظر كل منهما إلى الآخر وقال زغوير وهو قادم على الموت : يا من أراه وهو يرانى ، وأعرفه ويعرفنى ، ارجع إلى أخوىّ شاجر الأرمنى ، وشريحة الأرمنى ، وبلغهما أن يأخذا بثأرى . وكان « زغوير » هذا من « العياق » الذين رباهم جوان ، وهم : زغوير، وشاجر، وشريحة ، ويخشب، فأما يخشب فقد مات وأعقب ولداً صغيراً اسمه جن ، وأما صابور فإنه رجع إلى بلاد الروم ليتصل بشاجر وشريحة ، وسيكون عن هؤلاء كلام فى حينه ، وأما بيبرس فإنه رجع إلى بيته بعد أن أعدم هؤلاء الأشرار الخونة وحمد الله الذى أراحه، وأزال عنه كربه وهمه، وأما السيد عبد اللطيف الدمشقى فإنه أخذ يسعى ويعمل فى تجارته ، وما خطر بباله أن يزور بيبرس أو يقدم إحساناً لخدمه ، الذين أبلوا بلاء حسناً فى رد أموالهم ، فأسرها بيبرس فى نفسه له .

وجلس الملك على عرشه ، فقال : يا شاهين ، أقبل الدهر عليه ،

وبرئت ذمته من أموال الخان ، والإحسان جزاؤه الإحسان ، هات بيبرس وألبسه خلعة النيابة فى الحكم ، ثم طف به فى موكب كامل وأذن فى الناس بأنه الوالى والنائب ، يفصل فى القضايا بما يشاء ، ويضع سلاحه حيث يريد ، فحكم بيبرس بين الناس بالعدل ، وأحسن إلى الفقراء ، وأعان الضعفاء ، وجعل البلاد فى أمن ورخاء .

١١

انتهى ببيبرس المطاف فى المدينة يوماً إلى أن جلس بباب الخان، فمر به السيد عبد اللطيف الدمشقى ، وتجاهله فلم يلتفت إليه ولم يقرئه السلام ، وما نزل عن « بغلته » ، وكأنه لا يعرفه ، فأمر بيبرس أن يأتوا به ، فرجله الخدم وأحضروه بين يديه ، فقال له : رددت إليكم أموالكم ، وعاديت الروم بقتل رجالهم من أجلكم ، ومررت بى وأنت راكب « بغلتك » ، وما سلمت علىّ ، كأنى لم أفعل خيراً فيكم ، وذلك دليل على أنك امرؤ لا خلاق لك ، ثم أمر بضربه ، فضربوه وأوجعوه .

واجتمع التجار يشفعون له وقالوا : للسيد عبد اللطيف : أنسيت أننا ألزمناه بأداء الأموال ، وكتب عليه حجة ؟ ! وكيف لا تنزل عن بغلتك وتسلم عليه ، وهو ذو فضل علينا ، ولولاه ما ردت إلينا أموالنا ؟ ! فتقدم إلى بيبرس واعتذر له ، وقبل يده وجعل يسترضيه ، والتجار يشفعون له حتى صفح عنه ، ثم قال : وفى مساء الغد سيكون عندى فقهاء يقرءون القرآن ، وأرجو أن تتفضل بتشريفك البيت لتناول طعام العشاء وسماع القرآن ، فصفح عنه ، ووعده أن يمر عليه الساعة السادسة بعد أن يطوف بالمدينة ، وسأله عن مكان بيته فقال : فى باب الشعرية على الخليج . فقال : إن شاء الله أمر بك الساعة السادسة .

ركب بيبرس إلى بيته، وبينما هو سائر عثر برجل مسبحته فى رقبته ، فنظر إليه ، وملأ منه عينيه ، فألفاه المقدم مقلداً ، فسأل عثمان : هل أخليت سبيله ؟ فقال : لا ، اسأله عمن أطلقه من سجنه . فقال بيبرس : من أطلقك يا مقدم ؟ فقال : أشفق على أهل الله فأخلوا سبيلى ، ولقد ندمت على ما فرطت فى جنب الله ، وما اجترحت من معاصيه ، فقال بيبرس : يا عثمان، سبحان مقلب القلوب ، لقد أصبح مقلد من أولياء الله . فقال عثمان : لو وزعت الولاية بالفدان فما ناله منها قليل ولا كثير ، وما أمامك إلا النفاق والخديعة ، فقال : يا عثمان ، لا تسئ إلى أناس اصطفاهم ربك ، فقال : إن الله لا يصطفى رجلا نجساً ليجعل منه وليًّا. فقال بيبرس : أنسيت أنه خلص من سجنه ، وما أطلقه إلا أهل الله وأولياؤه . فقال : عمر الشقى طويل. وابن الأخت منسوب لخاله ، وسوف ترى أفعاله ، وينكشف لك ضميره .

كان بيبرس قد حبس مع مقلد غلاماً له . وكان مقلد لا يدرى شيئاً من أمر الخان وسرقته ، فقال الغلام لبيبرس : إن لمقلد رجالا وأتباعاً كثيرين ، وقد يكون بعضهم سطوا على الخان وسرقوه على غير علم منه . فإن أنت أطلقتنى اختلطت بهم ، وعرفت من سرق الخان منهم ، وحينئذ أعلمك به لتنتقم منه ، وترد الأموال إلى أصحابها ، فأطلقه بيبرس وقال له : إن رأيت منك عملا غير البحث عن السارق فلك عندى أشد العقاب ، فقال الغلام : سمعاً وطاعة . وفى ذلك اليوم الذى أهان فيه بيبرس

عبد اللطيف الدمشقى ، ذهب الغلام إلى السجن وأطلق مقلداً . وناوله مسبحة وضعها فى رقبته ، وخرج كالهائمين فى محبة الله ، مدعياً أن من أطلقه أولياء الله وأحباؤه ، كذباً وزوراً ، وذهب إلى الخان على هذه الحالة ، لينظر : كيف سرق الخان : وكيف ردت الأموال ؟ فلقيه بيبرس فى طريقه ، وجرى ما جرى من الحديث معه ، وعرف مقلد أنه سيكون الساعة السادسة ، فى بيت عبد اللطيف الدمشقى . اتناول طعام العشاء وسماع القرآن الكريم من جماعة الفقهاء ، وذهب إلى برجه ، واستمر بيبرس فى طريقه إلى بيته .

قعد مقلد فى برجه ، وأخذ يدبر ما تيسر له التدبير . فأحضر غلامه فضة الذى كان بيبرس قد أطلقه وقال له : اذهب بكتابى هذا إلى شيخ العرب تمراز بكفر الجاموس ، وأعطه إياه ، وقال فى كتابه إلى تمراز :

اجمع رجالك ، وسمهم بأسماء رجال الوالى بيبرس ، فهذا عثمان بن الحبلة ، وهذا عقيرب ، وهذا حرحش ، وهكذا ، واجعلهم يظهرون فى صورهم وأشكالهم ، وملابس مثل ملابسهم ، وادخل بهم بيت السيد عبد اللطيف الدمشقى بباب الشعرية على الخليج ، الساعة السادسة من مساء الغد ، وهو موعد حضور بيبرس ورجاله فى هذا البيت ، وسأعوقه عن الحضور فى هذا الموعد ، فإذا دخلتم البيت فانهبوا جميع ما فيه من الأموال ، وابعث لى « الكرك » ، أما بقية الأموال فخذها غنيمة لك ولرجالك ، وارجع بها إلى دارك والسلام .

وكان فى المدابغ معصرة زيت ، فأحضر مقلد خفير المدابغ . وقال له : أريد منك أن تشعل النار فى هذه المعصرة . قبل الساعة السادسة من مساء الغد بقليل ، وذلك بأن تحضر أربعة جرذان . وتشعل فيها النار ، ثم تطلقها فى المعصرة . فإذا ما شبت النار فيها وعلا الصياح والصراخ وذاع خبرها ، حضر الوالى ورجاله إليها ليطفئوها . ولبث عندها مدة . وبذلك أكون قد حبست الوالى ورجاله فى المدابغ . وأكون قد انتهيت من عمل لى إذ ذاك فى باب الشعرية ، فى غيبة الوالى .

أما الغلام فضة فقد أخذ الكتاب ومضى ، ولما قرب من كفر الحاموس لقيته فتاة على رأسها جرة من الفخار مملوءة ماء ، فسألها عن بيت شيخ العرب تمراز فقالت مشيرة إليه ، إنه البيت الذى تجده تجاهك على هذا المكان المرتفع ، وإذا بشيخ العرب مقبل عليهما من طريق آخر فضرب البنت بسيفه ضربة فصلت رأسها عن جسمها ، وهم أن يقتل الغلام . ففزع وبادره بقوله : أنا غلام المقدم مقلد ، ورسوله إليك بكتابه هذا ومد يده بالكتاب ، فأخذه منه وقرأه وعرف ما فيه ، ثم حمل تمراز جسم الفتاة بيده اليمنى ، ورأسها بيده اليسرى ودخل على أمها فى بيتها وقال : يا خلية البال ، هذه ابنتك ، أبى أبوها أن يزوجها منى فقتلته ، وما رضيت أنت بزواجها منى فقتلتها ، فخذيها واطبخيها وكليها . فما نطقت بكلمة خوفاً منه ، ثم تركها ومعه فضة غلام مقلد إلى داره .

بدأ تمراز فى الحال بجمع رجاله حتى كملوا . ولما جاء الموعد سار بهم

ومعه الغلام إلى بيت السيد عبد اللطيف الدمشقي وطرقوا الباب . فقيل : من ؟ فقال تمراز : أنا بيبرس . وفتح الباب ودخل الرجال يقدمهم تمراز فى يده عصا غليظة وبينما هم يستقبلونهم ويرحبون بهم إذا بتمراز يضرب بعصاه « النجفة » فيكسرها وقال : أنا بيبرس ، وصاح رجل من رجاله : أنا عثمان بن الحبلة ، وصاح آخر : وأنا صقر الهجان ، وهكذا . ثم انهالوا على من فى البيت ضرباً ، وجمعوا ما فيه ، ونزعوا عن السيد عبد اللطيف « كركه » وأخذوه ، وجردوا الفقهاء من عمائمهم وثيابهم الفضفاضة . وخرجوا من البيت إلى دارهم بكفر الجاموس . وقال تمراز لغلام مقلد ، خذ هذا الكرك وأعط سيدك إياه ، وبلغه أننا فعلنا ما طلبه منا ورجعنا إلى ديارنا .

ركب بيبرس كعادته ليطوف بالمدينة . وإذا بصراخ يطرق أذنيه إعلاناً بأن النار مشتعلة فى المدينة فذهب إلى مكان الصوت وسأل ، فقيل له : إن النار شبت فى معصرة المدابغ ، فخف بركبه إليها فوجدها قد اشتد أوارها وعظم لهيبها ، فشغلوا بإطفائها حتى خمدت وأطفئت ، ثم قال بيبرس : هيا بنا يا عثمان إلى بيت الشيخ عبد اللطيف ، فقال عثمان : سبقك إليه الوالى الآخر ، فارجع إلى بيتك لتنام . فقال : لا بد أن أنفذ وعدى . فإن الله لا يخلف الميعاد . ثم سار حتى وصل إليه ، فسمع الشيخ عبد اللطيف يتوجع ويقول : أنا صالحته واسترضيته حتى رضى ، فكيف يغدر بى ؟

وسمع كل واحد فى البيت يشكو ويتوجع من واحد من رجال بيبرس ، فقال : يا عثمان ، ما هذا الذى نسمعه؟ فقال عثمان : لا ينبغى أن ندخل هذا البيت وهو يضج بالألم ، والشكوى ، فاخرج بنا إلى الخلاء لنشم الهواء ونبتعد عن هذه التهمة . فسار بيبرس وهو يقول : اللهم احفظنا من كل شر . وارحمنا من كل إفك وضر . ومضى إلى الخلاء ، لأمر فى ضمير الغيب لا يشعرون به .

كانت السيدة التى قتل تمراز ابنتها تسمى حميدة ، وقد حزنت عليها حزناً أليماً ، وجعلت تبكى وتدعو على تمراز وتطلب من الله أن ينتقم منه ، وقد غلبها النوم فرأت فى منامها من يقول لها يا حميدة ، إذا صحوت من نومك فضعى ابنتك فى قفة واذهبى بها إلى مدينة مصر ، وسيلقاك فى طريقك أولادى بيبرس وعثمان بن الحبلة . فبثى إليهم شكواك وأعطيهم القفة ،وأخبريهم أن الذى نهب أموال الشيخ عبد اللطيف الدمشقى شيخ العرب تمراز ، وذلك بتدبير من مقلد الذى أشعل النار فى معصرة الزيت ليلهيك بإطفائها ويعوقك عن الذهاب إلى بيت الدمشقى فى الموعد المضروب. حتى يتمكن هو ورجاله من نهب الأموال وإهانته هو ومن فى بيته .

استيقظت السيدة حميدة ونشطت فى تنفيذ ما رأته ؛ وبينما هى سائرة رآها عثمان فأقبل إليها وأخذ القفة منها ووضعها بين يدى بيبرس ، فقال : ما هذا ياعثمان ؟ فقال : بنت مقتولة ،وهذه أمها فاسألها .فقال بيبرس : من أنت يا سيدتى ؟ وكيف جاء بك عثمان ؟ ومن قتل ابنتك ؟ فقالت :

اسمي حميدة ، وزوجي اسمه أحمد ، رزقنا الله بهذه البنت ، وسميناها زينب ، ولما كبرت وبدا جمالها رغب شيخ العرب تمراز أن يأخذها عنده في بيته ، فقال له أبوها : ليكن ذلك بالزواج ، فسبه وشتمه وقال : كيف تمنع ابنتك مني ؟ وجرد سيفه وقتله ، ثم جاءني وقال : إن زوجك منع ابنتك مني فقتلته ، وإن لم تجمليها وتزينيها وترسليها إلى بيتي قتلتها وفجعتك فيها ، فأبيت وقلت : أمري بيد الله ، وما قدر يكون . فلقي ابنتي في الصباح حاملة جرتها فقتلها ، ثم حملها إليّ وقال : هذه ابنتك قتلتها فخذيها واطبخيها وكليها . وتركني حزينة باكية ، فأخذتني سنة من النوم ورأيت هاتفاً . وقصت عليه رؤياها . ثم قالت : وها أنا ذي قابلتك وأعلمتك بكل شيء والأمر بعد ذلك لله .

فالتفت بيبرس متأثراً إلى عثمان وسأله : أتعرف يا عثمان كفر الجاموس؟ فقال : أعرفه وأعرف دروبه ومسالكه ولكن الوصول إليه عسير ، ومحفوف بالمخاطر ، لأن له كلبة تحرسه . فلا ترى غريباً قادماً إليه إلا نبحته نباحاً يوقظ أهل الكفر ، ولهم عجل قوى الجسم عظيم الجثة ، لا يسمع نباح الكلبة حتى يسرع إلى الغريب فيقتله ، وما سمعنا أن أحداً نجا من هذا العجل . فقال بيبرس : ذلك قول الخائف العاجز عن الوصول إلى كفر الجاموس وما عرفت من قبل أن عثمان يخشى بهيمتين . فقال صقر الاولي : أما العجل فعليّ قتله ، ولو كان من شيمتنا قتل الكلاب لقتلت الكلبة معه . فقال عثمان : أنا قتال الكلاب . فعليّ قتل الكلبة ،

فقال بيبرس : أرسل هذه السيدة وابنتها إلى دارى . ومعها هذه المائة الدينار للإنفاق منها فى تجهيزها ودفنها ، قبل أن نسير إلى كفر الجاموس ، وإن شاء الله لن أرجع حتى أنتقم من تمراز ومقلد .

سار بيبرس وجماعته إلى كفر الجاموس . فتقدمهم عثمان واشترى من المطرية مكتلا واسعاً وخروفاً وبعضاً من الملوخية ، ثم ذبح الخروف ووضع فى المكتل الملوخية ومن فوقها ربع الخروف . وحمل المكتل على رأسه ومشى إلى الكفر وهم من خلفه . فشمت الكلبة رائحة اللحم وجرى لعابها من أجله ، وجعل عثمان يمشى إليها قليلا قليلا وهو يقدم إليها المكتل بما فيه . حتى وثبت إليه وشغلت بأكل اللحم ، واستل عثمان إذ ذاك سكينه على غفلة منها وبقر بطنها فوقعت ميتة بعد نبحة واحدة ؛ كانت مثاراً للعجل فجاء يجرى نحوها فاستقبله صقر اللولبى بسيفه وضربه فى رأسه بين قرنيه فشقه نصفين إلى كتفه . فخر صريعاً . وأتبعها بضربة أخرى جعلته قسمين . فقال عثمان : اتبعونى حتى أصل بكم إلى دار تمراز وكان يعرفها ويعرف السبيل إليها . فجدوا فى المسير حتى بغتوه فى داره هو وجماعته . وهم لا يزالون يحملون على رءوسهم ما نهبوه من الأموال . وكانوا ثمانين رجلا . فبهت شيخ العرب ورجاله ، ولم يستطع أحد منهم أن يتحرك . وهجم عليهم رجال بيبرس فكتفوهم وأحكموا قيودهم وأغلالهم وساقوهم بما يحملونه أمامهم إلى دار بيبرس ، وأخذوا الأموال منهم ، وأودعوهم السجن مقيدين مكتفين . فقال بيبرس : عجل بالقبض على

مقلد وإحضاره قبل أن يتسرب إليه الخبر فيهرب ، فقال عثمان : سيكون الليلة فى دارك ، وعليكم أن تسيروا من خلفى ، وعلى بعد منى ، بحيث أراكم وأنتم ترونني . ولما كان عثمان أمام برج مقلدصفر صفير اللصوص . فأجابه مقلد بمثله ، وأمر غلامه أن يفتح باب البرج لهذا القادم الذى نادانا بلغتنا ، فلما انفتح الباب هجم عثمان على الغلام وأغلق فمه إغلاقاً لا يمكنه معه أن يخرج صوته ، ثم كتفه وقيده ، وأشار عثمان بيده إلى بيبرس وجماعته أن أقبلوا سريعاً ، فخفوا إليه فى لمح البصر ، وصعدوا جميعهم إلى أعلى البرج ، وإذا بمقلد قد جلس وأمامه كؤوس الخمر ، والكرك الذى أرسله إليه شيخ العرب تمراز مع غلامه على كتفه ، فلما رآهم بهت ، فضربه بيبرس باللت الدمشقى ، فضيع قوته ، وجعله عاجزاً عن أن يدافع أو يقاوم ، وقال له : تدعى الولاية وأنت أفسق أهل الأرض وأكذبهم . أين المسبحة التى كنت تخدع بها الناس لتسلبهم أموالهم ، ثم كتفوه ، وساقوه أمامهم إلى دار بيبرس ، وقرنوه إلى رفقائه فى سجنهم .

جلس الملك فى ديوانه وقال : سبحان مالك الممالك ، سبحان المنجى من المهالك . سبحان من كل شيء دونه هالك، سبحان من كل ملك عنده كمملوك ، وكل غنى كصعلوك ، يا شاهين . إنهم دائبون على كيدهم والله تعالى بالمرصاد لهم . فلما حفروا حفرة وقعوا فيها ، وأقبل حينئذ السيد عبد اللطيف الدمشقى والفقهاء وتجار الخان ، يشكون إليه ما حل بهم من الظلم فقال السيد عبد اللطيف : يا مولاى ظلمنى والى مصر بيبرس

فقد ضربنى فى خان السبيل ضرباً موجعاً . ثم استرضيته وصالحته ودعوته إلى وليمة فى بيتى ، توثيقاً لرضاه عنى ومحبتى له ، فهجم على فى بيتى هو ورجاله ونهبوا أموالى وأموال من كانوا بحاضرين من التجار والفقهاء وخرجوا ، وشهد الفقهاء بصدق ما قال السيد عبد اللطيف . وقالوا : لا يرضيك أيها الملك أن يهان أهل القرآن تلك الإهانة المخزية الظالمة ، فاستبشر القاضى وقال : هذا ظلم عظيم . ولقد طغى بيبرس وبغى ، وكثيراً ما قلت إنه ما جاء من بلاد العجم إلا ليحبط دين الإسلام ويفسد ملكك ، ولكن قولى يذهب مع الرياح ، فمن الواجب الآن قتله حتى تستريح البلاد منه ، وقد وهبت لك يا مولاى لقتله خمسين كيساً وخمسين جواداً ، وخمسين مملوكاً . وعلى الوزير أيبك مثلها . فقال أيبك : لقد ضيعت كثيراً من أموالى على غير فائدة ولا جدوى . فقال القاضى : لا ريب أن هذه المرة صائبة ، ولا منجاة لهذا الغلام الأثيم من فعلته الظالمة هذه ، فقال : قد وهبت لمولاى مثلها من مالى . فقال : هاتوا ما وهبتم حتى أنظر فى أمر هذا الغلام . فأحضروا ما وهبوا . وأمر الملك وزيره أن يحضر إليه بيبرس ، فلما بلغته دعوة الملك نهض مسرعاً وأخذ معه عثمان ورجاله ، وجميع المسجونين . وما نهبوه من الأموال ، ووالدة البنت المقتولة، وجثة ابنتها ، وكانت غزية الحبلة قد جهزتها ووضعتها فى تابوت ولم تدفنها .

دخل بيبرس على الملك فى ديوانه فألفاه غاضباً . فسلم وحيّا ،

وسأله الملك : أأنت ورجالك هجمتم على بيت السيد عبد اللطيف الدمشقى فضربتموه وضربتم فقهاءه ونهبتم أموالهم ؟ فقال بيبرس : حاش لله أن أكون من الظالمين ، وأفعل هذه الأفعال ، فقال القاضى : لقد شهد بذلك التجار والفقهاء . فقال بيبرس : أما الحادثة فقد وقعت فعلا ، وما هم بكاذبين فيما يقولون ، فانتعش القاضى وابتهج وأيقن أن بيبرس قد وقع وأن قتله أصبح بإقراره أمراً محتوماً — واستمر بيبرس فى قوله فقال : ولكنهم كذبوا فى نسبة هذه الحادثة إلىّ وإلى رجالى ، وهم معذورون ، لأن شيخ العرب تمراز ورفيقه مقلداً قد دبرا لى هذه المكيدة ، وتنكر تمراز ورجاله فى صفتى وصفة رجالى ، وانقضوا عليهم وضربوهم ونهبوا أموالهم ، وقص على الملك قصتهم كاملة من أولها إلى أن جاء بهم إلى ديوان الملك ، وقال : وتمراز هذا هو الذى قتل هذه البنت ، وقتل أباها من قبل ، وسل السيدة حميدة أم هذه الفتاة المقتولة وزوجة أبيها المقتول ، ومقلد هذا هو الذى عوقنى عن الذهاب إلى السيد عبد اللطيف فى الموعد المضروب بيننا بسبب النار التى أشعلها فى المعصرة ؛ ليتمكن تمراز ورجاله من فعلهم فى غيبتى . وقد جئتك بهؤلاء الرجال والأموال التى نهبوها ، والبنت التى قتلوها ، فقال الملك : أحضرهم بين يدى ، فابتأس القاضى وأظلمت الدنيا فى وجهه وانتظر ما يكون .

أحضر بيبرس جميع هؤلاء بين يدى الملك : فالتفت إلى السيدة حميدة أم البنت المقتولة وسألها : ما قصتك يا حميدة ؟ فحكت ما فعله

بها تمراز من قتل زوجها وبنتها وسبب ذلك . وكيف اتصلت بالأمير بيبرس حتى كانت بين يديه ، وقالت : وهو الذى هجم على بيت السيد عبد اللطيف الدمشق ومعه رجاله الثمانون بتدبير المقدم مقلد، وشرحت له الحادثة كاملة ، ثم قالت : وهذا الرجل لا عمل له إلا قطع الطريق ونهب الأموال وقتل الأنفس والعبث بالأبرياء الآمنين من الناس هو وعصبته . فقال الملك : أرأيت يا عبد اللطيف كيف كنت تجرنا بشهودك إلى أن نعاقب البرىء ظلماً وعدواناً ؟ فقال : لا علم لى بذلك يا مولاى ، ولا بد أن ينال هؤلاء الطغاة عقابهم ضعفين بما نهبوا وظلموا و بما احتالوا لنجاتهم وهم آثمون ، وعقاب غيرهم وهم أبرياء لا ذنب لهم . فقال الملك : كل منكم يأخذ ماله ، فتقدموا وأخذوا أموالهم فوجدوها كاملة لم يضع منها شىء ثم أمرهم بالانصراف ، وأمر الملك بيبرس : أن يأخذ هؤلاء الطغاة ويحكم فيهم بما يشاء . وأن يأخذ معه الأم وبنتها ويجتهد فى إكرامها ودفن ابنتها ، ثم قال للقاضى وما رأيك فى الأموال التى وهبتموها لى ؟ فقال : الحق ظهر وليس لهذا الغلام ذنب فيما حصل ، وقد وهبت لك هذا المال ، فقال الملك : وهو منى منحة إلى ابنى محمود بيبرس .

أخذ محمود بيبرس الجناة ، فشنق مقلداً أمام برجه ، وشنق تمراز أمام داره ، وقتل رجاله وغلامه فى كفر الجاموس علناً ، أمام الناس . وعلى مشهد منهم . أما السيدة حميدة فقد دفن ابنتها فى كفر الجاموس ، وأسكنها دار تمراز ، ووهب لها أمواله جميعها .

١٢

أصاب الوزير أيبك غم شديد وحزن أليم ، وندم على ما بذل من الأموال من غير فائدة ، وقال للقاضي : كنت السبب فى ضياع مالى ، وما بلغت مرادى ، وإن لم تدبر مكيدة لقتل بيبرس قطعت رقبتك بسيفى هذا ، فقال القاضى ، اصبر قليلا ، وستجد قريباً أنه قد قتل ، وأنك أصبحت السلطان الحاكم ، فخدعه كلام القاضى وهدأت ثورته ، وذهب كل إلى منزله .

وقال القاضى وهو عائد إلى منزله لغلامه : يا منصور هات لى قراجودة « المحتسب » فقال الغلام : ولأى شىء تدعوه إليك الآن ؟ فقال : أريده لنفكر فى حيلة نقتل بها بيبرس ، فقال الغلام : لقد أتعبت نفسك ، وأضعت مالك ، ودبرت المكايد، وبؤت بالفشل والخيبة كل مرة ، وكان الواجب بعد هذا جميعه أن تريح نفسك ولا تفكر فى أمر بيبرس ، فإن الله يحميه ويرعاه ، فقال القاضى : عسى أن يبلغنا فيه المسيح هذه المرة ما نتمناه ، وما ضاع من مالك ما حقق رغبتك ، فاذهب وائتنى بقراجودة فهو نصرانى وأريد أن أعرفه مكيدة يقتل بها بيبرس .

وذهب الغلام إلى قراجودة فى داره وقال : إن القاضى يدعوك إليه الساعة ، فنهض من فوره وصحبه إلى القاضى . فأجلسه بجانبه ، وأظهر له

محبته والثقة به ، وكان يعرف كل منهما صاحبه أنه نصرانى ، ويعرف قراجودة أن القاضى اسمه جوان وأنه يسعى لقتل بيبرس بأية وسيلة ، وكانت وظيفة قراجودة مراقبة الموازين والمكاييل والأسعار ، حتى لايطفف التجار فى الكيل والميزان ، وحتى لا يجاوزوا الحد فى أسعارهم . فقال له : هات ميزانك الذى تزن به أرطال التجار وأقتهم ودراهمهم ، فناوله إياه ، ثم أحضر حداداً وقال له : ضع فى ناحية من نواحى هذا الميزان قطعة من الرصاص بحيث تجعل الرطل الكامل أقل من وزنه ، وبحيث لا تظهر لأحد مهما يدقق فى فحصه ، فلما انتهى الحداد من عمله كما يريد القاضى ، قال له: سأعطيك كوباً من شراب أحبه ليكون مظهر تقدير منى لك ، وكان قد وضع فى الكأس سماً قاتلا اوقته ، فلما شرب الكأس مات لساعته ، فألقاه فى جب كان عنده ، وفعل القاضى به ذلك حتى لا تكشف حيلته ، ثم قال : خذ ميزانك يا قراجودة واذهب إلى التجار فى حارة بيبرس ، واضرب كل تاجر تجد أرطاله ناقصة . وذلك بدء المكيدة التى دبرتها لقتل بيبرس . فقال : سمعاً وطاعة ، وانصرف إلى داره .

وفى صباح الغد ذهب قراجودة إلى ديوان الملك ، واستأذنه أن يطوف بالتجار للتفتيش على موازينهم ، فقال الوزير أيبك : لقد كثر التطفيف فى الميزان ، فاجتهد أن تحمل التجار على الوزن بالحق حتى ينال كل ذى حق حقه ، وقال القاضى : لا تهمل يا قراجودة ، وأشعر التجار أن

عليهم رقيباً ، فقال الملك : اسمع كلام القاضى والوزير فعسى أن تلحق بمن سبقوك ، وإياك والتهاون ، فإن فيه ضياعاً لحقوق الناس ، وإغضاباً لرب العالمين .

دخل قراجودة حارة بيبرس ،واختبر بميزانه أرطال التجار وأقفهم فظهرت ناقصة، وأخذ يضربهم واحداً واحداً، حتى أوجعهم ضرباً وإيذاء وهم فى حيرة من هذه المعاملة لأن أرطالهم كاملة لا نقص فيها ، ولأن هذه الحارة محظور على قراجودة وأمثاله من المراقبين أن يدخلوها، فذهبوا إلى بيبرس وشكوا له ما وقع بهم ، فقال لهم : اصبروا وسأمنعه من المجىء إليكم . ولكنهم رأوه وجماعته غداة يومهم هذا ، وفعلوا بهم ما فعلوه فى اليوم السابق ، فقال أحدهم: ما كان لكم أن تذهبوا إلى بيبرس وأنتم تعرفون من يستطيع أن يمنعه ويحرم عليه دخول هذه الحارة ، فقالوا : ومن ذلك الذى تعنيه ؟ فقال : عثمان بن الحبلة . فذهبوا إليه وشكوا ما فعل بهم ، فقال لهم: انصرفوا، وإن جاءكم غداً فقولوا : « طقطق شعيرك يا دبور » .

وفى صباح اليوم الثالث وضع عثمان على عينيه بصلا ، فاحمرتا ، وادعى أنه مريض بهما ، ووصى رجاله أن يعلنوا هذا إلى بيبرس حتى يذهب إلى الديوان دون أن يأخذه معه ، وذلك ليتخلف ويذهب هو وجماعته إلى حارة بيبرس للقاء قراجودة وجماعته ، وعلم بمرضه بيبرس فجاءه ودعا له بالشفاء وأخذ معه خادماً آخر وذهب إلى الديوان .

أما عثمان فإنه خرج فى جماعته ومضى حتى كان فى الحارة ، وهناك وزع رجاله على الأبواب ، وأمرهم أن يغلقوها إذا مادخل قراجودة ورجاله ، ولما دخلوا أغلقوها من خلفهم ، وذهب قراجودة إلى دكان زيات وقاله له : كيف تخرج البقرة السوداء لبناً أبيض ، كما تخرجه البيضاء ؟ فقال الزيات : ما أجهلك ! ! وما ألأمك ! ! ! وكيف تلدك أمك أبيض اللون وهى سوداء ؟ خير لك أن تقول : وصاح بأعلى صوته « طقطق شعيرك يا دبور » . فانقض عثمان ورجاله عليهم انقضاض الصاعقة ، أما عثمان فقد أمسك قراجودة وضربه ضربة ألقته على الأرض خائر القوى فكتفه وقيده ، وأما رجاله فقد أحاط كل خمسة منهم برجل من رجال قراجودة وكتفوه وقيدوه . ثم أركب قراجودة على بغلة وجعل وجهه تجاه ذنبها وساق رجاله من خلفه ، ومشى بهم فى المدينة مشية خزى وفضيحة ، ثم تركوهم ورجعوا ، إلى دار بيبرس ، وسار قراجودة وجماعته والناس يضحكون منه حتى لقيه القاضى وأيبك فدهشا ، وسألاه عن حاله هذا فقص عليهما قصته ، فقال أيبك : هذه الإهانة من صنع يديك أيها القاضى ، وما فعلت شيئاً أو دبرت إلا بؤت منه بالخيبة ، وما نالنا منك إلا الخزى وضياع الأموال والإهانة ، فقال القاضى : غداً يأتى الخدم إلى الديوان وهم يحملون تابوتاً فيه قراجودة ، ويدعون أنه مات . وأن الذى قتله عثمان بتحريض من بيبرس ، وسأحكم عليه بالقتل ونكون قد استرحنا منه ،واتفقا على ذلك ومضى كل منهما إلى شأنه . ولكن بيبرس

لقى قراجودة وهو ذاهب إلى بيته فسأله : من فعل بك هذا ؟ فقال : عثمان ، وليس بينى وبينك إلا السلطان ، فقال بيبرس : لا تحزن ، وتعال معى وأنا أضرب عثمان وخدمه أمامك ، وأجعلهم يعتذرون لكم ، وأعطى كلا منكم عشرة دنانير ، فقال : لا يرضينى فى هذه الإهانة إلا قطع رأسك ، ولا بد من رفع أمرى إلى السلطان غداً ، فقال بيبرس : ضع رأسك حيث تضع رجلك ، وافعل ما تشاء ، وتركه ومضى إلى بيته وكان عائداً من الديوان ، فلما دخله قال : كيف حال عينيك يا عثمان ؟ فقال: الحمد لله ، فقال: تعالَ ياعثمان لأسألك عن حاجة ، فقال: قل ما شئت فليس بينى وبينك سر ، فقال : من جاءنا اليوم ؟ فقال : لا أحد ، وإن كذبتنى فسل أولاد الحارة ، فقال : ألم يجىء قراجودة المحتسب ؟ فقال : جاء وضربته وحكى قصته ثم قال : وإن عاد إلينا ثانية قطعت عنقه ، فقال : إنه ابن أخت الوزير أيبك ، فقال : ابن أخته ، ابن عمته ، ليس عندنا فى الحق قريب وبعيد ، فخرج بيبرس إلى أولاد الحارة وسألهم فقالوا : ما رأينا ولا سمعنا ، وكان عثمان قد وصاهم بذلك ، فسكت بيبرس ولم يتكلم .

وجلس الملك فى الديوان فى اليوم التالى ، فسمى باسم الله الرحمن الرحيم وكبر ، وجاءه رجال قراجودة يحملونه فى تابوت ويقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال الملك : هل نقلت المقبرة إلى الديوان ، أو أصبح الديوان طريقاً إليها ؟ فقالوا : عاش

مولانا الملك، مات قراجودة المحتسب ، فقال : وهل جئتم به لتدفنوه هنا ، فقالوا : إنه مات مقتولا ، فقال : ومن قتله ؟ فقالوا : عثمان بن الحبلة والأمير بيبرس ، فقال القاضى : من قتل مؤمناً قتل فيه ، وإذا لم يقتل هذا الغلام فإنه لا يزال يحارب دين الإسلام ويسفك دماء المؤمنين ظلماً وعدواناً ، ورغبة منى فى حماية الدين وإحباط أعمال الذين يحاربونه فقد وهبت لمولاى خمسين كيساً فى كل كيس ألف دينار وثمن خمسين مملوكاً ، وثمن خمسين جواداً ، وعلى الوزير أيبك مثلها ،فقال أيبك : مادامت لحماية الدين والمحافظة عليه فقد رضيت ،فقال الملك : أحضروا ما وهبتم ، فأحضروه والأموال التى وهبوها ، ثم قال الملك : يا شاهين ، ابعث رسولا إلى بيبرس يجيئنا به ، فذهب الرسول إلى بيبرس ، وقال له : أجب دعوة الملك : فقال : سمعاً وطاعة ، وهل جد شىء ؟ فقال : مات قراجودة المحتسب ، فجاءوا به فى تابوت وادعوا أنك أنت وعثمان ومعكم خدمكم قتلتموه، فقال بيبرس : يا عثمان إن قراجودة قد مات ، فقال : ولأنه مات فقد خرج أمس من هنا ماشياً ، فقال بيبرس : إذا سألنى عنك الملك فسأخبره أنك مريض ، ولزمت فراشك ، وأنت لا تخرج من البيت حتى تهدأ الحال ، ويتيسر لنا مخرج ،فقال عثمان: كما تشاء ، ولما كان بيبرس قدام الملك سأله : هل قتلت المحتسب يا بيبرس ؟ فقال : وما الداعى لقتله ؟ رجل لا صلة لى به ، وليس بينى وبينه معاملة ولا خصومة ، فكيف أعتدى عليه وأقتله ؟ فقال

الملك : وأين عثمان ؟ فهم أن يقول : إنه مريض فى البيت وإذا به يضرب بعصاه عتبة الديوان، ثم دخل وسلم، فسأله الملك عما فعله بالمحتسب فقال : إنه أهل لما فعلته به ، فقال : وما حكايته ؟ فقال عثمان ؟ ألا تذكر أنك أصدرت « فرمانا » بأن حارة بيبرس لا يدخلها وال ولا محتسب ؟ فقال : نعم أذكر ذلك ، فقال : ولكن القاضى أعطى قراجودة « المحتسب » ميزاناً مختلاً ، وبعثه إلى حارة بيبرس ، وجعل يختبر أرطال التجار وأقفهم بميزانه المختل فتبدو ناقصة ، وهى فى الواقع كاملة لا نقص فيها ، وحينئذ يوبخ التاجر ويوجعه ضرباً ، وما ترك الحارة حتى جعلها مناحة حزن وبكاء ، وما فعله بهم فى اليوم الأول فعله فى اليوم الثانى ، وما نفعتهم شكايتهم إلى بيبرس ، فجاءونى وبلغونى ما فعله بهم قراجودة وجماعته ، وأتم عثمان قصته على الملك ، إلى أن قال : وهذا هو الميزان ، فنظر إليه الملك نظرة فاحصة ، وقال عثمان : من صنع هذا الميزان لا يعرف الله ورسوله ، وما هو إلا منافق جاحد ، فقال الملك : لا نسألك عن ضربه الآن ، ولكن نسألك عن قتله ، فقال عثمان : أنا ضربته ، وإذا كان قد مات بعد الضرب فماذا أعمل ؟ فقال الملك : من قتل مؤمناً متعمداً قتل فيه ، فقال عثمان : ما دمت سأقتل فيه فلا بد من أن أبقر بطنه قبل أن أموت ، ثم أخرج سكيناً من منطقته وجرى نحو التابوت — وكان قراجودة يعلم من قبل أن عثمان قتل الوالى فى تابوته — فنهض واقفاً من التابوت وجرى هرباً من عثمان . فقال الملك : الله أكبر ، سبحان الحى الدايم ، سبحان من يحيى

العظام وهى رميم ، يا شاهين ، انظر كيف يحيى الميت بعد موته ؟ ولكن ائتونى به ، فقال عثمان : أسرع يا حرحش أنت ورجالك بإحضار الميت الهارب إلى الملك . فأمسكوه وجاءوا به إليه ، فقال : يا أيبك : لقد رأيت الوالى الذى مات كذباً ، وهجم عليه عثمان فقتله . وظهر أنه نصرانى ، ولكنه يظهر إسلامه ، وهذا ابن أختك فعل فعلته ، وتماوت وهو لم يمت ، ومن الجائز أن يكون مثل الوالى ، يخفى النصرانية ويظهر الإسلام ، فمن الحق أن نتبين أمره ، ولكن الله حليم ستار ، فلنكتف بعزله من منصبه ، ويذهب إلى حيث يشاء ، وقد عزلناه وولينا مكانه بيبرس ، فألبسوه فى الحال خلعة المنصب الجديد ، ثم التفت إلى القاضى وقال : هل يحل فى شرع الإسلام أن ينفق الناس أموالهم ويعطوها رشوة لقتل أنفس حرم الله قتلها إلا بالحق ؟ قال القاضى : ومن فعل ذلك ؟ فقال : أنت وأيبك ، فقال القاضى : ما أعطيناك أموالنا إلا لإظهار الحق على الباطل ، وقد بان الحق الآن ، فقال : وحينئذ لمن يكون مالكم الذى أعطيتمونيه ؟ وعرف القاضى أن مصيره إلى بيبرس ، فقال : إنه هبة منا للأمير بيبرس ، فأمر بيبرس رجاله أن يحملوا الأموال إلى داره ، ونزلت هذه الخاتمة على القاضى والوزير أيبك نزول الصاعقة .

ولبث الأمير بيبرس فى بيته ، يعد كل شىء يصلح لمنصبه الجديد ، ولكنه ما لبث أن جاءه مشايخ الخبازين ، والقصابين ، والزياتين ، والمطاعم وغيرهم ووضع كل من هؤلاء المشايخ أمامه صرة من المال ، وقالوا

تقبلها منا ، فهذه عادتنا مع كل « محتسب » جديد، ثم تقدم شيخ الخبازين ، وكان أكبرهم سناً وقال : إنى أجمع المال كل شهر من أصحاب المخابز ، فآخذ نصفه وأعطيك نصفه الآخر فى صرة كهذه الصرة ، لكيلا تعاقب واحداً منهم إذا وجدته قد نقص من وزن الرّغيف ، وقال شيخ القصابين : ونحن نعطيك مثل هذه الصرة كل شهر ، لكيلا تعاقب واحداً منا إن وجدته قد نقص فى الميزان أو زاد فى سعر اللحم ، وكذلك قال بقية المشايخ ، وأجمعوا على أن هذه عادتهم وخطتهم مع « المحتسب » من قديم الزمان ، فقال لهم : ولكنكم خالفتم بهذا قول الله تعالى : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم » وقد أنذر الذين يخالفونه عذاباً أليماً إذ يقول : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ووبخهم متوعداً إياهم بقوله تعالى : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » وإنى لا أرضى لكم إلا أن تتبعوا ما أنزل عليكم من ربكم ، وتعفوا عما حرم عليكم ، فاستمعوا لما أقوله لكم :

يجب أن يكون الرغيف كاملا فى وزنه ، ونظافته ، وإنضاجه ، فإن وجدته ناقصاً فى الوزن ضربت صاحبه خمسمائة سوط لكل درهم نقص ، وإن وجدته غير نظيف أخذت الخبز جميعه ووزعته على الفقراء ، أو جعلته طعاماً للكلاب ، وإن لم يكمل نضجه ضربت صاحبه خمسمائة سوط فى المرة الأولى ، ومثلها فى الثانية ، وفى المرة الثالثة ألقيته فى التنور ،

أما اللحم فإن غش صاحبه ، وباع صنفاً باسم صنف آخر ، كأن يبيع الماعز باسم الضأن جمعت ما عنده من اللحوم ووزعتها على الفقراء ، وإن نقص فى الوزن قطعت من جسم صاحبه بمقدار ما نقص ، وإن زاد فى ثمنه فعقوبة كل جديد زاد فى الثمن ضرب صاحبه ألف سوط ، وكذلك الحال فى بقية السلع ، ويبدأ البيع والشراء قبل شروق الشمس إلى ما بعد العشاء بساعة ونصف ساعة ، وأما مشايخ الطوائف فإن أخذ شيخ من أحد من أفراد طائفته درهماً واحداً فحكمه عندى حكم السارق ، وجزاؤه قطع يده ، وسأعلن هذا للتجار والناس ، والآن خذوا ما أحضرتم من الأموال وردوها إلى أصحابها والتزموا الحدود التى رسمتها لكم ، واحذروا أن تخالفوها ، وقوموا إلى شئونكم ، والله يوفقكم .

قام المشايخ راجعين غاضبين ، وهم فى أشد الخوف من الأمير بيبرس .

٥

نزل بيبرس إلى المدينة وبحث مع التجار وأرباب المصانع أسعار السلع ، وانتهى معهم على رأى حاسم عادل . وجعل لكل صنف سعراً ملائماً ، يتحقق به النفع ، ولا يجرى مع الظلم . وكتب بكل أولئك بياناً وزعه على أنحاء المدينة ، وحذر مخالفيه العقوبة المحتومة .

بدأ المؤمنون صيامهم شهر رمضان . وبينما هو خارج من بيته إلى الصلاة لقيه اثنان من الأشراف ، فتقدما إليه وأرادا أن يقبلا يده فمنعها

وسألهما : من أنتما ؟ ومن أين أقبلتما ؟ فقال أحدهما : إننا من أرض الشام وما جئنا إلا إليك ، ومعنا كتاب من أمك السيدة فاطمة القوسية ، وأنا اسمى السيد حسن ، وهذا أخى ، واسمه السيد محمد . ومعه أيضاً كتاب إليك من أمك . ثم ناوله كل منهما الكتاب الذى معه ، فوجدهما متحدين فى الألفاظ والعبارات ، وكان فيهما :

من أمك السيدة فاطمة القوسية إلى ولدى الأمير بيبرس. بعد السلام عليك . فقد بعثت كتابى هذا مع اثنين من أعيان الشام ، يريدان أن يحجا بيت الله الحرام ، فأكرمهما ، وأوص بهما أمير الحج ليعودا إلينا شاكرين والسلام . فلما قرأه فرح بهما وجعل لهما مكاناً خاصاً بهما وأكرم مثواهما ثم قال لهما : نحن فى حاجة إلى إمام يصلى بنا فى شهر رمضان ، فقال السيد محمد : أنا إمامك ، فسأله : وهل تحفظ القرآن ؟ فقال : نعم ، وبينما هو يتحدث معهما إذ دخل عثمان عليهما ، فنظر إلى الرجلين نظرة طويلة ، ثم التفت إلى بيبرس ، وقال : كيف جاءك هذان الرجلان ؟ فقال : إنهما من أشراف أهل الشام ، ولهما معرفة بأمى فاطمة القوسية ، وأتيانى بكتاب منها توصينى بهما ، وهما يريدان حج بيت الله الحرام هذا العام ، فقال عثمان متعجباً ساخراً : البيت الحرام ؟ ! ! وكيف يعرف هذان الرجلان بيت الله وقبر نبيه ؟ ! هذان معرفة القاضى ، ومن الحارة الضيقة ، ومن رجال «البرتقش» ، فقال بيبرس : اسكت يا عثمان ، لا تخض فى سيرة الأشراف ، وهذان أقل ما عندهما أنهما

يحفظان القرآن، فقال عثمان : إن إبليس كان من العلماء وكان يعبد الله، فإن أنت أطعتنى فلا تصدقهما ولا تتخذ لك منهما إمامًا، ولا تصل معهما ، فقال له صائحاً فيه : اسكت يا عثمان ، فقال عثمان : أنت وشأنك ، وصل كما تشاء ، أما أنا فسأصلى مع عقيرب .

وتركه ومضى إلى الإصطبل ، وجعل بيبرس يصلى معهما حتى انتهى شهر رمضان .

ولما حان أوان السفر إلى حج بيت الله قال بيبرس للسيد محمد : هذا أوان الرحيل إلى أرض الحجاز فاستعد أنت وأخوك لتكونا فى صحبة المحمل وأمير الحج ، فقال : كتب الله لك كل خير وسلامة ، لقد اعترانى مرض لا أستطيع معه أن أحج بيت الله هذا العام ، وقد نويت أن أقيم معك ، وإن كان فى العمر بقية ، حججت بيت الله العام القادم ، وإن انتهى الأجل فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، وإن أخى لا يمكنه السفر من غيرى. فقال له: أنت وأخوك على الرحب والسعة. ولكما عندى ما تحتاجان إليه ، وأن تعيشا فى رخاء وسعة .

وبعد أن سافر الحجاج وانتهت أيام الرحيل إلى الحجاز قال السيد محمد لبيبرس : يا سيدى ، أود أن يكون لى دكان فى أرض المحروسة ، لأنى « شربجى » وأصلح مكان له أن يكون فى طريق الحسين لتشملنى

بركاته ، وليشرب من دكانى كل زائريه ، فأمر بإحضار المهندس والبنائين فحضروا ، وناوله كيساً من الدنانير وقال للمهندس والبنائين : اذهبوا بالسيد محمد واشتروا له الأرض التى يختارها وابنوا له دكاناً فيها ، على الشكل الذى يعجبه ويرتضيه ، فساروا معه إلى العقادين ووجدوا قطعة أرض خراب فأعجبته واشتروها من أصحابها ، ثم أمرهم أن يحفروا الأرض ويبنوا له طابقاً تحت الدكان ، فسأله المهندس عن ذلك فقال : ليكون لى مخزناً أضع فيه بضاعتى من تين وزبيب وتمر وغيرها ، ففعلوا ما أمرهم به وبنوا له طابقاً تحت الأرض ومن فوقه الدكان ، وبعد ذلك ذهب السيد محمد إلى بيبرس وشكره وقال : أود أن تأمر المراقبين ألا يسألونى عن شىء فى الدكان فى أى وقت من أوقات الليل ، لأنى سأقيم ليلا ونهاراً. فقال له بيبرس : لك ذلك ، وأصدر أمره إلى المراقبين ألا يتعرضوا للسيد محمد فى دكانه إذا رأوه فى أى وقت من الليل .

أقام السيد محمد فى الدكان ، واتخذ أخاه السيد حسناً غلاماً له ، تحت يده ، ويقوم بخدمته ، كان الدكان ذا منظر بهيج يعجب الزائرين ويحبون أن يستريحوا فيه ، ويسقوا من شرابه الحلو اللذيذ ، وكان السيد محمد فى الأحيان التى يكون الغلمان فيهاعنده يأمر أخاه حسناً أن يسقيهم من الشراب الذى فيه البنج ويقول : هات لأسيادك من « القمقم الفوقانى » فإذا شرب الواحد منهم كأسه ، مال رأسه وفقد وعيه ، فيحمله هو وأخوه إلى الطابق الذى تحت الأرض ، واستمر على هذه الحال أياماً حتى ضج

الناس وفزعوا لغيبة أولادهم غيبة لا يعرفون لها سبباً ولا مصيراً، وبلغت الحال أشدها غضباً وامتعاضاً حينما اختفى ابن نقيب الأشراف ، فلم يجد النقيب بدًّا من أن يجمع الأشراف ويذهبوا إلى الملك الصالح فى ديوانه يبثون إليه شكواهم ، فلما كانوا عنده قال لهم : أهلا وسهلا بسلالة الأشراف ، اجلسوا واستريحوا ، ثم قال : يا شاهين ، اشتد أوار النار ليميز الله الأبرار من الأشرار ، ثم التفت إلى النقيب وقال : طبتم وذهب الضر عنكم ، فيم جئتم ؟ فقال : فسدت المدينة ، وضاع أولاد الناس ، وحرام عليك أن تسكت على هذه الحال : فقال الملك ، وما ذنبى فى ضياع الأولاد ؟ فقال : إنك أطلقت « السماوى » فى المدينة يأخذ أولاد الناس . فقال الملك : وما الفائدة التى تعود علينا من ذلك ؟ فقال النقيب : وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فأين ضاع أبناؤنا ؟ هل ابتعلتهم الأرض ؟ هل تخطفتهم الطير ؟ وهل نجد مسئولا عنهم غيرك ؟ فقال : ورب الكعبة مالى ذنب فيما تقول، ولا أود إلا أن يعيش الناس آمنين هانئين، ولكن الأمر فى غاية الخطورة ، ولا بد له من اهتمام وعناية ، ثم نادى : يا شاهين ، ماذا ترى فى هذا الأمر الخطير : فقال لا بد من تكليف أناس يجولون فى المدينة ليتبينوا هذا الأمر ، ويزيلوا عن الناس ذلك الشر ، فقال القاضى : يا ملك ، هذا الأمر من عمل الأمير بيبرس وهو المسئول عنه ، فقال الملك : نعم ، هو المسئول عنه ، فهاته يا شاهين حتى يظهر الحق على يديه ، وتنكشف هذه الغمة عن خلق الله، فلما حضر بيبرس بين

يديه قال له الملك : أنت الوالى على مصر ، وأنت الكافل لراحة الناس وأمنهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وقد فشا فى المدينة فقد الأولاد وضياعهم حتى اتهمونى أننى أطلقت فى المدينة « السماوى » ليأخذ أولاد الناس ، فعليك أن تنزل من فورك إلى المدينة لتكشف عن الناس هذه الغمة ، وتمسك هذا المجرم الخائن الذى يأخذ أولاد الناس ويفجعهم فى أعز شىء لديهم ، ويزعج أمنهم وسلامتهم ، والله يؤيدك بنصر من عنده ، فلما خرج من الديوان لقيه عثمان فسأله عما عنده فقال : يا عثمان لقد طاف على المدينة طائف أزعج الناس وأصابهم بغم عظيم ، فإن أولادهم يفقدون ويضيعون ، ولا يعرفون لهم مصيرًا ، حتى إن ابن نقيب الأشراف كان من الأولاد الذين فقدوا وضاعوا ، وقد ألزمنى الملك أن ابحث له عن الجانى ، وأين أجد هذا الجانى ؟ وكيف أعثر على الأولاد الذين ضاعوا ؟ فقال عثمان : سل عنهم صاحبيك السيد محمد ، والسيد حسناً ، اللذين اصطفيتهما لنفسك ، يصليان بك فى رمضان ، ويقرأان القرآن ، وهما سبب هذه المصيبة، التى يرزح تحت أعبائها أهل المدينة، فقال بيبرس : يا عثمان ، هذان شريفان ، ولا ينبغى أن تخوض فيهما بالقول السيئ والكلام الجارح ، فقال عثمان : خدعتك كلمة الأشراف ، وما هم إلا أنجاس أبناء أنجاس ، وما دمت قد خالفتنى فاتركنى وشأنى واذهب إلى المدينة وحدك ، لتحمل أنت تبعة عملك ، فتركه بيبرس غاضباً وانتظر إلى الليل . ثم نزل إلى المدينة ومعه صقر الاولبى وصقر الهجان ،

وقال لهما : أنتما تسيران فى ناحية من المدينة ، وأنا أسير فى ناحية أخرى، على أن نلتقى فى دكان السيد محمد « الشربجى » وجعلوا يتجسسون ويتعرفون. ولما تعب بيبرس وكان ذلك فى منتصف الليل ذهب إلى دكان السيد محمد ليستريح وينتظر صاحبيه فوجده يقرأ القرآن على ضوء شمعة أوقدها ، فسلم عليه وجلس وسأله عن صاحبيه فقال: لما يحضرا ، ثم جاءه بكأس من الشراب الممزوج بالبنج ، فما كاد ينتهى من شربه حتى خدر وفقد وعيه ، فحمله السيد محمد وأخوه إلى الطابق الذى تحت الأرض . وأراد أن يقتله ويأخذ رأسه ويذهب به من حيث أتى ولكن الله أراد له السلامة ، فجعل السيد محمد يطمع فى قتل صاحبيه اللولبى والهجان ، وكان قد عرف من بيبرس أنهما حاضران لأنهما على موعد فى هذا الدكان فأبقاه حتى يحضرا ، وتركه وجلس فى الدكان ، وما لبث غير قليل حتى حضرا، وسألاه عن بيبرس، فقال: إنه حضر وسيعود سريعاً، وقال: إن جاء صاحباى فلينتظرانى فى الدكان حتى أعود. فلما جلسا سقاهما الشراب الممزوج بالبنج ، وحملهما إلى الطابق الذى تحت الدكان ، وفيه كتف كلا من الثلاثة : بيبرس وصاحبيه ، ولما أفاقوا سأل بيبرس: أى شىء أوقعكم ؟ فقالا : أوقعنا ما أوقعك، ورب الكعبة لولا أنا رأيناه مقيماً عندك وأنت تعطف عليه وتكرمه ما وقعنا فى يده أبداً ، ولكن المقدور لا حيلة للمرء فيه ، وأخذوا يتلاومون من غير جدوى ولا فائدة ، وأسلموا أمرهم إلى الله ينتظرون كشف ما بهم من ضر .

لما جلس الملك فى ديوانه قال : جزاؤهم عند الله ، آن الأوان لظهور ما كان خفيـًّا ، ولماذا يظلمونى ؟ هل كنت معكم حينما بنيتم واشتريتم ؟ وكان عثمان قد أصبح ولم يجد سيده ، فأخذ عصاه وذهب إلى الملك فدخل عليه إذ ذاك وهو يقول : يا ليل ، فقال لا ليل ولا نهار ، اذهب يا عثمان فقال : أأذهب وأنت تقعد ؟ قم وهات لى سيدى بيبرس ، فقال : وهل سيدك عندى يا عثمان ؟ لم تظلمنى يا عثمان ؟ فقال : لن أتركك حتى تأتينى به ، وإن كلفك هذا أن تصعد إلى السماء ، فقال الوزير شاهين : ما الخبر يا عثمان ، فقال: خرج بيبرس إلى المدينة بالليل ولم يعد، ولا يقدر أحد أن يجىء به إلا الملك ، فقال الملك : أنا أحضره ولكن أنت تسبقنى وتبحث عنه فى المدينة والملتقى بينى وبينك الدكان المعلوم الذى تعرفه أنت يا عثمان وأعرفه أنا ، فقال عثمان : ما دمت قد عرفت الدكان فلا خوف عليك ، ثم انصرف .

وانتظر عثمان إلى ما بعد العشاء ، ونزل إلى الدكان فجلس فيها وقال : هات لى كأساً من « القمقم الفوقانى » لأنى أحب أن أشرب وأنتظر الملك ، فلما شرب الكأس أغمى عليه فكتفه السيد محمد وحمله إلى الطابق ، فلما أفاق سأله بيبرس : من جاء بك إلى هذا المكان ؟ فقال : لقد خالفتنى ولم تصدقنى ، وملأت سمعى بأنهم أشراف ، واحذر يا عثمان أن تخوض فى الأشراف ، حتى وقعت وأوقعتنا معاك .

وبعد صلاة العشاء ركب الملك الشهباء، وسار ومعه اثنا عشر كرديـًّا ،

حتى وصل إلى دكان « الشربجى » فجلس وقال : هل أخذت الجماعة ؟ اسقنى فإنى عطشان ، فنهض « الشربجى » وأحضر له كأساً فيها سم قاتل لأنه قال فى نفسه إن مات الملك عز النصارى وظهروا على أعدائهم ، ولما تقدم بالكأس إلى الملك قال : هل من المعقول أن يبطل أبو الخير كأس القاضى وأنا أشرب هذه الكأس ؟ ذقها يا سيد محمد وأنا أشربها ، فاحتار « الشربجى » واضطرب ووقعت الكأس من يده فانكسرت وسال ما فيها على الأرض ، وتسمَّر ووقف جامداً لا يتحرك ، ثم أشار الملك بيده قائلاً : تعال يا حسن ، فتقدم إليه وقبل يده ، وقال : أنا أقول على يديك : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فسأله الملك : هل كنت نصرانيًّا وتلبس عمامة خضراء ؟ فقال : سأقص عليك قصتنا :

هذا الملعون الذى خدعكم وأكل طعامكم ونعم فى ظلال وارفة من كرمكم اسمه ساجر الأرمنى ، من بحيرة الغيرة ، وهو أخو زغوير الذى سرق مال خان السبيل ، وله أخ ثالث اسمه شريحه ، وكان لزغوير غلام اسمه صابور نقل إليهما نبأ قتله ، ووصيته أن يأخذا له بثأره . فقدما إلى مصر ، واتصلا بكبير ملتهم النصرانية فيها وهو جوان . فكتب لهما كتابين على لسان السيدة فاطمة القوسية ، تقول فيهما ، إنهما من أشراف الشام ويريدان أن يحجا بيت الله الحرام ووصت بهما خيراً ، وما كانا يبغيان حجاً ولا شيئاً مما يأمر به الإسلام لأنهما نصرانيان، فطلب

ساجور الأرمنى من بيبرس أن يبنى له هذا الدكان فكلف المهندسين والبنائين أن يبنوه له على الشكل الذى يعجبه ، وبنوه على هذه الصورة ، وأخفى فى طابقه خمسة وخمسين غلاماً والأمير بيبرس وأصحابه ، وكان يريد أن يأخذك معهم لتكون تمام الستين وحينئذ يقتلكم جميعكم ويهرب إلى بلده ، فقال الملك لعز الدين أحد أتباعه : انزل إلى الطابق وهاتهم ، ودع الولد يخدم ويرزق ، ودع عدوهم ورفيقه تحترق كبودهم من الغيظ ، فنزل عز الدين ونزل معه الغلام الذى أعاد إسلامه على بيبرس ، ففك عز الدين وثاقهم ، ورجع بهم إلى الملك فقال : يا بيبرس خذ هذا الولد وسمه حسناً ، فقال بيبرس : جعلته « خازندار » فقال الملك : مبارك يا حسن ، وأنتم الآن تمضون إلى داركم ، واحذر يا حسن أن تفضح الملعون جوان ، فقد كنا عارفين ، ولكن القضاء لا بد منه ، وتقدم صقر اللاولبى وصقر الحجان إلى الملك وشكرا له جميل معروفه ، فقال : نحمد الله على سلامتكم ، ثم أخرج اللاولبى سيفه وقطع به رأس ساجر الأرمنى ، وأمر الملك أن يهدم الدكان ويلقى ساجر الأرمنى على الأرض ليراه كل غاد ورائح ليكون عبرة للناس ، وليدفع عن الملك ما تقول عليه المتقولون من أنه أطلق « السماوى » فى المدينة ليأخذ أولاد الناس ، فهدم الدكان فى الحال ، ورجع الملك إلى القلعة ورجع بيبرس ومن معه إلى داره وأخذ معه حسناً الذى جعله « خازندار » .

طلعت الشمس على الناس وهم مجموعون يرون الدكان المهدوم وذلك

الملعون القتيل الذى أخذ أولاد الناس ، وشاع فى المدينة هذا النبأ ورجع الغلمان إلى آبائهم ، فعرفوا الحقيقة ، ودعوا للملك بدوام العز والهناءة ومر أيبك على حارة الروم وهو ذاهب إلى الديوان ، فوجد القتيل ملقى على حجارة دكانه المهدوم ، فسأل عن ذلك ، فحكى له الناس القصة من أولها إلى آخرها ، وكان القاضى قد سمع وهو فى بيته همساً ، فأرسل غلامه منصوراً ليأتيه بالخبر ، فجاءه وقص عليه الحكاية فحزن حزناً أليما ولبس ثيابه وذهب إلى الديوان ، وهناك لقى الوزير أيبك فوصاه ألا يتكلم فى هذه الحادثة أبداً . ووعده أن يأتيه فى داره بعد انتهاء جلسة الديوان .

١٣

ذهب القاضى فى آخر النهار إلى أيبك فى داره ، وكان فى انتظاره فقال : السلام عليك يا أيبك ، فقال : وعلى المؤمنين السلام ، أنت منبع غم وهم فى كل نوبة ، وضيعت أموالى ، وجعلتها إلى بيبرس من دونى على غير فائدة ، وما نراه فى كل نوبة إلا ارتفع وعز ، وزاد ثباتاً وقوة ، وزدنا نحن خسارة وضعفاً وخيبة ، ولا بد من ضربك حتى تموت ، أو تدبر مكيدة يكون فيها موت بيبرس والانفضاض منه ، فقال القاضى : دبرتها وستكون القاضية ، تعال معى إلى الحديقة ، ثم جلس على عجلة الساقية ، وأمره أن يديرها ، وأخرج من جيبه قرطاساً وقلماً ومحبرة ، وكتب كتاباً على لسان الملك الصالح زوراً وبهتاناً ، وهو جالس على العجلة الدائرة ، ثم صنع خاتماً للملك من الشمع وختم به هذا الكتاب . ثم طوى الكتاب وقال لأيبك ، هات لى مملوكاً من مماليكك تكون فى غنى عنه ، لأنه سيقتل ولا يرجع إلينا ، وسأرسله إلى خضر البحيرى فى الجيزة ، فقام وأحضر له مملوكاً يقال له السراج ، فقال له القاضى : خذ هذا الكتاب واذهب إلى الجيزة ، واسأل هناك عن شيخ العرب خضر البحيرى فإذا لقيته فقبل يده وأعطه هذا الكتاب وقل له إنه من الملك الصالح ، وأنت حر بعد ذلك ، ولست فى حاجة إلى خدمة الوزير أيبك ، لأن

ما تناله من المال يغنيك عن خدمة أى إنسان . وأخذ السراج الكتاب ومضى وهو لا يدرى ما خبأه له القدر حتى وصل إلى الجيزة ، وسأل عن شيخ العرب خضر البحيرى فأوصلوه إليه ، وقبل يده ، فصاح فيه قائلا : من أين أنت ؟ فقال : من عند السلطان ، فقال : أنت من عند الملك الصالح ، ولأى شىء أتيت ؟ فقال : معى كتاب منه إليك ، وناوله إياه .

وفض خضر البحيرى الكتاب فوجده بخط الملك ، وكان يعرفه ، لأن الملك كانت يده ترتعش إذا كتب ، ولهذا كتبه القاضى ، وهو جالس على عجلة الساقية ، ووجده قد كتب فيه : من أمير المؤمنين الملك الصالح إلى شيخ العرب الأمير خضر البحيرى ، إذا جاءك كتابى هذا وقرأته ، فقم من فورك ومعك جندك وأتباعك ، واهجم بهم ليلا على الأمير شعبان الكردى كاشف الجيزة ، واقتله فى داره ، وخذ ما تحت يده من متاع وخيل ، وارجع إلى دارك ، فإذا طلب أهل الإقليم كاشفاً غيره أرسلت إليك مملوكاً من مماليكى ، أريد التخلص منه بقتله ، فإذا وصل إلى الجيزة وأقام فى دار « الكشوفية » فاذهب إليه واقطع رأسه ، وانهب خيله ومتاعه واقتل جميع من معه من الرجال والخدم ، ولك بعد ذلك منى كشوفية الجيزة من غير مال ، ثم احفظ كتابى هذا عندك ليكون حجة لك علينا ، واقتل حامله ، حتى لا يعلم بهذا الأمر أحد ، فلما قرأ الكتاب خضر البحيرى ، أسرع وقطع رأس الغلام ، وواراه التراب هو وجواده وسلاحه وملابسه ، وأخذ فى جمع الأعوان والرجال .

كان الأمير شعبان الكردى ابن عم الملك من أولياء الله الصالحين ، ومن أهل الكشف ، فعرف أن هذه الليلة آخر أجله ، وأنه ميت لا محالة فدعا بعبيده ومماليكه وأعتقهم ، وأعطاهم نصف ماله ، ودعا بزوجته وكان لها منه غلام عمره ثلاثة أشهر ، فأعطاها ما بقى من ماله ، وسيرها وابنها إلى الملك الصالح بمصر ، وأعطاها كتاباً إليه ، ووصاها ألا تظهر هذا الكتاب إلا بعد ثلاثة أيام من وصولها ، ثم أمر المنادى أن يدعو إليه فى ديوانه أهل الجيزة خاصتهم وعامتهم ، فلما اجتمعوا عنده قال : من كان لى عنده شىء فقد سامحته فيه ، ومن كان له منكم عندى شىء أو حق فليطلبه منى الآن ، ولا يطلبه منى يوم القيامة ، وهكذا سامح الناس وأعطى كل ذى حق حقه ، ثم قال : إنى مسافر الليلة السفر الأبدى الذى لا مفر منه ، فعجب الناس من هذه الحال وانصرفوا .

ولما جاء وقت العشاء أقام الصلاة ثم اتجه إلى قبلة الدعاء وهى سماء الدنيا ، ودعا ربه أن يهون عليه ساعة خروج روحه ، ثم استلقى على فراشه ونطق بالشهادتين وخرجت روحه على أهون حال ، ومضى إلى رحمة الله ورضوانه .

وجاء بعد ذلك خضر البحيرى وجنوده وأعوانه فدخل البيت ورآه نائماً ، فجرد سيفه وقطع به رأسه ، ورجع إلى داره ، وفى الصباح ذاع نبأ قتل شعبان الكردى ، فأجمع الناس على أن يحملوه فى تابوت ويذهبوا به إلى الملك الصالح ، ليخبروه أن خضراً البحيرى شيخ العرب هجم على

دار شعبان الكردى وقتله ثم مضى لسبيله . ونهضوا فى الحال ونفذوا ما أجمعوا عليه .

جلس الملك فى ديوانه ثم قال : يا شاهين ، ورب العالمين ما كتبت كتاباً ، ولا أصدرت أمراً ، ولكن أقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وإن الموت محتوم ، وسيقتص الله من الظالم للمظلوم ، أسأل الله الكريم أن يجزى قاتل النفس بغير حق شر الجزاء فيقطع لحمه ، ويحرق جثته بروث الكلاب ، ولا يخرج من الدنيا إلا كافراً، يا شاهين ، اعتديت على أضعف الطير ، وغداً حسابك وعقابك . وما كاد الملك ينتهى من قوله هذا ، والوزير فى عجب مما يقول حتى دخل عليهم جماعة يحملون تابوتاً وفيه شعبان الكردى ، فقال الملك : يا علام الغيوب ، ليست هنا مقابر . فقالوا : يا أمير المؤمنين ، دام عمرك ، مات شعبان الكردى كاشف الجيزة، فقال : ولِمَ جئتم به ولَمْ تدفنوه؟ فقالوا: إنه مات قتيلا، وما قتله إلا شيخ العرب خضر البحيرى ، وهو رجل جبار لا يعرف الله ولا رسوله ، فقال : ولأى شىء قتله ؟ فقالوا : لا لشىء ، ولكنه انقض عليه هو ورجاله ليلا فقتله ورجع إلى داره ، فقال الملك: حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم إنى جعلت ابن عمى هذا عندك ذخراً، ثم أمر أن يسيروا به معه إلى محله بسوق السلاح ، وكانت زوجته قد سبقته ثم جهزوه وشيعوه ومشى الملك فى جنازته ودفنوه وأقاموا له المأتم الذى يليق به .

وجلس الملك فى ديوانه وقال : يا شاهين ، نريد كاشفاً للجيزة بدلا

من المرحوم شعبان ، فقال : إنها فى حاجة إلى كاشف قوى له دربة فى الحروب ، حتى لا يكون مصيره مصير شعبان الكردى ، ونحن نبحث عمن يصلح لذلك ، فقال القاضى : عندى كلمة طيبة ، فقال الملك : ما عندك إلا كل شر وسوء ، فقل ما أردت ، فقال القاضى : لا يصلح لتطهير الجيزة من الفساد ، وإصلاح شأن العباد ، وكبت الأعداء وتأديبهم إلا ابنك بيبرس ، فإنه غلام مبارك ، لا يضع يده فى شىء إلا بورك له فيه ، فقال الملك للقاضى : صدقت وأحسنت ، ولكن « الكشوفية » فى حاجة إلى سعة فى المال ، وبيبرس فقير ، فقال القاضى : أساعده أنا من مالى بأربعين كيساً ، وأربعين جواداً ، وأربعين مملوكاً ، وعليك يا وزير أيبك مثلها ، فأمرهما أن يحضرا المال ، وكلف شاهيناً أن يدعو إليه الأمير بيبرس ، وحضرت الأموال ، وجاء بيبرس وقال : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال : أهلا وسهلا ، لك من القاضى والوزير أيبك ثمانون كيساً وثمانون جواداً ، وثمانون مملوكاً ، لتكون كاشفاً بالجيزة بدلاً من المرحوم شعبان ، فخذها ، ولك أن تقبل « الكشوفية » أو لا تقبلها ، فقال القاضى : أيأخذ الأموال ولا يذهب إلى الجيزة ؟ إن أمر الملك مطاع ، فقال بيبرس : أخذت المال ، وقبلت أن أذهب إلى الجيزة ، فقال الملك : يا شاهين : ألبسه رداء « الكشوفية » لأفرح به ، فلما لبسه قال له : أنت كاشف الجيزة فعليك بتقوى الله وطاعته . وتطهير الجيزة من الأشرار ، ومن العرب الذين قتلوا شعبان ، ولما خرج بيبرس ورآه

عثمان قد لبس رداء « الكشوفية » قال له : إن لم تجعلنى الكاشف الصغير فنى عليك السلام ، فابتسم بيبرس وخلع عليه رداءه وقال : أنت يا عثمان الكاشف الصغير ، وليس لى إلا رضاك ، فقال : حينئذ سأسبقك إلى الجيزة لأمهد لك كل شيء لتأتى أنت على رسلك، وأنت مطمئن البال .

أما بيبرس فإنه رجع إلى داره وجلس ومن حوله صقر الاولبى وصقر الهجان وحسن على « الخازندار » ، وأما عثمان فإنه جمع الثمانين وكبيرهم عقيرب ولبس الرداء وسار بهم ، فلما وصل إلى الجيزة جمع رجاله كلهم وقال لهم : سندخل المدينة ، وسيستقبلنا مشايخها ، فإذا جاءنى شيخ وقلت « طرطش » فأمسكوه ، فإن قلت « وارميش » فألقوه على الأرض واضربوه ، حتى أقول لكم « شفا » فأمسكوا عنه الضرب ، واحبسوه ، فقالوا : سمعاً وطاعة .

دخل عثمان الجيزة ، وجلس فى دار « الكشوفية » والسواس بين يديه ، وذاع فى المدينة نبأ قدوم الحاكم الجديد ، فاجتمع المشايخ وذهبوا إليه يهنئونه ويسلمون عليه ، فقال عثمان « طرطش » فأمسكهم رجاله ، ثم قال : « وارميش » فانهالوا عليهم ضرباً ، ثم قال : « شفا » فسكتوا عنهم وحبسوهم ، وكانوا كلما سألوا عثمان عن سبب هذا الضرب ، أغفل أمرهم ولم يجب أحداً منهم ، وباتوا فى سجنهم وهم فى حيرة واضطراب لا يعرفون ما يقع عليهم ، كما لا يعرفون سبباً لهذا الضرب والحبس .

وكان فى الجيزة رجل يقال له عثمان الهيضمى ، وكان قد طرده عثمان ابن الحبلة من مصر ، وأنذره هلاكاً إن رآه بمصر ، فلاذ بالجيزة وأقام فيها ، فلما قدم عثمان بن الحبلة ، وحبس المشايخ بعد ضربهم ، أخفى منه نفسه ، وذهب إلى المحبوسين سراً ، وقال لهم : ما جزائى عندكم إن جعلت الكاشف الجديد يرحل الليلة من الجيزة ؟ فقالوا: نعطيك عشر « ويبات » من القمح ، فذهب عثمان الهيضمى إلى عثمان بن الحبلة ، فسلم عليه وقبل يديه فسأله ابن الحبلة : من جاء بك إلى الجيزة ؟ فقال : سئمت أولاد هيضم وتركتهم ، وقد أحببت أولاد الشيخ وأنا الآن منهم ، فقال ابن الحبلة : مرحباً بك .

فقال : عندى سرّ أحب أن أطلعك عليه ، بل أراه من الواجب علىّ لأولاد الشيخ ، وذلك أن خضراً البحيرى جمع رجاله من العرب ، ليهجم عليك فى دار « الكشوفية » ويفعل بك ما فعله بشعبان الكردى ، وقد رأيت من الواجب على أن أخبرك ، والرأى لك . فنادى على الفور عقيرباً وأمره أن يجمع الرجال ويغادر معه الجيزة إلى أرض مصر ، ونزحوا منها لساعتهم ، فلقيه بيبرس ومن معه من الرجال والمماليك فى طريقه ، وكان بيبرس يخشى على عثمان من كبير الفلاحين والعرب . فسأله عن شأنه وسبب عودته ، فقال : ذهبت إلى الجيزة وضربت المشايخ وحبستهم ، وكانت خطة موفقة ناجحة ، ولكن الهيضمى أفسدها ، إذ جاءنى وقال : إن العرب الذين قتلوا شعبان سيأتون الليلة ويقتلونك ، فخفت

منهم وهربت برجالى ، فقال بيبرس : لا خوف عليك يا عثمان . فارجع معى برجالك ، فلما وصل إلى دار « الكشوفية » جلس فيها وعن يمينه وشماله الصقران اللولبى والهجان ، والخدم بين يديه وتحت أمره ، ولبث طويلا عسى أن يأتيه أحد من المشايخ فما رأى أحداً منهم ، فقال : أين المشايخ يا عثمان ؟ فقال : وهل كانوا أقربائى حتى تسألنى عنهم، فسأل خفراء الدار عنهم فقالوا : إنهم فى سجنهم محبوسون ، وذلك ما عاقهم عن الحضور إليك ، فإن عثمان أحضرهم وضربهم ثم حبسهم ، وركب وارتحل، وهم لا يزالون فى سجنهم حيارى مضطربين، لا يعرفون ذنباً لهم أو سبباً فى إيذائهم بالضرب والحبس ، فقال : ولم فعلت ذلك يا عثمان ؟ فقال رأيت الكاشف يفعل ذلك فاقتديت به وفعلت فعله ، وقد حبستهم وستخلى أنت سبيلهم ، ومعنى هذا أنى أقسو وأنت تلين ، أنا أعاقب وأنت تصفح ، وقد أصبح الأمر أمرك ، فافعل ما تشاء ، فأمر بيبرس بإحضار المشايخ من السجن إليه ، فلما حضروا قالوا : لقد آذانا عثمان بالضرب الموجع والحبس الأليم ، وما نعلم لنا ذنباً اقترفناه ، فقال : عثمان بيده الحق ، وأنتم مخطئون ومقصرون ولكنكم لا تشعرون ، كيف يهجم بدوى على شعبان فيقتله وهو بينكم وأنتم جامدون لا تتحركون ؟ ! ! أليس موقفكم السلبى الجبان يطمعه فيكم ويجعله يغير عليكم متى شاء ؟ ! ألا تحسون أن فى هذا عاراً تعافه الرجولة وتأباه النفوس الحرة الكريمة ؟ ! فما فعل بكم عثمان ما فعل إلا ليوقظ الهمم فى نفوسكم ويخلق منكم رجالاً

يأبون الضيم والمذلة . فقالوا : هذا البدوى رجل جبار لا يقدر أحد أن يقف فى طريقه ، ولو تصدينا له لأهلكنا وما أبقى منا أحداً . فقال بيبرس : كان ما كان ، وأود منكم أن تسمو فيكم الرجولة ، وأن تحيا فى نفوسكم الكرامة والنخوة ، ثم جعل إقليم الجيزة قسمين وجعل على كل قسم ناظراً منهم ، وجعل فى كل قسم مأمورين اثنين ، وفى كل مأمورية « قائمقام » ومن تحت أيديهم المشايخ ، ولكل شيخ معاون وأربعة مساعدين ، وأمرهم أن يحكموا بين الناس ويعاملوهم بالعدل ، وإذا كان لأحد من الناس شكاية فليرفعها إلى « القائمقام » فإن أنصفه فذاك وإلا رفعها إلى المأمور ، ثم إلى الناظر ، فإن لم ينصفه أحد منهم رفعها إلىّ وأنا آخذ له الحق وأحكم بما جاء به الإسلام . ويستوى عندى فى ذلك الكبير والصغير والقوى والضعيف . والغنى والفقير ، وأحب منكم أن تساعدونى على خضر البحيرى الذى قتل الكاشف السابق ، وسجل عليكم عاراً لا يمحى ، وأريد أن أبنى حماماً وقصراً على شاطئ النهر ، وإن شاء الله يكون ذلك قريباً . فقالوا وفقك الله وقواك ، ثم انصرفوا إلى دورهم .

وفى اليوم الثانى من قدوم بيبرس جاءه طباخه فقال : إنى رجل تغربت معك ، وأخلصت لك فى خدمتك ، فإن أنت آذيتنى ، تعلقت برقبتك يوم القيامة ، فقال بيبرس : وما بك يا هذا ؟ فقال : سرقت أوعية النحاس من المطبخ فى هذه الليلة ، فقال : ومن سرقها ؟ فقال : لا أدرى . فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأمر أن يحضروا له من

مصر أوعية أخرى ، وقال له: اذهب أنت فما عليك من بأس ، وما كاد يفرغ من الطباخ حتّى جاءه قاضى الجيزة ، فقال : السلام عليكم ، فرد عليه السلام ، وأفسح له فى مكانه ، وأجلسه بجانبه ، وكان القاضى يبكى بكاء مرًّا ، فسأله عن بكائه هذا فقال : جئتك مستجيراً ، ولا سند لى فى الدنيا سواك ، فخذ بيدى وارحمنى يرحمك الله وينصرك على أعدائك ، فقال : وما حاجتك يا سيدى ؟ فقال : لم أعقب من الذرية إلا بنتاً واحدة، هى قرة عينى فى دنياى ، وقد ذهبت إلى النهر تملأ جرتها ، فأمسكها رجل يقال له منصور أبو سيفين ، وأخذها إلى بيته غصباً ، وهو رجل فاجر فاسق كافر بالله ورسوله ، لا عمل له إلا قطع السبيل ، وسبى البنات ، وهو أخو مقلد الذى قتلته فى مدينة مصر ، وإذا كان مقلد فى شره وفسقه جزءاً فأخوه هذا مائة جزء ، وله عصبة تلازمه من الفساق والفجار ، وعدتهم خمسة وأربعون عبداً ، وهم يخطفون البنات ويأتون فى قصره المنكر ، ولا يبقى عنده من البنات إلا من أعجبته ، فإن لم تعجبه أخلى سبيلها بعد أن يكون قد اعتدى على كرامتها وأفسدها هو وعصبته ، فغضب بيبرس وقال : وأين مكانه يا سيدى ؟ فقال : عند الأهرام فى دار محصنة بالأحجار ، فنهض بيبرس لساعته ، وركب هو وجميع من جاءوا معه وكانوا ثمانمائة ، وجدوا فى المسير حتى قربوا من مكان هذا الفاجر الظالم ، فقال لمن معه ، تكونون من حول الدار ، وسأدخلها على أن تنقضوا عليها بجموعكم وتدخلوها إذا سمعتمونى أقول :

الله أكبر ، فقالوا : سمعاً وطاعة .

دخل بيبرس الدار ومعه بعض المماليك وصعد فى سلمها واثقاً بنفسه ثابتاً قلبه ، حتى دخل على منصور فى مجلسه . فقال : السلام عليك يا أبى . فقال : « العوافى عليك » وما تحرك من مكانه ، فما سأل عنه الأمير بيبرس وجلس إلى جانبه ، فالتفت إليه منصور التفاتة بطيئة ساخرة، وقال : من تكون يا رجل ؟ فقال : أنا كاشف الجيزة الجديد، ولكن يا أبى وجدت الفلاحين لا مزاج لهم يرضينى ، فجئتك لأتخذك صاحباً لى وصديقاً . فقال منصور : اعلم أن الكاشف فى هذا الإقليم لا بقاء له فيه إلا إذا كان تحت أمرى ورهين إشارتى ، فإن لم تكن معى كما كانوا فانتظر منى شرًّا أو هلاكاً . فأظهر بيبرس من الخوف والفزع ما انطلى على منصور وقال : أنا يا سيدى فى قبضة يمينك وتحت أمرك ونهيك . فأقبل منصور عليه وقال : يبدو لى من عينيك أنك تحب البنات وقد وقع فى يدى الآن بنت جميلة . يقول الخدم إنها بنت قاضى الجيزة فقم معى لنخلو بها ونستمتع بجمالها ، ويظهر لى من مجيئك فى هذا الوقت أن لك حظًّا فى البنات الفاتنات ، فهى بنت جميلة فاتنة . وهى معنا حتى يأتينا الخدم بأجمل منها ، فقال بيبرس : كم عمرك يا أبى ؟ فقال : أربع ومائة سنة ، فقال : ألم يَأْنِ لك بعد هذا العمر الطويل أن تتوب إلى الله وتتقيه ولو عشر سنوات ، لتغسل نفسك وتطهرها من أدران المعاصى ؟ ! ألم يَأْنِ لك أن ترحم هذا الشيب الذى نبت فى

الفسق والضلال ؟ ! فقال منصور أبو سيفين : أظنك أتيتنى طامعاً فى توبتى أيها الأحمق الجاهل ، وجرد سيفه وضرب به بيبرس ضربة قوية قاتلة ، وكان بيبرس قد أخذ حذره وأعد حيطة فنزل السيف على «اللات الدمشقى» فكسره نصفين ثم ضربه باللات ضربة ألقته على الأرض تردد أنفاسه فى صدره ، ولكنه لايقدر على شىء ، وصاح بيبرس قائلاً : الله أكبر ، فانهال رجاله على البيت كأنهم السيل ، وأمسكوا العبيد وكتفوهم ، وكتفوا رئيسهم منصوراً ، وجلس بيبرس مكان أبى سيفين ، وأمر بإحضار عبيده وخدمه بين يديه ، فلما حضروا أمر أن تضرب رقابهم ، فقالوا : لا تفعل أيها الأمير ، فقد تبنا إلى الله على يديك وأصبحنا من خدمك ورجالك ، فقال خذهم يا عثمان وضمهم إلى رجالنا ، ثم أمرهم أن يحضروا إليه بنت القاضى ، فأحضروها وأعطاها خمسين ديناراً وكلّف اثنين من أتباعه أن يصحبوها إلى أبيها ، فلما وصلت إليه قبلها وفرح بها وسألها عن كرامتها فقالت : لم يمسسها أحد بسوء ، فجعل يثنى على الأمير بيبرس ويدعو له بكل خير ، ثم التفت بيبرس إلى منصور وقال : دعوتك إلى الله فأبيت واستكبرت ، ثم قطع رأسه وصلبه على باب داره ، وملك بيبرس جميع ما فيها ، وأمر ببنائها قصراً عظيماً ، وبناء حمام فيها ، وأقبل أهل الجيزة من كل صوب يساعدونه فى البناء ، وتركهم فى أشغال البناء والتعمير ورجع إلى دار حكمه فى الجيزة .

وفى الصباح دخل عثمان على بيبرس وقال له : لقد سرقت خيلك بما

عليها ، فقال : بيبرس : من الذى سرقها ؟ ومتى سرقت ؟ فى الليل أو فى النهار ؟ فقال عثمان : اسمع قصتها :

كنت جالساً فى الإصطبل فى منتصف الليل ، فدخله جماعة كلهم عرايا ، وما عرفت واحداً منهم ولا رأيته من قبل ، فلبثت مكانى لا أتحرك حتى أرى ماذا هم فاعلون ، ثم نظرت إليهم فوجدت جماعة منهم قد وقفوا عند الباب ، واصطف باقيهم متلاصقين ، ثم فكوا الخيل وفروا بها وأنا أنظر إليهم وقد ملأ الخوف منهم قلبى فلم أستطع كلاماً ولا حركة ، وهذه قصة ضياع الخيل ، فقال بيبرس : ولِمَ لَمْ تستغث ؟ فقال خفت أن يقتلونى ، فقال : لو أتيتنى مبكراً لكان من الجائز أن ندركهم ولكن خيبتك كانت سبباً فى ضياع الخيل . وظهر الغضب على وجهه وأمسك « اللات » الدمشقى وطلب عثمان ، ففر من وجهه وجرى ، فجرى بيبرس من الغضب وراءه ، وما زالا يجريان حتى طلع عليهما من كبد البر رجل أعرابى ، وكان مقبلا من ناحية الروابى ، فلما رآه عثمان قال لبيبرس : هذا الذى يعرف من سرق الخيل فى الليلة الماضية ، فقال بيبرس للبدوى : يا شيخ العرب ، من أين ؟ وإلى أين ؟ فقال البدوى : لعلك بيبرس الذى سرقت خيله فى الليلة الماضية ؟ فقال : نعم ، أنا هو ، فقال : خفف من غضبك . وهدئ من ثورتك وأنا أدلك على خيلك ، ولكن بعد أن تسمع الحكاية ، فقال بيبرس : وما حكايتك يا شيخ ؟ فقال :

يا بيبرس ، أنا شيخ من مشايخ العرب مثل خضر البحيرى ، واسمى

على الحبيرى ، وأنا رجل عارف بالله ، أقيم الصلاة وأصوم رمضان ، وأخشى الله وأتقيه ، ولما شاع الخبر أنك أخذت الجيزة جاءنى خضر البحيرى ، وقال: تعال معى لتكون عوناً لى على قتل بيبرس ، كاشف الجيزة ، فقلت له : وهل أساء إليك حتى تقتله ؟ فقال : ما قدم لى إساءة ، ولكنى إن قتلته كانت لنا ولاية الجيزة من دون غيرنا ، فقلت له : لا يحملك الطمع على ارتكاب خطيئة من أفظع الخطايا وأبشعها ، وأنت شيخ عرب تحكم فيهم وأنا شيخ عرب أحكم فيهم ، وهذا الذى تريد قتله لم يعتد علينا وما آذانا ، وليس لنا عنده شىء فارجع عن غيك هذا واترك سبيله ، فقال : لا بد من قتلته ، فقلت : ولا يمكننى ذلك ، فقال : أنا كفء له وتركنى وانصرف ، ولكنه جعل يدبر ويستعد ، فرأيت أنه حق علىّ أن آتيك وأخبرك بهذه القصة من أولها إلى آخرها ، وأعلمك أن خضراً البحيرى هو الذى سرق الخيل ، فجئت إليك فوجدتك تجرى خلف عثمان فقصصت عليك ما سمعت . فقال بيبرس : إذا نصرنى ربى على خضر البحيرى أعطيتك « صنجقية التزام » وأثبتها فى « الرزنامة » لذريتك من بعدك فقال على الحبيرى : إنه منك قريب ، إن أردت أن تدركه ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إنه جمع قبائل العرب الذين بعدت عن نجعه ديارهم ، ومن هنا إلى نجعه مسيرة ساعة ، فإذا أردت ذلك ركبت معك إليه فى جماعة من عرب قبيلتى ، وهناك أسلم عليه وأقول له : رضيت أن أعينك على قتل بيبرس الكاشف



بيبرس راكباً فرسه يعدو فى الصحراء وراء عثمان بن الحبلة

وأكون معك ، ثم قال : وأنت يا بيبرس وجموعك تلبسون ملابس العرب حتى لا يخامره شك فى قدومى إليه ، وهات معك جميع أتباعك وأعوانك ، وهناك يحيط أتباعى وأتباعك بخضر ومن معه من العرب ، ويملكونهم بحصارهم من كل ناحية . ونلتقى به ، وحينئذ يفعل الله ما يشاء ويختار . فاستراح بيبرس إلى هذا الرأى ، وأخذ معه علياً الحبيرى ورجع إلى داره ، وهناك أكلوا وشربوا وتعاهدوا على الإخاء والوفاء ، ثم أمر بيبرس أن يلبس رجاله وجميع أتباعه ملابس العرب فلبسوا وجعلوا لهم رايات يعرف بعضهم بعضاً بها ، ثم ساروا . وفى أثناء الطريق انتظروا قليلا حتى ذهب على الحبيرى إلى داره وجمع أتباعه ورجع بهم إلى بيبرس ، وكانت داره على مقربة من الطريق ، ثم أخذوا يسيرون وكان بيبرس وعلى الحبيرى قد أعلم كل منهما أتباعه بما يفعلون .

ولما رآه خضر البحيرى مقبلا بجموعه إليه ، خف لاستقباله فرحاً ، وقال : أهلا وسهلا بعلى الحبيرى ، لعلك راجعت نفسك ورضيت بما عرضته عليك ، فقال : عرضت الأمر على ذوى الرأى من قومى وأتباعى فاستحسنوا رأيك ، وجئتك بهم راضياً أن أكون معك ، وأن نتعاون على قتل الكاشف بيبرس .

وكان خضر البحيرى قد جمع كثيراً من العرب ليسير بهم فى هذه الليلة إلى الجيزة ويقتلوا بيبرس ، وكان قد أقام فى مكانه هذا بعضاً من الوقت ، وأحضر الراقصات ليلهو هو وأتباعه برقصهن إلى أن يمضى

من الليل أوله ، فاستقبله وعرّفه الحبيرى ببيبرس وقال له : هذا شيخ العرب محمود جاء معى ليساعدنى ويساعدك،وأحاط أتباع بيبرس والحبيرى بأتباع خضر البحيرى وجلسوا جميعهم يفرحون ويطربون بما يشاهدون من رقص الراقصات. ولما انتهت الراقصة من نوبة رقصها حملت « الرق » فى يدها وجعلت تطوف بالعرب لتأخذ « النقوط » ومن خلفها تابعها الذى يطبل لرقصها واسمه صبح ، فوقفت أمام خضر البحيرى فوضع فى « الرق » جديداً ، وصاحت الراقصة : « شوبش » على حياة شيخ العرب خضر البحيرى ، ثم انتقلت إلى آخر من أتباعه فوضع فى « الرق » « كوز ذرة » ، وانتقلت إلى آخر فوضع فيه جزءاً من الشعير ، واستمرت على ذلك مادحة كل من أعطاها حتى ملأت « الرق » وحجر صبح تابعها ذرة وشعيراً ، ولم تحصل من النقود إلا على الجديد الذى وضعه فى « رقها » خضر البحيرى .

فلما جاءت إلى بيبرس أعجبها شكله ، وخيل إليها أنه طير غريب ، وطمعت فى أن تأخذ منه كثيراً من المال ، فلبثت أمامه طويلا وهى ترقص رقصاً أبدع وأحلى ، وبعد ذلك مدت يدها إليه « بالرق » وفيه الشعير فقال لها : يا حرة العرب ، ليس معى من هذا الصنف لأعطيك منه ، وأرى أن جميع ما حصلت عليه لا يجاوز غداء حمار ، فقالت : يا سيدى كلٌ يعطى على قدره ، فأمسك الرق، وألقى ما فيه على الأرض ، ووضع يده فى جيبه فأخرج كيساً به عشرون ديناراً وأفرغه فى « الرق » ، وقال

لها : اجمعى من بقية أتباعى ، فقالت سمعاً وطاعة ، فقال عثمان : قولى « شوبش » فقالت : « شوبش » قل يا صبح « شوبش » ، ثم سألت : على حياة من ؟ فقال عثمان : قولى على حياة شيخ العرب « ضابط ابن رابط »، فقالت : « شوبش » على حياة «ضابط بن رابط» وكررتها وكررها صبح تابعها .

ثم انتقلت إلى صقر اللولبى فأفرغ لها كيساً وقال عثمان : قولى « شوبش » على حياة « رابض بن قابض » ، فقالت وكررت ، وانتقلت إلى صقر الهجان فأفرغ لها كيساً أيضاً ، وقال عثمان قولى « شوبش » على حياة « لاطش بن قاطش » فقالت وكررت ، وكان صبح يردد قولها فى صياح عريض مرتفع ، فعجب خضر البحيرى ، وقال : من هؤلاء العرب الذين لم أسمع بأسمائهم ؟ ولبث فى حيرة من أمره ودهشة، ثم استمرت الجارية فى رقصها ، ولزمت المكان الذى فيه بيبرس ، ثم أشار إليها الأمير بيبرس أن تجلس أمامه ففهمت إشارته وجلستِ والعرب لا يفهمون شيئاً ، ويعتقدون أنها جلست إليه كما تجلس إلى غيره حسب عادتها فى ذلك ، فسألته قائلة : يا سيدى ، من أين أنت؟ فقال : ولم تسألينى فقالت : لأن عطيتك ليست عطية عرب ، ولكن لباسك لباس عرب ، فقال لها عثمان : يا راقصة ، هذا كاشف الجيزة ، فقالت : أأنت يا سيدى الأمير بيبرس ؟ فقال : نعم ، فقالت : هذه الجموع التى تراها متفقة على قتلك ، وأنت يا سيدى أجدر بالحياة من هؤلاء جميعهم ،

فقال : إنى بعون الله وفضله كفء لهؤلاء جميعهم ، ولو كانوا أضعاف هذا العدد ، فقالت : يا سيدى : إن الكثرة تغلب الشجاعة وأنت وحدك وأرى أن تفوز بالهرب وتنجو بنفسك من شر هؤلاء الظالمين ، فتبسّم بيبرس ضاحكاً من قولها وقال : جزاك الله عنى كل خير ، وكيف أهرب من هؤلاء العرب وأنا كل ما أبتغيه فى حياتى أن أطهر الأرض منهم ومن شرورهم وآثامهم ، وستريهم بعد قليل مكتفين مقرنين فى الأصفاد ، ولكنك إن أردت أن أقهرهم وأظهر عليهم فساعدينى ، فقالت : ياسيدى أنا طوع أمرك ، وكيف أساعدك ؟ فقال : عليك أن تفتحى باب الشر ، لترى ما أفعله بهم، وذلك أن تجمعى عشر بنات من أتباعك الراقصات وأن تكونى أنت على رأس خمس منهن ، وأمك على رأس خمس ، وأن تجعلى بناتك أنت من الغز ، وبنات أمك من العرب ، ثم افتعلى بين العرب والغز خلافاً ينتهى إلى عراك وقتال وضرب ، فإذا ما نشبت المعركة بينى وبينهم فانتحى أنت والراقصات وأمك ناحية بعيدة عن الخطر ، فقالت : سمعاً وطاعة ، ثم ذهبت إلى أمها وأفضت إليها بكل شىء فقالت : لا بد من تنفيذ ما أمر به الأمير بيبرس على أحسن حال ، وما أسرع ما تكونت طائفتان من الراقصات ، طائفة العرب ، وطائفة الغز ، وبدأ الخلاف بالكلام والشتم ثم بالضرب والقتال ، فنادى خضر البحيرى فى أتباعه أن يضربوا الراقصات فهربت الراقصة وألقت بنفسها فى حجر الأمير بيبرس ، فتبعها خضر البحيرى ، وقال : هاتها ، لا رحم الله أباها ، فأعجله بيبرس

بضربة من « اللت الدمشقى » فوقع على الأرض ، وهب جماعة بيبرس وخاضوا المعركة بسيوفهم ، فقتلوا من أتباع خضر مائتين وأربعين ، وأسروا خضراً ومعه سبعون ، وهرب الباقون ، وكان سرور الراقصات بذلك النصر عظيماً ، فأمر بيبرس عثمان وحرحشاً أن يصحبا الراقصات إلى ديارهن ، ولما رجع عثمان ورأى الأسرى قال : لماذا تركت هؤلاء دون أن تقتلهم ، وأمر أتباعه فقطعوا رؤوسهم ، وأحضر بيبرس خضراً البحيرى أمامه وسأله : من أمرك بسرقة خيلى ؟ فقال : سيدك ، فقال : ومن سيدى ؟ فقال : الملك الصالح ، فقال : وإذا كان قد أمرك بسرقة خيلى ، فمن الذى أمرك بقتل الكاشف السابق ؟ فقال : الملك الصالح هو الذى أمرنى بسرقة الخيل وقتل شعبان الكردى وقتلك أنت ونهب أموالك . فقال : وهل ضاقت على الملك الدنيا حتى يبعث إليك أنت لتقتل ابن عمه شعبان وتقتلنى ؟ فقال : ها هو ذا كتاب الملك إلىّ ، وأخرج الكتاب من عمامته وناوله إلى الأمير بيبرس ، فلما قرأه قال : وهل قطعت رأس من حمل إليك هذا الكتاب ؟ فقال : نعم ، وبذلك أمرنى الملك ، فقال بيبرس : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكيف كان ذلك يا عثمان ؟ فقال : ما هذه كتابة الملك ، وما هى إلا كتابة القاضى ، وسأثبت لك قولى وصدق رأيى ، ولكن بعد أن يقتل هذا الفاجر خضر البحيرى ، فألقوه على الأرض وذبحوه وسلخوا جلده وحشوه تبناً وجعلوا له عيوناً من زجاج فبدأ كأنه خضر البحيرى ، ثم انقضوا على نجعه فنهبوا أموالهم وتركوا نساءهم وأطفالهم ، وكتب بيبرس

ربع « السنجقية » إلى على الحبيرى ،وجمع عثمان رؤوس القتلى فى أكياس ووضعها على حمير وسار بها مبكراً إلى بيت بيبرس بمصر وغرز عصاً فى كل رأس ووقف بباب الصليبة ونادى : كل من حمل كيس ذهب من هنا إلىالقلعة فله دينار ،فاجتمع الناس وأقبلوا إليه وحمل كل واحد عصاه، وفى طرفها رأس قتيل ، وبلغ عددهم مائتين ، كل يحمل رأساً وهم يعتقدون أنهم يحملون أكياساً من ذهب .

ثم سار عثمان قدامهم وهم سائرون من خلفه ، ومن عجيب ما وقع فى هذه الحادثة أن فقيهاً ضاقت الدنيا فى وجهه، فعكف فى بيته لا يخرج منه ، فقالت زوجته : ماذا يفيدك هذا الجلوس فى البيت ، قم إلى سوق المدينة وامش فى مناكبها يرزقك ربك من حيث لا تحتسب . فبينما هو سائر فى الطريق سمع عثمان ينادى : من حمل كيس ذهب من هنا إلى القلعة فله دينار ، فذهب مع الذاهبين وحمل رأساً مع من حملوا ، وسار الناس وهم يحملون الرءوس ويعتقدون أنها أكياس من ذهب ، وفى أثناء الطريق وسوس الشيطان لهذا الفقيه وأغراه أن يهرب بكيس الذهب ويذهب به إلى بيته، ليكون الذهب جميعه ملكاً له ، فتسلل إلى حارة ، وألقى بالرأس فى حجره ، ورمى العصا وجرى مسرعاً إلى منزله ، وطرق الباب ، فقالت زوجته : من بالباب ، فقال : أنا الشيخ عمران ، فلما فتحت له الباب قالت : إنك لم تغب طويلا : فقال : اسكتى فقد فتح الله لنا أبواب الرزق وأصبحنا من الأغنياء ، فقد جئتك بما تقر به

عينك من الأموال . وسندفع منها ما علينا من الديون، ونعيش بها فى رخاء وسعة ، فى بيت أوسع وأحسن من هذا ، فسنترك هذا البيت الضيق الحقير . ونشترى بيتاً آخر عليه سمات الغنى والفخامة ، فقالت : أظنك عثرت على لقيا ثمينة . فقال : أكثر من تلك ، فقالت : وأظنك قتلت يهودياً غنياً وأخذت ماله، فقال : أعظم من ذلك، فقالت : أخبرنى ماذا فعلت ؟ فأخبرها ما فعل ، فقالت : لا تتحدث بهذا أبداً حتى لا يعلم بنا أحد، فإنك إن تحدثت به علم عثمان وجاءك فقتلك وأخذ كيس الذهب منك . ثم قالت له: هات المال الذى جئت به، فمد يده إلى ما فى حجره . فدخلت يده فى فم القتيل،فرفع يده بسرعة وهو خائف مضطرب ،فقالت له : أرنى المال ، فقال : تقدمى أنت وخذيه ففتحت حجره ونظرت إلى ما فيه فرأت عينى القتيل ، فاضطربت وقالت : كيف تأتينا برأس قتيل ليخرج علينا شيطانه ويزعجنا فى مقامنا ، فقال لها: يا أم سمعان ، اكتمى هذا الخبر ، وليتنى عكفت فى المنزل ولم أخرج فى هذا اليوم المشئوم ، وليتنى ذهبت مع عثمان إلى القلعة وأخذت الدينار الذى وعدنى أن يعطينيه . وبينما هو فى حديثه مع زوجته إذا بعثمان قد دخل عليهما فخاف الشيخ وفزع فقال عثمان : لا تخف ، فقد عفوت عنك، ووضع الرأس فى طرف العصا وقال له احملها وسر أمامى . فسار حتى وصل إلى الجماعة الذين يحملون رءوس القتلى . وكان عثمان قد عد الرءوس عند القلعة فوجدها ناقصة فسأل عن الرأس الضائع فقيل له : هرب بها الشيخ عمران ودلوه على بيته فذهب إليه وأحضره .

١٤

جلس الملك فى ديوانه وقال سبحان رب العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، يا شاهين ، أبدان مسلطة على أبدان ، والجزاء عند الله ، والقصاص قريب ، أنا مظلوم ، ولا ذنب لى ، هذا الرجل مغرور وما غره إلا الشيطان ، وعاقبته مشئومة ، وحينئذ دخل عثمان فقال الملك : أهلا وسهلا بعثمان بن الحبلة ، فقال عثمان : لا أهلا ولا سهلا ، يا خسارة ! يا فضيحة ! ماذا جرى بينك وبين سيدى بيبرس حتى كتبت إلى خضر البحيرى هذا الكتاب وأمرته فيه أن يقتل شعبان الكردى وأن يقتل بيبرس وعثمان وحامل الكتاب ، فإذا كنت غضبت على سيدى بيبرس فما ذنب شعبان الكردى ؟ وإذا كنت غضبت عليهما فما الذى جناه حامل الكتاب حتى تأمر بقتله ؟ فقال الملك : وعزة الله القادر ما كتبت هذا أبداً ، فقال عثمان : ها هو ذا كتابك ، وناوله إياه ، فأعطى الملك القاضى هذا الكتاب وقال له : اقرأ لأسمع أنا ويسمع الحاضرون ، فقرأ القاضى الكتاب وإذ هو الكتاب الذى كتبه بخطه فى الحديقة على عجلة الساقية ، فقال الملك بعد أن سمعه ، ورب الكعبة ما كتبت هذا وما علمت به ولكنى أسأل الله العظيم ألا يميت كاتب هذا إلا كافراً وأن يقطع لحمه ، ويحرق جسمه بروث الكلاب ، قل آمين أيها القاضى ، فقال : آمين آمين ،

وأسأل الله العظيم أن يميت من حضر كتابته ويعلمه قتيلا من يد امرأة فى حمام . قل آمين يا أيبك ، فقال : آمين .

ثم التفت الملك الصالح إلى عثمان وقال أخبرنى بما جرى ، فأخبره بكل شىء ولم يترك منه صغيرة ولا كبيرة ، إلى أن قال : وقد أتيتك برءوس القتلى ثم صاح ونادى حامليها فدخلوا وهم يحملونها ، ثم أمرهم أن يلقوا بها ، فرموها مبعثرة على باب الديوان وفى وسطه ، وقال الملك: يا عثمان ، سيدك منصور ، وعدوك مقهور ، اذهب إليه وقل له : انتهت سنتك ، فتعال إلى الديوان، لتمنح منصباً أسمى وأرفع ، أما ولايتك الجيزة فلا تزال فى يدك ، وله أن يولى عليها من يشاء من رجاله ، فقال عثمان : اكتب له كتاباً بهذا ، فأمر الملك وزيره بكتابته وختمه بخاتم الملك ، وأخذه عثمان ومضى إلى سيده بالجيزة ، ثم أمر الملك القاضى وأيبك بدفن الرءوس، فنهضوا وأمروا الخدم أن يجمعوها فى الحقائب ، ثم حملوها ودفنوها فى الرميلة .

أعطى عثمان بيبرس الكتاب فقرأه ، وقال : سمعاً وطاعة ، ثم جعل عليًّا الخبيرى والياً على الجيزة وكاشفها ، ووصاه أن يعامل الناس بالإنصاف والعدل ، وأن يكون يقظاً حريصاً على راحتهم ، ثم عاد هو وعثمان إلى بيته بمصر .

أمر الملك بيبرس أن يذهب إلى المحلة ليصلح شأنها فصدع بأمره وذهب إليها ومعه عثمان وأعوانه .

وقام بإصلاح شئونها .

وذات يوم دخل عليه عثمان فى مجلسه صباحاً ، وهو مطرق حزين ، فسأله عما جرى له ، وغير حالته ، فقال عثمان : إن قلت لك اتهمتنى . فقال بيبرس : لا تخف وقل ما عندك ، فقال : سرقت خيلك أنت جميعها . أما المماليك فخيلها موجودة ، وما دامت خيلك قد سرقت فلا داعى لخدمتك وبقائى معك ، فقال بيبرس : وأين كنت ؟ وأين كان السواس ؟ فقال : اسمع الحكاية : كنت فى الإصطبل وما ذاقت عينى النوم فى هذه الليلة ، فجاء جماعة وشقوا حائط الإصطبل وأحدثوا فيه فتحة تتسع لمرور الخيل ، ثم دخلوا وأخرجوا الخيل واحداً واحداً وأنا جالس أنظر إليهم ولم أجرؤ على أن أقول شيئاً خوفاً منهم ثم انصرفوا بها وما خافوا منى ولا منك ، فقال بيبرس : لو صحت يا عثمان واستغثت لأغثناك وأدركناهم ، فقال : خشيت إن صحت أن يقتلونى ، فقال : ما ضيع الخيل أحد غيرك ، ولهذا فأنت ملزم بها ، فقال عثمان : وماذا أصنع ؟ هل أسرق لك خيلا بدلا منها ؟ فقال : ألم تعلم بأن السرقة حرام : وأن السارق تقطع يده ؟ فقال : وماذا أصنع ؟ تعال معى نسأل الناس عنها . فقال : ومَنْ نسأل يا عثمان ؟ لقد أنزلت علينا الهم والغم بسوء تصرفك ، فقال : وما الذى غصبك على عثمان الذى يخلق لك الهم والغم ، إنى ذاهب إلى شأنى . وتركه ومشى ، فقام بيبرس ومشى من خلفه ، ثم جرى وجرى الأمير وراءه حتى بعدا عن المدينة ، ثم وقف عثمان يبكى ويقول :

ماذا تريد أن تفعله بى ؟ ! فأخذته الشفقة عليه وهدأ من خوفه واسترضاه ، وبينما هما على هذه الحال ، إذ رأيا رجلا خلع ملابسه وقال : أنت تعلم يا ربى أن الدنيا ضاقت على سعتها فى وجهى وأن هذا اليوم آخر حياتى ، ثم رمى نفسه فى النهر وغاص فيه ، ولما ضاقت أنفاسه ، وعزت عليه حياته سبح على وجه الماء حتى طلع على البر ، وقال : ظلمتنى نفسى وظلمتها فكنت المظلوم والظالم ، ولقد ضل فكرى بين عفو ونقمة يجريان على الخليقة ، ثم ألقى بنفسه فى النهر ، فقال بيبرس : يا عثمان ، أما الخيل فإن الله يعوضنا خيراً منها ، وأما هذا الرجل فأدركه وائتنى به ، ففرح عثمان ، وخفف ملابسه وأدرك الرجل فى النهر قبل أن يغرق وخرج به إلى الشاطىء ، فسأله عثمان : لماذا تلقى نفسك فى النهر ؟ فقال : لا شأن لك بى ، فقال : هل عليك دين ؟ فقال : وما الذى ينالك منه ؟ فجذبه عثمان ووقف به أمام بيبرس ، فقال له : لم تسعى إلى قتل نفسك ؟ فقال : قسا على الزمن ، وثقلت علىّ الحياة ، وفتحت على نفسى أبواباً من الشرور والأحزان ، لا طاقة لى باحتمالها فأردت أن أفر من ذلك كله بقتل نفسى ، فقال : أود أن توضح غرضك ، وتشرح لى حالتك ، فقال : إن لى حكاية هى أعجب ما سمعت فأصغ إلىّ :

أنا محمد كامل الهجان من خوارزم ، وملكنا الشاه جمك ، وأبى عبده ومملوكه وله منزلة عظيمة عنده ، وملكنا هذا أعقب ثلاثة أبناء وبنتاً وابنه الأصغر اسمه محمود ، وقد أراد الله أن يفجع الملك فى محمود ابنه

الأصغر ، فسرِق من بيته وهو صغير ، وضاعت جهود أبيه فى البحث عنه سدى ، فركن إلى الحزن عليه هو وزوجته أم محمود هذا ، ولما بلغهم أن ابنهم محموداً فى مصر عند الملك الصالح قال لى الملك أبوه : يا محمد ، خذ هذه الأموال ، وسافر إلى مصر ، واستأجر لك دكاناً فيها ، واشتغل بالتجارة حتى تشترى ابنى محموداً بأى ثمن ، وإن رجعت إلىّ به فلك عندى ما تتمناه .

أخذت الأموال واشتريت بضاعة ثم رحلت بها إلى حلب وفيها بعت البضاعة وربحت كثيراً، ثم اشتريت بضاعة أخرى ورحلت بها حتى نزلت بها فى المحلة ، فوضعتها فى خان وجعلت أبيع ما معى من البضاعة ، مدة شهر أو أكثر ، واتصل بى أولاد المحلة اتصالا كانت نهايته محبة وصداقة ومصاحبة، وذات يوم سألونى عن محل إقامتى فقلت لهم : إنى رجل غريب جئت المحلة للتجارة ، وأنا أقيم فى الخان الذى به بضاعتى ، فقالوا : ولكنك بهذا مقطوع الصلة بأهل المدينة ، فأنت لا تعرف شيئاً عن أحوالهم وعاداتهم وأفراحهم ، وفى هذه الليلة فرصة لك سانحة إن أردت أن تتنزها ، وذلك أن عندنا الليلة حفلة عرس ، فإذا سرت معنا إليها كان لك الحظ الأكبر فى مشاهدة أفراحنا ، والاستمتاع بما تراه فيها ، فأجبتهم إلى رغبتهم وسرت معهم ، وجلسنا فى تلك الحفلة نتجاذب أطراف النكت المضحكة ، حتى طلعت علينا الراقصات فى ثيابهن اللامعة الوضاءة وعلق قلبي براقصة منهن جميلة تسمى حجيج ، ولما انتهت نوبة رقصها

طافت « بالرق » على الحاضرين تجمع « النقوط » فهذا يعطيها نصف فضة ، وهذا يعطيها رغيفاً ، وهذا يعطيها حفنة شعير ، وهكذا حتى جاءت أمامى فأفرغت لها فى « الرق » كيساً من الدنانير : فجلست أمامى وقالت : ما اسمك يا سيدى ؟ فقلت : اسمى محمد ، فقالت : ليس لك أن تجلس فى مثل هذه الحفلة مع هؤلاء الأجلاف الغلاظ ، فقلت : غصبنى الحب وقهرنى ، فقالت : وإنى أحب أن تأتينى فى بيتى ، فقلت : ليتنى أعرفه ، فقالت : أخبرنى عن منزلك وأنا أرسل إليك خادمتى لتأتى معها ، فقلت : إنى غريب ومقيم فى خان تجارتى بشارع كذا ، فقالت : أعرفه وانتظر خادمتى فيه ، وكانت لها خادمة تسمى « الخلبوصة » جاءتنى الليلة التالية ، وقالت : إن سيدتى حجيج تدعوك إليها فناولتها حلة حريرية مذهبة ، وقلت هذه لسيدتك لأنى أحب أن أراها فيها ، وهذه عشرة دنانير لتحضر لنا منها طعاماً وفاكهة ، وهذه القطعة الذهبية هدية منى إليك ، ثم سرت معها وقضينا أكثر الليل فى أكل وغناء ورقص ثم قلت لها جاء وقت النوم فقامت وناولتنى كأساً من الشراب الحلو فشربته ونمت فلم أستيقظ إلا بعد شروق الشمس ورأيتها جالسة بجوارى فقالت : لقد تعبت فى إيقاظك فلم تستيقظ ، فقلت لها أمامنا الليلة القادمة ، ودمت على هذه الحال أسرف فى الإنفاق وهى تسقينى الكأس التى تغرقنى فى نوم عميق كل ليلة حتى نفد المال وأصبحت صفر اليدين ، وأصبحت أمامها لا أملك إلا نفسى ، وذهبت إليها فوجدت الباب مغلقاً فطرقته

عدة طرقات حتى أشفقت على وفتحت وسمعت أمها تقول : ما دام قد نفد ماله فاطرديه ، فرجوتها أن تعطف علىّ ولا تتركنى أستجدى الناس وأستدر إحسانهم ، فقالت : إن قبلت أن تكون لى خادماً فلا بأس ؛ ولما رضيت بذلك أسلمتنى إلى خادم لها أنام معه فى حجرته ، فعاملنى هذا معاملة سيئة ، لم أطق صبراً عليها ، ولكن حبى إياها لا تزال ناره متأججة فى صدرى ، فأقمت مع هذا الخادم حتى دعيت حجيج إلى حفلة عند شيخ العرب نجم البحيرى ، وكان قد جمع العرب ليأخذهم بعد هذه الحفلة إلى كاشف الغربية الجديد ليقتلوه ، وكنت أتبعها فى كل حفلة تدعى إليها ، فلجأت أمها إلى نجم البحيرى وطلبت منه قتلى ، فوعدها بذلك . ولما تبعتها فى هذا الحفل الذى أقامه نجم البحيرى أرته إياى أمها فجرد سيفه وأقبل إلى فأدركت ما يريده وجريت أمامه فأقسم إن رآنى فى هذه الأرض جعلنى بسيفه قطعاً ، ولكن الحب أعمانى وخفف عن قلبى وعيد نجم البحيرى ، فرجعت إليها بالليل ، ولكنى وجدت العرب قادمين من عنده . ليفعلوا بالمحلة فعلة خطيرة ، فتبعتهم وهم لا يشعرون ، وما زالوا سائرين حتى ثقبوا جدار الإصطبل الذى لكاشف الغربية ، وأحدثوا فيه فتحة ، ثم دخلوه وأخرجوا ما فيه من الخيل واحداً واحداً ، ومشيت وراءهم ولكن الخوف من نجم البحيرى جعلنى أرتد وأرجع وجعلت أبحث عن مكان أبيت فيه فما وجدت ، وقضيت بقية الليل هائماً على وجهى حتى انتهى بى المسير إلى هذا المكان ،

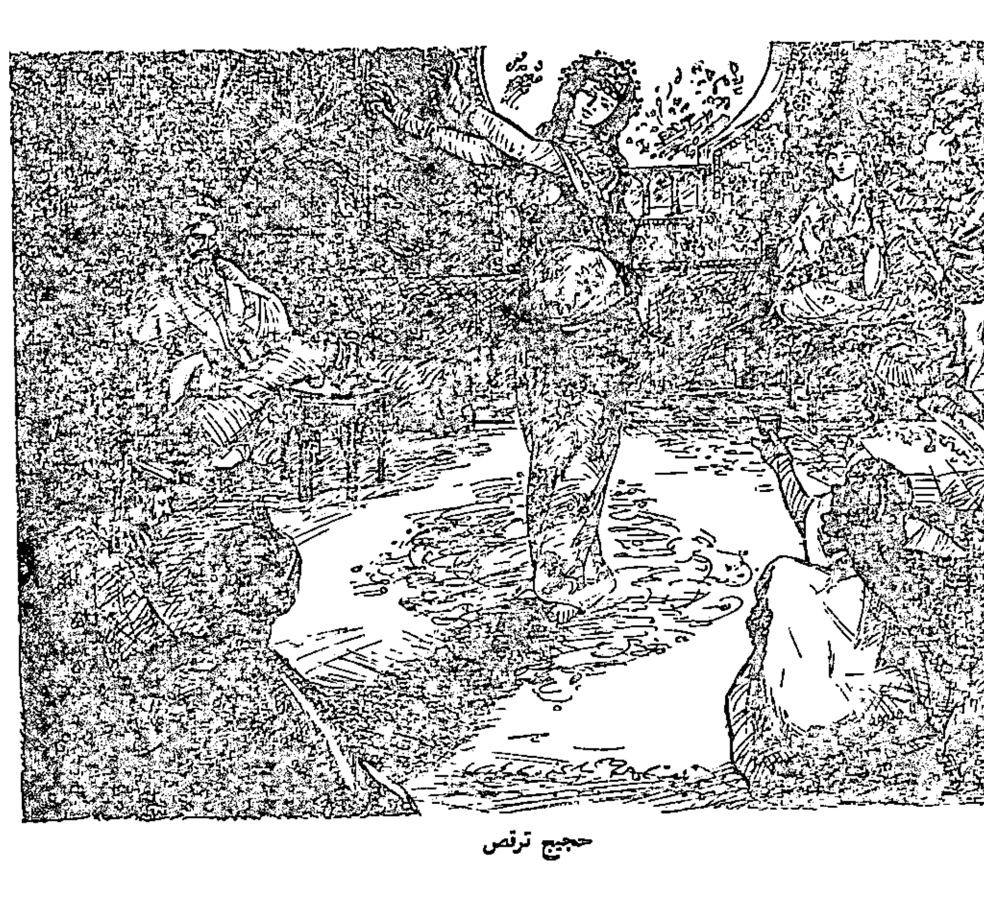
فى ذلك الوقت ، وأردت أن أفر من الحياة بالغرق ، وكان من خادمك هذا أن جاء بى إليك وقصصت عليك ما سمعت .

فقال بيبرس : ذكرت أنك محمد كامل الهجان ، تابع الشاه جملك؟ فقال : نعم ، فقال : وهل تعرف محمود بن الشاه جملك الذى جئت تشتريه؟ فقال : نعم يا سيدى أعرفه ، فقال بيبرس : يبدو لى أن العشق أفسد عقلك ، وأتلف ذاكرتك ، ألست أنا محمود بن الشاه جملك الذى جئت تطلبه ؟ فنظر إليه محمد نظرة طويلة فاحصة ثم قال : والله يا سيدى إنك محمود ولكن العشق وضياع المال والهيام على وجهى بقية الليل ويأسى من الحياة ، كل أولئك جعلنى ضعيف الذاكرة ، قليل الملاحظة ، والحمد لله الذى رد علىّ حياتى وسرورى وفرحى بلقائك ، أما المال فإنى أعرف أن والدك لن يسألنى عنه ، بل إنه سيعطينى أضعاف ما أعطانى فرحاً بك ، فقال بيبرس : يا محمد ، أما المال الذى أخذته الغزية منك فهو مالى ومال أبى ، وسأرده إليك وأزوجك من حجيج سواء أرضيت أم أبيت ، ولكن عليك أن تعرفنى السبيل إلى هذا الباغى نجم البحيرى الذى سرق خيلى ويسعى إلى قتلى ، لأنى مصر على قتله وقتل من معه من أفراد عصبته ، فقال محمد : وهل أنت يا سيدى كاشف الغربية الجديد ؟ فقال : نعم ، فقال : ولكنى سمعت أن كاشف الغربية اسمه الأمير بيبرس ، وأنت يا سيدى اسمك محمود ، فقال : اسمى محمود بيبرس ، تعال معى يا محمد وأخذه إلى دار الكشوفية وألبسه حلة ثمنية وأمر رجاله ومماليكه أن يستعدوا

بخيولهم وأسلحتهم ، فقالوا : نحن مستعدون ومنتظرون أن تأذن بالمسير ، فقال : إذا كنتم عند نجم البحيرى فأحدقوا بجماعته من كل جهة ، ولتكونوا منهم كالسوار من المعصم ، وأنا والصقران سندخل بين جماعته وعصبته لنقبض على نجم البحيرى ، فإذا سمعتم التكبير فضعوا فيهم سيوفكم ولا يفلت منهم أحد ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، ثم ساروا ومحمد كامل الهجان رائدهم يدلهم على الطريق حتى وصلوا إلى دار نجم البحيرى ولما وقعت العين على العين بدأه بيبرس بالتحية التى يعرفها ، فقال : « العواف » فرد نجم البحيرى قائلا « العوافين » وظن أنه من جماعته الذين جاءوا لمعونته فاطمأن إليه ثم سأله : من أنت ؟ فقال : أنا شيخ قومى محمود ، فقال : مرحباً ، أهلا وسهلا ، « العواف » عليك يا محمود ، فقال : عليك « العوافى » أيها الشيخ الكبير

وكان الصقران بالباب يرقبان الأمير ومن معه فى يقظة حادة ، وكان رجال بيبرس قد أحاطوا بالدار إحاطة القيد بالرجل ، وجعلت حجيج الغزية ترقص حتى مضى من الليل ثلثه ، ثم أخذت تجمع « النقوط » كعادتها ، من شعير وبيض وغيرهما ، ولما وقفت أمام نجم البحيرى قالت : إنعامك يا شيخ قومك ، فقال : أنعمت عليك بكيلة ذرة ، ثم مدت يدها « بالرق » إلى الأمير بيبرس ، فوضع فيه كيساً من الذهب ، ففرحت وتقدمت إليه ، وقالت : من أنت ؟ لعلك الأمير بيبرس ، فقال : نعم ، فقالت : يا سيدى هؤلاء القوم ما اجتمعوا إلا

لقتلك هذه الليلة ، فإذا قبلت نصيحتى وفررت قبل أن يعرفوك نجوت منهم ، فقال : لاشأن لك ولكن قولى : « شوبش » «ضابط بن رابط » فقالت : أخاف أن يقتلنى ، فقال : لا تخافى فالله هو الحافظ والناصر ، وستجدين هؤلاء الناس بعد قليل أجساماً بلا رءوس ، ورءوساً بلا أجسام فقالت : وأنا فى أمانك ؟ قال : إن شاء الله ينجيك على يدى ، فصاحت الغزية حجيج بأعلى صوتها وقالت : « شوبش على حياة ضابط بن رابط » فغضب نجم البحيرى وقال : لعن الله أباك ، وأبا ضابط بن رابط ، أما تعلمين أن هذا فأل سيئ يا قبيحة ، وجذب حسامه فقالت : أنا فى حماك أيها الأمير . وكان بيبرس واقفاً فقال : ارجع يا « بزبوز » العرب ، فرفع نجم يده بالسيف وهوى به على بيبرس ، فتلقاه « باللت » الدمشقى فكسر السيف نصفين ، ثم ضربه باللت فوقع على الأرض فى حالة عجز لا يستطيع معها أن ينهض ويقوم ، فأسرع إليه عثمان وكتفه ، وصاح بيبرس إذ ذاك بالتكبير ، وسلم محمداً الهجان الغزية حجيج وأمره أن يسير بها إلى مكانه ، ونهضت السيوف فجعلت تقطع الآجال ، حتى لم يبق من جماعة نجم إلا قليل ، فاستسلموا وألقوا أسلحتهم وسلموا أنفسهم للأسر والهوان ، فساقهم إلى المحلة وكانوا ثمانين وشنقوهم على أبوابها ، وأحضر بيبرس نجماً البحيرى أمامه وقال له : يا كلب ، لأى شىء سرقت خيلى ؟ أما بلغك ما فعلته بخضر البحيرى ؟ ! فقال : يا أمير ما فعلت ذلك من تلقاء



حجيج ترقص

نفسى ، وإنما فعلته بأمر الملك الصالح ، وهذا كتابه إلى بخطه ، وناوله إياه ، فقال: ومن أجل هذا الكتاب سرقت خيلى وقتلت حامل الكتاب ؟ فقال : نعم . فأمر أن يجرد من ثيابه ، وأن يعلق من عراقيبه كالذبيحة ، ثم قطعه بالسيف من وسط نصفين ، وأمر رجاله أن يجولوا به فى أرجاء المحلة يوماً كاملا وأن ينادى : هذا جزاء من أطاع الشيطان وجرؤ على الحكام .

جلس بيبرس وطلب محمداً الهجان والغزية حجيج فقال لها : أين مالى الذى أخذته من محمد الهجان هذا ؟ فقالت : جميعه عندى وما فقد منه شيء ، فقال لها : يا ملعونة ، إن محمداً الهجان هذا كاد يقتله الملعون نجم البحيرى بسببك ؛ ولو قتله ما عرفت طريق مالى وما عرفت هذا الملعون ، ومثلك غزية راقصة تضيع الناس وأموالهم على هواها ، فأنت تستحقين عندى أن أضعك فى حقيبة مع كلب ميت وأرميك فى النهر ، ولكنى سأعرض عليك ما يرضى الله ، فإن خالفتنى أنفذت فيك عقوبتى ؛ وإن أطعتنى كتبت لك النجاة والسعادة فاسمعى ما أقول : أما المال الذى أخذته من محمد الهجان فما أنا بطامع فى رده ، ولا بركة ن المال المردود ، إنى أدعوك الآن إلى أن تتوبى إلى الله وترجعى عما أنت فيه من اللهو والفساد ، فإن تبت إلى الله زوجتك من خادمى محمد الهجان وأعطيتك مهرك من عندى ، وأقمت لكما الأفراح ودخل بك زوجك فقالت : والله يا سيدى ما ولغت فى الفساد مدة حياتى وما زلت بكراً ،

وقد أجبتك إلى ما أردت ، وأنا لك أطوع من العبد ، فأمر بقاضى المحلة ، فحضر فى الحال وأقرأها التوبة إلى الله ، وعقد عقد الزواج بينها وبين محمد الهجان وأعطاها من عنده مهرها ألف دينار .

ثم جلس وكتب الكتاب الآتى وأمر عثمان أن يسير به إلى الملك الصالح :

« من عند العبد الأصغر والمحب الأكبر ، خادم الأعتاب ، مقبل الركاب ، كاتب الجواب ، بيبرس إلى الملك الصالح :

أما بعد فقد وصلنا إلى المحلة ، وأقمنا فيها الأحكام بالعدل والإنصاف كما أمر النبي صلوات الله عليه ، ومحقنا الباغى نجماً البحيرى وأعوانه ، ومرسل لكم رءوس أعدائكم ، والعاقبة العاجلة لكل من عاداكم ، وقد وجدنا مع الباغى نجم البحيرى كتابكم وهو مرسل إليكم واطلاعكم عليه يغنى عن بيانه وشرحه . وقلنا إن هذا الكتاب ليس من عمل الملك الصالح ، ولكنه عمل المنافقين الضالين ، وكل أولئك مرسل إليكم مع تابعنا عثمان ، أدامكم الله والسلام » .

أخذ عثمان الكتاب ومعه مائتا رأس من رءوس الأشرار وحملهم فى مركب إلى بولاق ، وهناك جعل الرءوس على مائتى جريدة وحملها على أكتاف الرجال وقال لهم : سيروا بها إلى الديوان ، ولكم عن كل رأس دينار ، فساروا بها إلى ديوان الملك الصالح بقلعة الجبل .

ولما تكامل الديوان وأخذ الملك مجلسه فيه قال : يا شاهين ، والله

ما كتبت ، ومن فعل هذا فجزاؤه عند الله ، فقال الوزير : أى شىء هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا تؤاخذنى يا شاهين ، وإذا عثمان يضرب عتبة الديوان بعصاه ويغنى ويقول : يا ليل

خايف عليك يا غزال البر لا تنصاد   إلا العوازل وراك قاعدين بالمرصاد

صباح الخير عليكم ، أنت عاكف على أكل « القراقيش والدقة » إلى أن تلحق بالرفيق الأعلى ، فقال الملك : وماذا تريد منى يا عثمان ؟ فقال : تسأل عن سيدى بيبرس ، أتكتب لنجم البحيرى بقتله وحامل كتابك إليه ؟ فقال الملك : يا دائم أنت الحى الدائم ، وأين الكتاب يا عثمان ؟ فقال : ها هو ذا ، فقال : ناوله إلى القاضى ليقرأه فهو الذى يعرف خطه ، فناوله إياه ، ثم قال الملك : وأين الكتاب الذى كتبه بيبرس ؟ فقال عثمان : ومن أخبرك به ؟ فقال : ناوله إلى شاهين ليقرأه ، فأخذه شاهين وقرأه على مسمع من الحاضرين . ثم قرأ القاضى الكتاب الذى أخذه ، فقال الملك الصالح : كثر خيرك ، قم وادفن رءوس القتلى أنت والوزير أيبك ليكون لكم عند الله ثواب كشف الغمة عن عباده المؤمنين ، ثم أمر الملك شاهيناً وزيره أن يكتب إلى بيبرس عن لسانه .

إقليم الغربية ملك لك ، لا ينازعك فيه أحد ، وإنى أدعو لك بكل خير ، وأعلن براءتى مما كتب ونسب إلىّ زوراً وبهتاناً .

أما رءوس القتلى فقد دفنها القاضى والوزير أيبك ، ثم أخذ عثمان

الكتاب ورجع إلى سيده بيبرس .

أما بيبرس فإنه أقام الأفراح لزفاف محمد الهجان وزوجته حجيج ، وجمعت لها الطوائف والجماعات وأقيمت الألعاب من كل الألوان والأصناف وبعد سبعة أيام من إقامتها زفت حجيج إلى زوجها .

وفى الصباح نزل إلى سيده فقبل يده ، ثم قال له بيبرس : يا محمد ، لقد فعلت شيئاً تستحق عليه التأديب والتربية ، ولولا أنك من رائحة أهلى لعجلتهما لك ، وما عليك إلا أن تمحو ما سلف منك ، وقد أصبحت حجيج بالزواج فى قبضة يدك ، ولكنك لن تراها من الآن ، حتى تعطى أبى كتابى هذا فى خوارزم وتأتينى برد هذا الكتاب من عنده ، وخذ هذه الألف الدينار لتنفق منها فى طريقك ، وهذه أربع حلل ، واحدة لأبى ، وواحدة لأمى ، وواحدة لأخى بقطمر وواحدة لأختى بدور ملك . فقال : سمعاً وطاعة ، وتسلم الكتاب والحلل ، وطلب مطية فجاءته فوراً ، ثم سلم عليه وقبل يده ، وأراد أن يسلم على حجيج فمنعه ، وقال : حتى تأتينى من عند أبى ، فركب مطيته وتوكل على الله ، وسار فى سبيله .

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٤٦٥٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٤٧-٦	ISBN

١ / ٨٦ / ٩٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)